الذي لم يأت

ونصوص عبر نوعية أخرى

د / محمد يوسف

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى أمي زُبيدة هانم تِلك التي أنا بِضعٌ مِنها

و ..إلى
زوجتي الدكتورة سَحر وأبنائي يوسف ويحيى ، نُجوم حياتي المتوهجة
أهديكم جميعًا بعضُ شَخابيطي

أصنع من حلمي سدًا
يمنع مرور الحُزن إليك
أجعل من وعيي جسرًا
وأمْرُق عليه نحو سؤالِك الحُرّ
اتخذ مِن كِليهما وَسيلة لَتَحقيقِ مُستحيلك
يكفيني الاجتهاد
ويكفيك شَرفُ المحاولة

دكتور محمد يوسف

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير

فَقط لأن الساحِر الجيد هو الذي لا ينفذ ما يريدهُ الجمهور
بَلْ هُوَ الذي يؤدي فقراته لتبدو أمام الناسِ كما لو كانت من اختيارهم.
سَمِهِ كَسلا سَمِهِ أي شيء آخر ذلك الذي يدفع البشر ليدفعوا النقود من أجل أن يشاهدوا أعمالًا لو فعلوها بأنفسهم ما حظيت بأعجابهم مثلما يقوم بها شخص آخر.
إنه سِحرُ الإقناع !!
لذلك يجب أن يبقى عدد السحرةِ أقلَّ بكثيرٍ من عدد المبهورين بهم .
هي معادلة بين الرقم الوجود والقيمة المعرفة, أوهي علاقة ما ليست دائمًا اضطرادية ولا ينبغي أن تظل عكسية طول الوقت ؛ لكن الأهم أنْ تَحتَفِظ بها دومًا نقيةً في ذاكِرتك كنوع من أنواع سِر الطبخةِ الشهية.

دكتور محمد يوسف

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

الذى لم يأت ....قد أتى ولا ريب !!!

لست ممن يفضلون الإغراق في استخدام اصطلاحات نقدية تعجز القارئ عن الفهم أكثر مما تعينه عليه ، كما أنني لست من المؤمنين بضرورة أن يكون المبدع ، ومن ثم الناقد ، مغرقًا في لغة تدفع القارئ دفعًا نحو الانفصال عن العمل .بل على العكس فإن ما يدفعني للقراءة ، ومن ثم الاستمتاع ثم أخيرًا التفكير نقديًا في عمل ما ، هي قدرة هذا العمل على خلق الدهشة .إن معنى الفن الحقيقي بالنسبة لي يلخصه تعريف هربرت ريد للشعر بأنه "فن توليد الجمر من العدم" فكل ما قلناه قد قيل من قبل حتى أصبح عدمًا وبالتالي فإن قدرتنا الفنية الحقيقية تبدأ وتنتهى عند تحويل هذا العدم إلى جمر مشتعل يبهج الروح بدهشته وطزاجته .

الذى لم يأت ...هذه المغامرة الإبداعية عالية الطزاجة بالغة الدهشة والتعقيد في ذات الوقت ...تؤكد أن عالم السرد لا يزال مدهشًا وقادرًا على صناعة الدهشة دون الخوض في غمار الأساطير والغرائبيات أو العوالم المنغلقة على الذات .

فمحمد يوسف سارد باقتدار يمتلك لغة بالغة الرهافة كقطعة الحرير ، بالغة النعومة كالمخمل وبالغة الحدة كحد الموسى بل وأحيانًا بالغة القسوة !!!

يعمد السارد هنا في هذه المجموعة إلى التعامل مع الهامش ، هامش الحياة وهامش الروح وهامش العالم وحتى هامش الذات يتعمد الولوج إلى هذا الهامش محيلًا إياه إلى كيانات حية تتفاعل وتتصارع في هامشها الخاص ثم تنصب دفعة واحدة مؤكدة أنها صلب المتن وعماده .

يتعامل محمد يوسف مع شخصيات من الهامش وأحداث من الهامش وبدلًا من السعي المعتاد وراء تحويل البطل إلى أسطورة ومن ثم يتأسطر العالم بالتبعية ، لأنه يسعى على العكس إلى أسطرة الحدث نفسه وليس البطل ...وبذلك ينتهى المطاف بالبطل إلى شخصية أسطورية بالغة النقاء والإدهاش ...هو بذلك يحقق شكل الأسطورة الحضرية بمفاهيمها وركائزها وإن كان بفعل عكسى ...ليس بأسطرة البطل وإنما بأسطرة الموقف نفسه !!!!

وتكمن المشكلة الحقيقية في فض مغاليق هذا النوع من النصوص في نقاط الاشتباك بين الأحداث على مستوى الخط الدرامي فالحدث العام يبدو بسيطًا هشا أحيانًا ...لكنه في واقع الأمريتكون من عدة مناطق للاشتباك بين مجموعة من الأحداث المؤدية لبعضها البعض في صورة أقرب ما يكون إلى التفاعل المتسلسل فما إن تنفجر نقطة الاشتباك الأولى حتى تتسارع وتيرة الانفجارلنصل إلى ذروة حدث تتكون في أفق لم يشي قط بوجود أي ذري !!!

والتباين الواضح في استخدام اللغة للسرد واستخدامها للحوار يرفع من معاملات الدهشة في تناول العمل إلى قدر مذهل فلغة السارد لغة عالية الكثافة أقرب ما تكون إلى المجاز الشعرى في أغلبها أو إلى الطرح الفلسفي في النذر اليسير منها بينما لغة الحوار لغة تتسم قصدًا بالبساطة المفضية إلى قدر عال من التواصل الحميم مع الشخصيات التي تنشأ في أحداث هامشية تحولت إلى أحداث أسطورية ومن ثم تتعين كشخصيات أسطورية وهو ما يؤدى إلى التحقق النهائي للشخصية والحدث في صورة أسطورية محضة .

كما يعمد محمد يوسف إلى التواشج الرهيف بين شخصياته وأحداثها حتى أنك تحس للحظة أنك مررت بالحدث ذاته وإن لم يكن بذات التفاصيل ، كأنك مررت بهذه الخبرة أو تلك مما يعزز أثرها الجمالي عند القراءة .

هذه الحالة الخاصة من الدهشة المفرطة بقدرة السارد على تطويع لغته في أدوار متعددة لخلق عوالم هي تحت بصر القراء دائمًا لكنه لا يراها ليضعها أمامه في صورة مختلفة كليًا عما يظن ويتوقع هي ما يدفع القارئ إلى السقوط في فخ الغرام بهذا النسق من الكتابة ، وهو ما يدفع الناقد في الغالب إلى الاعتراف بسقوطه في غرام الكتابة ومن ثم الامتناع عن كتابة رأي نقدي صريح وإنما هي مجرد قراءة مفتونة بالدهشة التي أتت في هذا "الذى لم يأت" فجعلت منه آتيًا بلا ريب .

د/ طارق عمار

obeikandl.com

obeikandl.com

وِحْدَة

أنا والليل غريمان .. يتصارعان حول حكايةِ المساء .. الليل يحب القراءة وأنا أعشق الشفاهة .. تبادلنا الأدوار لوقتٍ محدودٍ فكتبت أنا ما أملاه الليل عليّ فلم نعد غريمان بل شريكان يتقاسمان تركة البداية لكننا افترقنا قبل النهاية.

الأسفلت طريق طويل قد يبدأ ولا ينتهي أو ربما أنتهى دون بداية محددة الأعمدة المحيطة به على جانبيه تحاصره بسياج معدني يلمع في الليل يُشاطِرُ لَمباتهِ نَزيفَ الذكرياتِ المُتدفِق الذكريات ليست كُلها للبشر للأشياء حِكاياتُها وأروِقَةِ مسامرتها لِلحوانيتِ والمقاهي أَشكالها وأَسباب سَعيها وَنشاطها .أشكال ثابتةٌ وجامدة لا تتغير إلا بتحريك زاوية النظر إليها والادعاء بأن شيئًا ما قد تغير ..عُمَّالٌ يَرصُّون بَضائع .

فناجين قهوة تسكب في أفواه عجوزة وشابة ..الليل يهجع في المدينة لكنه هنا في هذه البقعة يرسم للمدينة حدًا فاصلًا بين نهار مضى وليل صاخب يوقع حضوره .سكان الليل ليسوا بأكثر روعة من مخلوقات النهار الدؤوبة هي نفس الكائنات تشبه الأشياء لكنها ربما اكتسبت مزاجًا رائقًا يخفف قليلًا من التماعها النهاري .لكل فم مفتوح في الليل قصة يرويها ولكل فم معقود قصة محتملة .ليست كل القصص جديدة وليس من اللياقة أن تقابل النكتة القديمة باستهجان لعل ضحكتك عليها تحول ملل إيقاعها المتكرر إلى صفاء مألوف يعيد ترتيب علائق البشر كمكعبات الدومينو المرصوصة على طاولات المقاهي ..من حسن الحظ أن الشمس لا تغيب عن الأرض في وقت واحد فمن العدل أن يمرح نصف سكان الأرض في حين يسعى النصف الآخر وبين المرح والسعي والنوم واليقظة هناك من لا يشاطر أهل الأرض عاداتهم الجميلة ليحتفظ بأوصاله مجمدة في صقيع الحياة ولم لا وكل شيء يشبه الآخر والآخر كمثل الآخر وحتى هذه اللغة الواصفة الرتيبة التي تصف الرتابة بعينها هي إحدى الأشياء التي تدور في فلك الأشياء لا جديد غير أن نعود مضطرين إلى بطلنا هذه الليلة التي رغم كل ما فات من أمور اعتادها بكل أريحية بات يشعر بالوحدة تأكل بيارق خياله الذي يطارده ..وللظل سكن يؤنس أحيانًا و يضايق أحيانًا أخرى ..وفي ليلته هذه بالتحديد أصيبت أغلب الأضواء بحمى

الأفول فارتاح من تعقب ظله مؤقتًا ..لم يعد يطيق هوايته الأثيرة الوحيدة في تفحص الأحرف الأولى من الأسماء داخل القلوب المرسومة على أعمدة الإنارة ..قصص العاشقين أصبحت تتعبه حفظ كل الأسماء تقريبًا بماذا تفيد وليس من ضمنها اسمه ..إعلانات الأطباء والأحزاب والانتخابات ازدحمت بها الحوائط وأسوار البنايات وفشلت في أن تهدئ من أحساس وحدته ..العابرين والحافلات كل يسير في حاله ولا يعيره بالا ..فتش في ذاكرته لعله يجد حدثًا أو شخصًا يقيم معه حوار لكن دماغه أضحى خاويًا من التفاصيل المثيرة وغير المثيرة ثم تذكر فجأة أنه جوعان ..إنها رائحة بعض المشاوي والأطعمة المنطلقة من مراجل المطاعم سيلت لعابه دلف لأحداها أسلم جسده لأريكة تمتص قلقه ..ومدد راحتيه على الطاولة ونادى على الجرسون..

سباجيتي بالمفروم من فضلك و ..أتوصى بالصوص.

في انتظاره للوجبة سرحت عيناه في المكان موائد .صحون ملاعق يعلق على حوافها الكلام .عاشقين وعاشقات .أصحاب عزائم .حوارات .نميمة .عتاب .خصام وصلح أصوات زاعقة وأخرى ناعمة وروائح متعددة بتعدد ألوان البشر واطيافهم صفقات تعقد .قرارات تؤخذ زواج .طلاق ومشاريع مؤجلة وأخرى جاهزة للتنفيذ .

حساء من لحاء المطعم تشكل أمامه ومنحه شيئًا من أنس في أوجه رواده وزبائنه عندما وقعت عيناه على طاولة أمامه لا يجلس على كرسيها إلا شخص واحد ..ابتسم وقال في نفسه:

لست وحدي الذي أتي إلى هنا بمفرده ..لست المفرد الوحيد في هذا العالم .

لم ينتبه إلى صوت الشوكة وهى تصطدم بالطبق الصيني الفارغ وترتفع إلى فمه خالية من أعواد المعكرونة اللذيذة هناك علاقة ما بين الوحدة والطعام نادى على الجرسون مرة أخرى ليطلب وجبة أخرى ..وحين بدء الشبع يظهر علاماته فوق حزامه خبى فضوله في تفحص الوجوه لكنه تسمر في اتجاه واحد حيث لاحظ أن الطاولة التي أمامه تراقبه ..وجه متخفي في نظارة سوداء ومتشبث بأناقة فوق رابطة عنق فوسفورية فاقعة اللون لم يبالي وحاول ألا يشغل باله بظنونه الواهمة .حدّث نفسه قائلًا:

نظارة سوداء وداخل مطعم في المساء لما كل هذه الجليطة وكيف لم أنتبه إلى هذه النظارة حين رمقته للوهلة الأولى .

أنهى وجبته الثانية ..طلب مشروبًا ..لكنه فوجئ بالآخر يطلب نفس المشروب.

هنا بدا الظن في التحول إلى شبه يقين خصوصًا وأن الوجه ذو النظارة السوداء لم يرفع عينيه عنه حتى في تلك اللحظات الخاطفة التي يرشف فيها مشروبه البارد فإن عينيه لم تتركه أبدًا. بدأ الارتباك يضخ بعضًا من الدماء المحملة بالأدرينالين في عروقه ..تظاهر بالوقوف فإذا بالآخر يقف مثله أدخل يده في جيب بنطاله فحدث نفس الشيء أمامه ..إن ذاكرته تومض الآن لأول مرة منذ أمد ليس بالقصير لكنها تفزعه ترى ماذا يريد منه ذلك المتحذلق الماكر.

أيكون هو ؟ هل يعقل أن يكون هو بالفعل وقبل أن تأتيه الإجابة لمح ذلك المسدس في إحدى يديه أسفل الطاولة.

المسدس موجه نحوه وشذرات الشر أحاطت بالنظارة السوداء فأكسبت وجه الآخر ملامح القسوة .

لابد أنه أحد أتباع ذلك المجرم الذي شهد ضده في إحدى القضايا ولابد أنه قد أوكل إليه الانتقام منه نيابة عنه .

رأسه تكاد تنفجر تلك التي كانت خاوية الذكريات منذ قليل .

أصبح كل ما يشغله أن يفكر في طريقة مهذبة للخروج أو الهروب لكن الآخر لم يترك له مجالًا فكل حركاته مراقبة بدقة وكأن النظارة السوداء تخفي وراء تمويهها رادارًا يسد عليه كل منافذ الخروج .

طلب مشروبا آخر تجرعه دفعة واحدة .

ازدحمت مائدته بالكؤوس الفارغة .

لا مفر إذا من المواجهة ..فالتخرج رصاصة الرحمة وتريحه من عذاب انتظار البلاء لا يوجد قانون لدى هؤلاء ..فقانونهم ألا قانون يحاكم من يشهد ضدهم إلا القتل .

نكس رأسه للأسفل وأغمض عينيه واستسلم لمصيره ؛لكنه ما لبث أن صرخ صرخة الحياة حين سمع صوت الجرسون يحيي شخصًا آخر دخل المطعم للتو ويخبره بأن مضيفه في انتظاره .

فتح عيناه ..ونظر باتجاه الأمام ليرى روحه وقد عادت إليه مع ميلاده الجديد .

أمسك الضيف بيد مضيفه وأخذ منه المسدس ليشعل لفافة تبغه شاكرًا إياه على هديته اللطيفة ومعتذرًا له على التأخير في حين أخذ من الجرسون العصا الأبنوسية المذهبة قبضتها والتي سوف تساعد مضيفه الأعمى على الخروج من المطعم بعد أن ينهيا لقاؤهما .

تنفس الصعداء ..دفع الحساب ..وخرج من المطعم

لديه الآن فرحتان وحسرة فأما الحسرة فلأنه اكتشف أنه حتى الذي ظن إنه بلا صاحب في المطعم لديه صاحب بالفعل وأما الفرحتان ..ففرحة روحه التي أنقذتها الصدفة وفرحة أنه أصبح أخيرًا يمتلك خبرًا يمكن أن يحكيه لأحد أي أحد.

لكن عليه أولًا أن يفتش عن أحد يسمع منه ليمكنه في المقابل أن يحكي له .عاد لأسفلت الطريق ..سار في عكس اتجاه طريق أحادي الاتجاه ..اشتعلت أضواء الأعمدة المعدنية ..وعاد ظله للظهور ..وجد أمامه لافتة كبيرة علقت بين عمودين كتب فيها حمدا لله على سلامتك لكن في المرة المقبلة أحذر من السير وحدك في سكة اللي يروح ولا يرجعش .

obeikandl.com

آخر الأموات

حام الضباب حول الجبانة في برودة صبحها الناشئ ..يعتصر فوضوية منظمة وفراغًا خصما ..هو الحارس الوحيد والجريء للمكان ..عاصمة مملكة العالم السفلي ..في عالم الأحياء النابض داخل إمبراطورية الأموات المقدسة على حافة أمشاج الخلق أستلقى على حصيرة قديمة مستندًا إلى ضلفة الباب الخشبي المفتوح بانتصاف عبثي ..وحين دخولها انتصفت فتحة الباب بالتمام ..بالقرب منها أنزوت كومة ضئيلة من اللحم الحي الدافئ في ارتفاع تدريجي لحشرجة الوابور النحاسي.. تكتم وجع بطنة المباغت.

خد اشرب شاي بالنعناع .هايريحك..

أراح رأسه الثقيلة السائلة إلى الغليان على بقايا مخدة رثة.. سكت الحراك وساد صمت قدري لبرهة وسط سكون القبور الصارخ واحتضار الأركان الأربعة.

شيخ البلد مات النهارده وزمانهم جايين..مش هاتقوم تعمل حاجة قبل ماييجوا..

ما كادت تنهي حديثها حتى ظهر في أفق الجبانة شاهد النعش الذي يحمل الساكن الجديد في المملكة.

يارب توب علينا ..

وحين عبرت كلماته مضايق ضباب الجبانة أصبح كل شيء على ما يرام ..اعتياد فوري واحتراف للحظة الفراق.

وأمام قبر الفقيد تعالت الأصوات وتكثف النّياح في لحظة عبور بربري لمشاعرهم الدفينة ثم لا شيء لا شيء على الإطلاق.. واحتفالية حزنه المصطنع انتهت بكورس الختام (إنا لله وإنا إليه راجعون).

بقية حسابك.

ما تخلي يا بيه

وقبل أن يعود الصمت وقبل أن تفتر الهمة ازدادت شراهة الدود .

لا حول إلا بالله امتى حصل؟ ..الله يرحمه ..البقية في حياتك

مرة أخرى يعد القبر ليدفن الجثة الجديدة الطازجة

طيب ..طيب ..شد حيلك..

يتصبب عرقًا والشمس ضربت أشعتها فوق الأرض تلسع الذرات الرمادية الكالحة وتلهب الجبانة بسياط من نار تكوى الأنفس وتشيع فيها الرهبة ..كأنها أرخبيل جهنمي أنبثق من كابوس مزعج لواقع أكثر إزعاجًا ..والقبور تذوب في بحيرة من سوائل الموتى

العفنة ..والشمس كأنها صلبت في السماء فثبتت مكانها بلا حِراك..

وهو يقف وسط بحيرة من عرقه المأتمي سيدًا للمكان المسحوق ..للعالم الصامت الذي نصبه ملكًا متوجًا بإكليل من الرماد.

ياه الست الطيبة دي كمان ..البقية في حياتكم.

كتر ألف خيرك .

العصر إدن ..مش أعملك حاجة ترم بيها عضمك برضة.

يا بركات الله الشغل كتير قوي النهارده.. رحمتك يارب. هي القيامة قامت ولا إيه ؟ كام ست وكام راجل النهارده بس يا قوة الله.

أوشكت الشمس على المغيب برغبة في ألا تعود .وها هو الميت الجديد قادم ..وهو مازال يحفر ويحفر..

ده عاشر واحد النهارده. ألطف بعبيدك يارب البلد ماعدش فيها حد..دا إحنا زي مانكون في حرب.

كانت التقارير الواردة من المركز الصحي تؤكد ذلك وتضارب الورق بالآراء ..كوليرا تيفويد ..طاعون..

منهم لله !

رجال ونساء وأطفال وحتى الحيوانات..

امتلأت ديدان القبور باللحم العفن حتى التخمة فتلاشت شراهتها لمزيد من اللحم البارد ..ذابت الحدود البرزخية الفاصلة بين قبور الوجهاء ومدافن البسطاء فالموت وحده قد وحد الجميع وهو وحده يحمل الجميع إلى حيث المثوى الأخير.

غربت الشمس وضربت الحمرة الشفقية شواهد القبور كأنها تسبح في بحر دموي إلى اللانهاية..

العمدة مات...والناس بتموت قبل العمدة الجديد ما يلبس العمة ..يا ترى هايحكم مين ؟

مسح عرق جبينه المتصبب.

كفاية كدة النهارده ..معايا فلوس تكفيني سنة ..هابطل شغل وارتاح أو..هابقى أدرب حانوتية جداد .

امتلأت القبور لآخرها ..لم يعد هناك أماكن للمزيد ..لم يعد هناك سوى بيته ..المكان الحي الوحيد داخل حدود أزمنة الغيب لا ضير جثة أو أثنين داخل مخدعه إلى حين يأتي فرج الله .

جاءت تحمل اللفة الرخوة ..وقفت مكانها كوتد دق في أرض الأموات..

انزلقت اللفة من يدها. انحنى جسده عليها. تدبير فوق الطاقة والقدرة.. سقطت على الأرض.. يملأ يده بحفنة من التراب يمسح بها قلبه الحي.. يحفر القبر الأخير.. يسقط فوق الكفن الصغير آخر الأموات.

ولكن السوريالليين نادرًا ما يرسمون البورتريه

(عنوان طويل جدًا لقصة قصيرة جدًا)

الغرفة عدة أضلاع.... مربعة وزوايا عدم تقعر الأبعاد ورأسه سقف يسد الأفق.... ينزوي كتلة أرق تثقب الحائط..... يستطيل الحائط ويستدير الثقب..... يتضاءل حجمًا....يتشكل لونًا.... أحد لونين في البعد الرابع..... نصف لون..... ربع.....بقعه.....لا شيء...يخرج من الغرفة وضع اللوحة تحت إبطه وغدًا منتشيًا.....توحد المكان والجماد مع وجه الإنسان....وطل الزمان من فوهة بركان الضوء اللغز.

ظن أنه حقق المعجزة...
سيقولون آخر السورياليين المحترمين..
سيكون عبقرية الظل والفراغ....
تسربلت ألوانه الشتوية فوق جلده..
ارتسمت على وجهه قسمة حائرة.
تداخلت الخطوط في عينيه وانفجر حلم الفرشاة في اتجاه بصره.
رمى اللوحة بعيدًا
ثم أغلق جلده على وجهه...

obeikandl.com

obeikandl.com

سراب يقظة

ارتمى داخل كوّة ضيقة من يقظته حيث بدا أن العالم سوف يغيب مؤقتًا عن مطاردته, أفسح للكوة نافذة من أرقه ونظر من خلالها, لم ير نفسه وحيدًا هكذا منذ زمن الأنبياء ولم يغويه شيطان الذات بأكثر من رغبة مُلحة للارتماء في ظل غفلته وحين تصادفت أزمنة البدايات في رأسه وجده عملاقًا متضخمًا كعفاريت الحكايات القديمة ضيفا ثقيلًا على وحدته .

_في البدء كنت رائعًا مثل انبلاج الصبح من ذاكرة العجز في البدء كنت تنتظر مناسبات الخوف تمليها حكمتك وقصائد ثورتك في البدء قبل هذيان الخريف وقبل أن تتوارى في خجل الوداعة كنت أنت وأنا مجرد اسمين منزوع منهما دسم الحضارة وثقل الوجود.

_لا تفسد علي وحدتي إنها نادرة ولا تعبث بحلمي فلم يعد بريئا أكسبته السنون مخالب الافتراس ابتعد .

_لقد استدعاني وعيك واستحال رحيلي .

آخر ما يتمناه أن يرحل في سلام تاركًا نفسه غارقًا في وحدته ظن أن الأرض دارت دورتها الأخيرة حاول أن يغلق النافذة كي لا يراه شبحًا خرافيًا يغتال مواسمه المتطفلة سد النافذة بجسده وبكل الممكن من رفضه فابتلعته النافذة وصار لازمًا عليه مواجهته .

_تكرهني لأنني أذكرك

_بل لأنك تشبهني

_لِمَ استدعيتني إذا ؟

_لم أفعل

_بل فعلت حينما ارتميت في يقظتك

_سوف آخرج منها الآن

_لم يعد ذلك ممكنًا مواجهتي سوف يكون لها ثمن

آخرج حلمة من قميصه اللحمي وفتش عن اعترافه في كل أعضاءه وعندما قاده الدليل إليه أشهر في وجهه سكينًا كان يخبأه في خوفه تحت جلده مباشرة .

_لا تحاول فأنت لست إلا دفقة بارود أفسدته الخيانة لن تنطق سوى صمتًا ولن تصيب إلا نزوة وجودك .

اقتفي آثار الغدر في تهديده وفارت ثورة الغضب في سكينه

_سكينك لن يبرؤك مني فأنا مرضك المزمن لا شفاء لك مني لن يخلصك إلا أن تترك

نفسك لي لن تجرؤ على ذبحي أنسيت خوفك.

كاد التردد يقتله وكاد الغضب يدفعه لإنهاء الموقف لصالحه

_هذه المرة سوف أجرؤ سوف أغمد سكيني في قلبك وسوف أتقيّؤك من جوفي لن تفييدك دعواتك لن تسترحمني توسلاتك

_أبعد عن رأسك الظنون فأنا لن أتوسل لأنك لن تفعل

أخذه الخوف بعيدًا عن أرض المعركة ظن أنه استطاع الهروب من حلقة افاقته لكنه فوجئ به يخرج مع كل زفرة هواء يلفظها صدره محاصرًا كل فضاءاته الممكنة وكل دوائر ذهنه يقظًا أو غافلًا

_سيدان أنت وأنا لا تشتت العالم بيننا لا تحتملنا مدارات الاحتمال أحدنا يجب أن يبقى دون الآخر اختر الآن؟

_اخرج من ضميري فأنا لا أريد أن أؤذيك

_بل لا تستطيع

_إذن أذهب طليقًا ولا تضطرني أن

_لا أستطيع

_كفاك استيطانًا لحلمي دعني وحيدًا عاريًا لا أريد سترك لا أريد قهرك .

وبين الحلم والوعي كان يقف كالوثن الذي الحد بكل دعوات الهداية المنبعثة من ضميره.

_لن تعود لعقلك ولن تستمر في حلمك فأنا في المنتصف صنعتني غفلتك فهل تقوى على الإفاقة؟ لو توحدنا فلن تعود كما كنت ولو خسرتني فلن يقبلك العالم اختر الآن؟

وكأن الأرض قد أبت أن تستأنف مدارها دون قربان فأوحت لشيطان الرعب نافثًا من فمه دخان القرار ألهمه السكين مرة أخرى أستجمع كل قواه عن آخرها تذكر بداياته ولعنة الحظ على جبينه وحدث نفسه أتكون نهايتك هكذا؟ فذكرته النهاية أنه بلا بداية وعندما استعصى عليه الخروج من كوة يقظته الضيقة أرتفع السكين في يده يشق هواء الصمت ولمع الخوف لأول مرة يبرق في عينيه كان ذلك كافيًا لاختزال سنوات الأمة إلى لحظة سعادة قدرية لم يقاوم وطلب المزيد أغلق بيده الأخرى نافذة أرقة كي لا تشهد ذاكرته على مصرعه ثم أغمد السكين في قلبه في وجعة في سمته خرج أخيرًا من كوة يقظته الضيقة متسلقا انتصاره ألقى السكين من يده نظر إلى أعلى ثم غاب في صمته..

شبه فعل

مرّت سنة . لم يتغير شيء . مدّد ساقه في اتجاه الحائط ثم ابتسم.
مرّت سنتان . لم يتغير شيء . مدّد ساقه الأخرى في اتجاه الباب فانغلق . مرّت عشر سنوات لم يتغير شيء . تجرع دواءه المر فارتاح قليلًا مرّت عشرون سنة . لم يتغير شيء . خلع طقم أسنانه وابتلع صمته مرّت أربعون سنة . . لم يقوَ أن يفعل شيء فقط أولاده دثروه بكفنه ثم انصرفوا .

في كفنه حاول أن يفعل شيء أي شيء . لكن زمان الفعل بالفعل قد ولى بغير رجعة تمددت لحمته رغمًا عنه وسقط لسانه من تجويف فمه . كيف إذن سينطق ويجيب على الأسئلة . انهالت علية الأسئلة من كل صوب كانت حبائله الصوتية قد تآكلت دون أن يستخدمها في شيء ذو قيمة طيلة حياته وفي اللحظة التي كان يحتاج فيها صوته بشدة لم يجد حنجرته جاهزة للقيام بدورها . . أوشكت طاقة مستعرة أن تنفتح علية . كان يعرف كل الأجوبة لكنه لم يقوى على النطق بها . كان يعرف أنه عاش حياته صالحًا لكنه لم يستطع أن يثبت تقواه دون صوت ودون قوة . اه لو يعود به الزمن للوراء لما عاش صامتا كما عاش آه لو يعود الزمن للوراء لكان ملأ الدنيا صخبًا وضجيجًا وخطًئا وصوابًا وحبًا وكرهًا . . اه لو يعود الزمن للوراء لكان منح وداعته وخجله بعضًا من ثورة الرفض وشيئًا من عبث التمرد . اه لو يعود الزمن للوراء لكان لطخ جزء من تعفف لسانه بحيوية النقد والسخرية ليرتاح في كفنه ولا تعذبه مساومات خطاياه التي لم يرتكبها . خطيئتك أنك عشت بلا خطيئة وظننت أن ذلك سيعفيك من المسائلة هنا سوف تمر السنون بطيئة وطويلة ومملة هنا لن يكون في مقدورك أن تمدد ساقك أو أن تبتلع دواءك ,أترى إنها نفس أبعاد غرفتك القديمة التي حبست فيها حياتك وهو نفس مقاس فراشك الذي راقبت العالم رقودًا عليه . . الأبواب مغلقه والفارق بين الأحياء والأموات مجرد قشرة أرضية رفيعة . ولن يسع العالم أن يسمعك لأنك لم تقوى على سماع صوتك حتى عفريتك الوهمي أصبح زاهدًا فيما فرطت فيه بطواعية اختيارك للصمت . . وهكذا خرجت خارج دائرة الأخيار والأشرار وهكذا أصبحت عديم اللون والرائحة وكأنك لم تكن كشبه فعل تردد في القراروتاه بين الأبيض والأسود فهيءً بمقامك العالق في أزمنة الأبد . .

بالتدريج تضخم شاهد قبره وأمحى اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته ووجد مكتوبًا عليه الآتي :

تحيا الدجاجات دومًا مسالمة وترقد بجوار حائط الخرس الإسمنتي تأكل وتشرب وتتناسل وتعبث في برازها دون أن تؤذي مخلوقًا ؛لكنها في النهاية تذبح وتسلخ وتشوى

وتؤكل ويلقى بفضلاتها في القمامة ولا يشفع لها عند جلاديها حسن سلوكها.

obeikandl.com

إغماءة

لحظات قليلة ويلتهب الموقف . . عدة خطوات وتبدأ المكاشفة أخبرني ذات مرة أنني سوف أبعث أمة وحدي. وكان عليّ أن أنتظر كل هذا الوقت قبل أن تؤجل قيامتي انهيار العالم . . لأن الانكفاء على الذات إحدى ميزاتي فقد انكمشت على كتابي أنتظر دوري . . أخبرني وقتها أنني سوف أنتظر طويلًا فهم لا يفضلون أن يبدؤا بأمثالي . . أخذني السيدان عن يميني وعن يساري إلى حيث مكان جاف وبارد . . وقالا لي سوف ينظر في أمرك لاحقًا . . علينا الانتهاء أولًا من كتبك . أفكارك . . ومن تاريخك . . سوف نجردك من كل أدواتك فتعود إلينا كما بدأت نقيًا كما كنت . . بلا ذنوب بلا مقاومة ثم أفسحا لي نافذة ضيقة وأكملا أنظر هذا هو منزلك جنان وظلال وشراب أثير سوف تحصل عليه بعد تطهيرك.

فاتني أن أسألهما في غمرة انشغالي لماذا أنتما متأكدان من كوني أنتظر مصيرًا حسنًا فإذا بهما ينطقان في آن واحد سمعنا تساؤلك في جوف قلقك ونؤكد لك أن حسن المصير من عدمه مشروط بما تصدقه فإذا أحسنت الظن بنفسك كان مصيرك كذلك أيضًا ثم سألاني ألا تحسن الظن بنفسك تلعثمت والتصق لساني بسقف حلقي ثم قلت أخيرًا أنتما أكثر دراية مني فاكتفيا بإجابتي المقتضبة وأكملا عملهما الموكلان به مقدمًا بعد أن أمراني في لهجة حازمة بأن أصمت وإلا فلن تنفك عقدة لساني حين يسألاني مجددًا .

كنت مسلوب الإرادة وأنا أرى أفكاري وكتبي تحرق وتاريخي يذبح فحاول السيدان تهدئتي لا حاجة لك بهم اليوم انتهت وظيفتهم سوف نعيدهم سيرتهم الأولى أنظر ها هم مجرد هشيم تذروه الرياح . . حاولت تأديب العالم فكرهك العالم . . اليوم سوف نقتص لك منه . . اليوم سوف ترى حقيقة هذا العالم الذي أفنيت عمرك من أجله فنبذك في يم النسيان . . اليوم سوف ترى هذا العالم يحشر مع المردة والأبالسة . .

لم أكن أريد كل هذا . . يسعدني لو لم ينتقموا لي ويفرغون منى سريعًا . . فأنا لا أطيق الانتظار . . نظر السيدان لي بنظرة غضب وقالا لا تنسى أننا نسمع ما تحدث به فؤادك دون أن تنطق به لا تتعجل دعنا نقوم بعملنا على أكمل وجه فأنت تستحق وسنجيبك على كل ما يقلق بالك .

كانت عملية تطهيري قد بدأت بالفعل ولا أعرف من منا الأدعى بالتطهير أنا أم العالم فقال لي السيدان سوف نطهرك من العالم وسوف نطهر العالم بك . أنت الأثير لدينا . . نحن نعرف عنك كل شيء أكثر مما تعرف أنت عن نفسك . . نعرفك قبل أن توجد ونوجهك إلى حيث تنتهي عذاباتك وآلامك إلى الراحة الأبدية . . لا تستخدم ذاكرتك لا

فائدة منها الآن . . أنت اليوم في عالم جديد يصنع من أجلك كما تشتهى تمامًا . .

عزيزي القارئ أنا أسف على تطفلي لكنني وجدته من الضرورة أن أتدخل هنا لأنوه عن شيء هام فاتني في المتن أعلاه وأنا أسرد قصتي الغيبية تلك التي لم تحدث حتى الآن بدليل أنني أكلمك وأتحدث إليك فأنا لازلت حيًا ولم أمت بعد ربما بعد وقت سوف تكون لهذه الأسرودة معنى ما حقيقي وددت أن أحيط علم معاليكم عزيزي القارئ أن السيدان هما بالفعل سيدان حقيقيان ولا تسرف في الظن بأنهم مخلوقات غير بشرية فنحن عمومًا لا نستطيع أن نعيد تمثيل خلائق الخرافة التي نسمع عنها إلا بشيء من رائحة الإنسان وأما اللغة التي تحدثا بها معي فهي نفس اللغة التي أكتب بها الآن ربما غيروا ألسنتهم قليلًا مع أشخاص آخرون يتحدثون بلغات أخرى حين المضي إلى عملهم بعد أن ينتهوا منى لكنهم على أي حال هما نفس السيدان بنفس هيئتهم التي أعجز عن وصفها في الوقت الراهن لأسباب أحب الاحتفاظ بها إلى مكنون ذاتي لكن ربما أختلف لون بشرتهم قليلًا وتفاوتت أطوال قامتهم مع أناس آخرون سوف يمرون حتمًا بنفس التجربة .

عزيزي القارئ شكرًا على متابعتك .

بدأوا برأسي وأفرغوها تمامًا من كل ذكرياتها وقالا لي :

لست بحاجة إلى ذاكرة بعد اليوم فلا وجود للتكرار في عالمك الجديد وعندما وصلوا إلى قلبي انتزعوه من صدري ووضعوا عليه بعض العلامات . . ثم غمروه في سائل فضي اللون وأعادوه إلى صدري مرة أخرى . . وهكذا فعلوا مع بقية أجزاء جسدي العضو تلو الآخر . . حتى انتهوا من هذه المرحلة . .

والآن بدأت أرى وجوها بدت مألوفة لي رغم عدم قدرتي على تذكرها . . طوفان من البشر والأحلام والهزائم . . تساق إلى بقعة ما في منتصف الطريق وطريق طويل في آخره بؤرة ضوء مبهر وصراط رفيع هش يفصل ما بين عالمين

وعندما وضعني السيدان على بداية هذا الصراط كانت قدماي ترتجفان بشدة . .

لا تنظر أسفل إنهم اعداؤك . .

لا تنظر وراءك أنها سيرتك

لا تنظر في أي اتجاه سوى الأمام إنه أفضل ما ينتظرك . . تقدم عليك اجتياز هذا الصراط لتصبح جاهزا للعالم الجديد . .

وتقدمت . . وبدأت السير . . ببطء وروية . . وأنا أسمع أصوات سقوط من خلفي . . ومنهم من كان يأخذ بيدي قبل سقوطه لأساعده . . فكان السيدان ينظران لي ويمنعاني من أية محاولة لمساعدة الآخرين

كن في نفسك أنت . . لا تنشغل بمن حولك . .

وكانت الأصوات تتعالى وتتعالى . . هل لنا كرة أخرى . .

هل لنا عود على بدء . . ثم أصوات أخرى لسياط من نار تكوي الجباه . . وسلاسل من حديد منصهر تقيد بها الأرجل وأنا أنظر حولي والرعب يملا عيني . . وقلت في نفسي هل هناك من سبقني واجتاز هذا الصراط إلى أرض الراحة الأبدية . . أم أنني أول المبتدئين ؟! !

وكنت أتقدم ببطء . . ولا أنظر خلفي ولا أسفلي كما أمرني السيدان اللذان لم أعد أراهما الآن وبؤرة الضوء في آخر الطريق بدأت تتضح شيئًا فشيئًا . . وشيئًا فشيئًا أيضًا كان الصراط يزداد هشاشة تحت قدمي . . أصبحت وحدي تمامًا في الطريق بلا دليل . . وضوء شديد يقترب يكاد يحرق عيني . . يقترب الضوء أكثر وإذا بصوت يأتيني (أقترب ولا تخف . . أقترب ولا تسل) . . ويزداد اقتراب الضوء مني (أنت هنا في قلب النور هات يدك).

وعندما أصبح ذلك الضوء في مواجهة عيني مباشرة . أبصرت ومددت يدي . . ومددت صبري . . ومددت قلقي . . لأجد نفسي على فراش أبيض وثير . . ويد الطبيب على رأسي . . وقد بدأ ينزع عن جسدي تلك الأسلاك والمعدات ثم ظل ينظر لي طويلًا حتى قال لي في لهجة صارمة:

يمكنك الانصراف الآن بدأ قلبك يعمل بشكل منتظم ولن تعاودك الإغماء مرة أخرى.

obeikandl.com

obeikandl.com

الليلة الكبيرة

في ذلك الفراغ المخروطي . . وعبر أثير مكهرب بموجات البث والإرسال وومضات فلاشات الصور التذكارية . . تدلى الحبل الذهبي من أعلى نقطة ارتكاز في الخيمة إلى طرفة الحر الأغر ليتحرك يمينًا ويسارًا قاطعًا مسافة كبيرة في فضاء الدائرة قبل أن يستقر في المنتصف . . برشاقة وحرية وعفوية وبعض من كبرياء عفيف ربما لأنه يعرف أنه البطل والمحرك لأخطر فقرة . . كانت محاولات الأطفال العبثية اللهو مع الستائر المغلقة ومحاكاة الفقرات التي يشاهدونها ثم ذلك الضجيج الذي يصدر أثر اشتباك الحراس مع ذويهم وطرقعات فتح زجاجات المياه الغازية وحركة الباعة داخل المقصورة كان كل ذلك كفيلا بأن يذيب بعضًا من كتلة الملل التي تسللت لصدور المتفرجين وهم في انتظار الفقرة الخطيرة . . في غرفة بعيدة عن كرنفال الضجيج وزحمة المقصورة وتوافد الجمهور . . انزوى وحيدًا أمام مرآة متوسطة الحجم تحدد شكلها المستطيل عدة لمبات كهربائية ملونة . . وعندما لمح صورة وجهه أدرك أنه يواجه نفسه لأول مرة منذ أمد بعيد . . كانت صورته في المرأة أقرب إلى لوحة بورتيريه دون تفاصيل دون ألوان رغم انعكاس أضواء اللمبات الملونة على وجهه والتي رسمت ظلًا هائلًا له خارج إطار المرأة . . أمسك في يده علبة الدهان وبدأ يملس على كتفيه العريضين وبدأ ذلك اللون البرونزي المعدني يخفي بعضًا من آثار الترهلات التي ملئت جسمه الضخم وتدريجيًا بدأت لوحة البورتيريه تتحول إلى حفرية حيوان خرافي . . اقترب من وجهه يدهنه بالطلاء البرونزي وعند تماس عينيه مع صورة وجهه في المرأة شعر بتلك الرجفة تسري في بدنه وتخرج زفيرًا حادًا من كواليس صدره كانت بثور الزمن وتجاعيد السنوات الطويلة تطل برأسها القبيح من تحت الطلاء البرونزي وتتحدى محاولات التجميل والتصغير وتذكرة بأنه يؤدي أخطر فقرات السيرك . . وأن تصفيق الجمهور مرهون بنجاحه وأن مستقبل كل اللاعبين واللاعبات مشدود بتركيزه . . منذ سنوات وهو يؤدى فقرته باقتدار . . أغلب الزبائن تأتي خصيصًا لمشاهدة فقرته . . كم من فتيات ولاعبات محترفات تبدلن علية بل كم من لاعبين وموظفين وحراس تغيروا وظل هو الثابت الأعظم . . لم يدرك أن زبائن السيرك أصبحت هي الأخرى لا تتغير نفس الأوجه ونفس متوالية التكرار ونفس الفقرة ورغم ذلك كانت الزبائن تنتظر فقرته بفارغ الصبر رغم معرفتهم الكاملة بكل خطواتها نفس القدر من التصفيق نفس الكمية الممكنة من الخوف والترقب حتى أنه بات من الصعب التفرقة بين الجمهور وبين زركشة قماش خيمة السيرك وكأنهم جزء من تكوينه والحقيقة أن الزبائن أصبحت تأتي

فقط لرؤية الفتيات اللاعبات الجميلات اللواتي بالكاد يرتدين ما يسترجلودهن . . واليوم قرر أن يؤدي فقرته مع فتاة جديدة صغيرة جميلة رشيقة رغم التحذيرات البيولوجية التي داهمت جسمه ورغم معادلات الرجولة التي كانت ضده . . وفي الغرفة المجاورة بدأت الفتيات الاستعداد . مساحيق التجميل مشدات الصدور . . وعطور تثير غريزة الخطر وتحفز خروج الأدرينالين . . بدأ الإعلان عن الفقرة الخطروبدأ عقله العجوز في الانتباه (اقتربت المظاهرة من الميدان المنصوب في وسطه السيرك) . . زفرزفرة قوية حركت ضلوع صدره العاري إلا من غابة كثيفة من الشعر المصبوغ . .

وترجل في الممر الطويل الذي يفصل غرف اللاعبين عن قاعة العرض الرئيسية وبدأ بخطواته الثقيلة الواثقة ونظرات عينية المنتظمة وحركة رأسه في مواجهة المنصة وهو يطأطئها للأعلى وللأسفل ردًا على تحية الجمهور كمحارب إغريقي يتهيأ للمعركة. كان يحفظ عن ظهر قلب أماكن جلوس المتفرجين وربما أسماؤهم ووظائفهم . . (كانت هتافات الطلاب تردد أناشيد حماسية ووقفوا صفا واحدا في مواجهة قوي الأمن). سبق خياله وتقدم خطوة وعندما أصبح في منتصف الخيمة داس عليه ثم رفع يديه إلى أعلى منتشيًا مع تسليط بقعة الضوء الأزرق علية يعلن بدء الفقرة مع فتح السيتار . . إجراء لم يمله على مدى سنوات طويلة .

وتعالت الموسيقى في احتفالية معدة سلفًا . . لتحتفي بأقدم لاعب وأمهر لاعب على الإطلاق . . وكان الحبل الذهبي المتدلي من سقف الخيمة شاهدًا على تلك الحفاوة . . أمسك بطرف الحبل في يده ثم انحنى يقبله قبلة طويلة علّه يستأنس الحظ المطلوب لتأدية الفقرة بأمان (هتف الطلاب كفاية حرام يا راجل يا عجوز هاتودينا في داهيه) . . برقت عيناه فجأة عندما اصطدمت بوجه اللاعبة الجديدة . . كان وجهها شاحبًا ودقيقًا يخلو من المزاح وكانت طلتها تشي بفراشة تتوق للانتحار في غمرة الأضواء المتلألئة . . طبع قبلة باردة على خدها المخملي وأخذ بيدها لتتسلق الحبل الأسطوري (واصل الطلاب هتافهم المدوي في مواجهة خيمة السيرك اطلع برة اللعبة سيبها لغيرك أحسن هاتموت البنية) خبت الأضواء تدريجيًا وهدأت الموسيقى المارشالية وأخذ وضعة على الترابيز ونظر لأعلى حيث رأى وجهها مطمورا بين نهدين يافعين وبدأ السكون يلف الخيمة مع آخر أمر من أحد الأمهات لطفلها بالسكوت . . أخذت الفتاة بطرف الحبل لتقذف بجسمها الصغير مع اندفاعه ودورانه حول الحبل وتركل بساقيها النحيفين جسرا معدنيا مثبت عند طرف الخيمة لتعود مرة أخرى وبقوة إلى الطرف الآخر ثم تترك الحبل وتتشقلب في الهواء عدة شقلبات لتعود وتمسك بالحبل من جديد وتتعالى أصوات المتفرجين مع كل شقلبه جديدة . . هيه . . أوبا . . . يالا . هيه كمان تانى . . . هيه هيه أوبا .

لم يشتت ذهنه بمتابعة شقلبات الفتاة في الهواء كان كل تركيزه في اللحظة التي ترمي بنفسها في شكل عمودي من أعلى نقطة في الخيمة إلى الأرض ليحملها بقدميه ويدحرجها عدة مرات قبل أن يقذفها مرة أخرى في اللحظة التي يعود فيها الحبل بفعل قصوره

الذاتي إلى الوضع الذي يمكن الفتاة من التقاطه والعودة معه إلى الارتفاع من جديد الأمر لا يحتمل مجرد التفكير في الخطأ ماذا لو أن الفتاة تزحلقت من فوق قدميه . ماذا لو أنه أخطأ التركيز وتآخرت عضلاته في حمل الفتاة . . (بدأت قوات الأمن تنهال على الطلاب بالعصي الصاعقة في حين تم القبض على مراسلين وكالات الأنباء والتحفظ على معداتهم) أعاد فرك المسحوق على حذائه القماشي ليضمن قوة ثباته وتذكر أنه في كل مرة على مدى سنواته في السيرك كانت تتداخل في رأسه تلك الأفكار عن الفشل ولكنه كان يتغلب عليها بقوة تركيزه وخبرته الطويلة . . عاد إليه شيء من هدوئه . . وبسط سيطرته على عضلاته وحدد توقيت انبساطها وانقباضها واستقبلت قدماه مؤخرة الفتاة الرهيفة باقتدار وظل يكورها في الهواء ويقذف بها في اللحظة المناسبة لالتقاط الحبل ليرفعها الحبل لأعلى وتعود لتتشقلب من جديد في جو من التصفيق المتواصل وصيحات الإعجاب . .

هيه . . اوبا . . ياللا . . هيه . . كمان . . تانى . . هيه . .

(تعالت صيحات الطلاب المضروبين والطالبات المهتوك عرضهن وبدأت المظاهرة في الانهيار)

كانت المرحلة الأخيرة والأكثر خطورة تقترب من بدايتها حيث من المفترض بعد عدة دورانان للفتاة أن تنهي الفقرة بوقوفها على قدميه لتحية الجمهور ثلاثة أربعة خمسة ستة محاولات ناجحة وهو يقذف بها لأعلى وتعود إليه ليقذف بها من جديد.

هيه . . اوبا
تقفز من الحبل
ياللا . . هيه
تتكور في الفضاء . . وتفرد جسمها . .
كمان . . تاني
يرقد على الترابيز في أشد حالاته انتباها . .
تفتح ساقيها قليلًا وتفرد قدميها . .
ياللا هيه
تتناثر زخات العرق على وجهه الذي انسحب منه اللون الأحمر
كمان هيه . . ياللا
ترفع يداها عاليًا . . تقترب أكثر
اوبا . . هيه
يثبت قدميه جيدًا لاستقبالها
هيييييييه . . اوووووووه
تتمدد في سقوط حر نحو الأرض
تتحجر عضلاته . .

تقترب الفتاة أكثر

أووووووووووه

تنزلق قدمه وتنحرف قليلًا . . تلمس قدم الفتاة ثم تتركها تتهاوى بكل اندفاع كتلتها نحو مصير محتوم (يتساقط الطلاب الواحد تلو الآخر حتى خبا حماس المظاهرة وتحولت إلى أشلاء) . .

يقف الحضور مشدوها وتنحبس الأنفاس . . تتهاوى الفتاة أكثر ناحية الأرض . . يحاول جاهدًا أن يمد يده لالتقاطها قبل أن تسقط ولكنها تندفع بشدة وترتطم ارتطامًا عنيفًا وتتناثر الدماء .

ستووووووووب كتتتتتتتتتتتتتتتتتت . . برافووووووووووووووو

اتجه المخرج الشاب يحي الفتاة ويطمئن على أن المرتبة الإسفنجية قد امتصت صدمة الارتطام في حين بدأ الجمهور الكومبارس في الخروج من البلاتو بعد أن أدى دوره في اللقطة بمهارة فائقة .

وربت المخرج الشاب على كتف الممثل البطل المستلقي على الترابيز يهنئه بالدور الممتاز الذي لعبة . . ولف السكون المكان وخلا المشهد من الزحام إلا من رجل يرقد ممددًا قدميه باسطًا ذراعيه على امتداد الأفق البلوري لسقف الخيمة وكان الطلاء البرونزي ينساب بسلاسة من مسام جلدة . . في حين استمرت عيناه الواسعتين تلاحق مطاردة قوي الأمن لآخر الطلاب المتظاهرين قبل أن يختفى في ظله داخل غيبوبة الانتهاء .

عيد ميلاد

(كيف نبتت سفاحًا أفكارنا الملقاة على قارعة الضمير حظ نرد وقرعة غيب ولاعب كفيف وغواية عاقر قدت قميص الحلم فسفكت منة أضغاث المشيب ورؤيا كانت قسمتها ضيزى حين رأى فينا البصير إنه بعد حين سوف يجدي فينا صبر السنين)

شيء ما من خريف أمي المتساقط يتسربل زخات على وجهي المحموم . . أصوات رعشة البداية التي لم أسمعها أبدًا ولم أعرف كيف كانت تكون . . أنا هنا وهناك حيث يتزامن الضدان . . وتنصهر أزمنة القبل والما قبل والبعد والما بعد دفعة واحدة في عنق لحظة الاعتراف . . بلا لون وبلا رائحة كنقطة شاحبة في أفق حزين . . تتلو على مسامعي قصيدة الحنين الأولى . . مترعة ببذخ الأنين حين يخرج للنور مولود لا يشتهي النور . . تراه خجل المولود أم رهبة النور . . أقف في المنتصف بين عمر فات وعمر يتوه في مراجل الزحام . . أمد يدي إلى اللامتناهي وكأنني أبتاع شكوى من حوانيت الفوضى المتبدية أمام عيني . . كيف أشعر بكل هذا الزحام وأنا أعرف يقينًا أنني بمفردي . . كيف أشعر بالاختناق وأنا أتنفس كل الهواء وحدي . لابد أنها هلاوس الوحدة وقدر الاجتماع مع صدفة الميلاد . . أو هو تبادل أدوار الزمان مع المكان . . أن يصبح المكان فجأة . . طاقة تومض من ذاكرة الابتعاد . . وأن يصبح الزمان دائرة يدفعني قطرها المنثني على نفسه إلى حافة الاستثناء . . لا أعرف هل أنا طفل شاب مراهق أم كهل عجوز إن ملامحي في هذه اللحظة لا تدلني على عمر محدد بل أكاد أجزم أن ملامحي تشبه كائنًا ما عرفته سابقًا في وقت ما لكنها أيضًا تتطابق إلى حد بعيد مع كائن آخر لم أره بعد ومتأكد أنا من كوني سوف أراه بعد حين حتى إصبعي عندما أغمدته في وجنتي الإسفنجية عاد بلا رد فعل فما وخزني وما بلله عرق ترى من أنا من أنا تحديًدا ؟

إن منخاري على سبيل المثال يحكني بشدة وأكاد ألمس ذلك المخاط اللزج يتدحرج كتلا هلامية لكنني لا أراه نعم أنا أبصر لكنني لا أرى أنا أسمع لكنني لا أستطيع الذهاب إلى مصدر الصوت قدماي تسمرتا في أرض الكلس أصبحت أنا والأرض شيئًا واحدًا أحدنا يؤدى إلى الآخر بكل بساطة أشعر الآن أنني جزء من ذلك الإسمنت المغروز بين بلاطات القيشاني أمام عيني حتى صورتي المعكوسة من خلاله هي تفاصيل حالة البين بين نائم بجفنين مفتوحين ويقظ بلا حركة واقف أم مستلقى ميت أنا أم حي أم الامرين معًا إن أصعب لحظات الموت هي تلك التي تقضيها بمفردك . ولا يشهد عليها كائن . . فالموت كالميلاد لابد من وجود من يزكيه لدى التاريخ ليتم تدوينه ولابد من جمهور يعشق الفرجة

ليسدل الستار على مشهد النهاية . . والموت دون ظرفي مكان وزمان لا يعتد به وبالتالي يصبح كأنه لم يحدث ما أعظم الموت حين يأتي حدسًا ويمضي حدثًا فيصبح كنبوءة عراف ذا منطق وجودي . . هنا إذن يقضي التاريخ نحبه دون طقوس مأتمية. . ترى من يأبه ترى من حتى يحاول أن يأبه . . إننا مجرد كائنات وديعة في حضرة المجهول . . في مدار غير المعلوم . . يخرسنا خوف عبثي هو آخر ما صنعته دهشتنا قبيل رحيلها الأسطوري برفقة الحقيقة . . نبدأ فرادى . . وننتهي جماعات يؤرقها طول الانتظار . . أن يأتي أو لا يأتي غيث الانفلات من رحم الوجود إلى لحد السكون ومنهما إلى ميتافيزيقيا ما بعد النهاية هكذا إذن تزداد شبابًا ما ورائيات صمت الجدران كلما تقدمنا في العمر وتصبح الخرافة يقينًا ينهش فيما بقي من رغبة الفضول.

حين جاوزت يدي فضاء المسافة الفاصلة بين طاقة البوح ودائرة الانزواء . . كانت لفافة الماريجوانا قد انتهت لآخرها . . فلسعت إصبعي بعقبها المحروق بشبق الانتهاء . . كان ذلك كافيًا للانتباه بأن شيئًا ما يحدث في الخارج القريب . . ضربت الأرض بقدمي فأنتشى الكلس أسفلي وصار رقيقًا هشًا فعادت لي أطرافي وانتهت بذلك أطول عملية إفراغ مثانة قمت بها في حياتي . عدلت من هندامي أعدت ضبط نظارتي الطبية على وجهي . . ومضغت علكة بالنعناع القوي . . علها تنتصر على رائحة الحشيش الاستوائي الناعم في فمي. . وعدت لأصحابي أحتفل معهم بعيد ميلادي.

قربان الخريف

تساقطت ألوان الخريف الحزينة لتملأ ثقوب أرض الخراب المتشحة بسواد النهاية اقتربت عطلة الكائنات من بدايتها التعيسة . . ودخل الزمان في بيات مأتمي طويل . . أطبق صمت الفجيعة على ما تبقى من أغاني موسمية كانت تغنى لجمع الحصاد والأعراس وحفلات أعياد الميلاد . . كانت بعض الأعين الهاربة من سراب الحقيقة تتطلع لانبثاق فجر أبيض جديد ومثير و الخوف يطارد ظل من يجرؤ على الوثوب نحو الضوء . . تثاءبت فلول النهار الرابض عند تلال المدينة وغاب الوادي في نعاس الظهيرة . الجميع يعرف أن مدينتهم على موعد مع ملاك الموت سوف يأتيهم بغتة من أي صوب . . و الكل ينتظر ويترقب وقد جثم الرعب على قلوبهم فهوت وجوههم في بئر الوجوم الكل يدرك تلك اللعنة التي أصابت وجودهم. . لكن أحدًا لم يكن يجرؤ على التصدي أو حتى على البوح بالرعب الانتظار والترقب لما عساه سيحدث هو الفعل الوحيد القائم تسللت أشباح الظلام نحو المدينة متخفية في زي كئيب قاتم و نفايات الأحلام تحولت إلى أوهام مريضة وعجز يقترب من المستحيل الأمل كل الأمل في الوافد من بعيد أن يأتي بالبشارة . . أو أية إشارة بأن الكابوس سوف ينجلي ويتبدد الخوف ويأتي الغد الجديد السعيد . . ولكن ذلك الوافد لم يحن ميعاده . . وعليهم الانتظار والتمسك بالفرصة الوحيدة للخروج من المأزق والنجاة من الهلاك . . تباينت أشكال هذه الفرصة حسب المعتقد والوازع وحسب الإيمان والشك .

قال رجل يظن نفسه صالحًا جاء من أقصى المدينة هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم بينما قال شيخ عجوز يحتضر توبوا مرغوا وجوهكم في التراب . ابتهلوا فقد اقترفتم من الآثام ما يعجل بنهايتكم وأنا منكم بريء . .

وقالت امرأة تقف بجوار زوجها رب ابنِي لي بيتًا عندك في الجنة ونجنِي من القوم الظالمين . . لن يأتيكم النبي الذي تنتظرون سوف تهلكون جميعًا . .

وقف شاب قوي البنية وقال ذلك جزاؤكم جزاء اعتمادكم على غيبيات تخدركم كان المستقبل أمامكم . لكنكم أدرتم ظهوركم له وجاء دور رجل آخر في الكلام فقال بثورية قلت لكم مرارًا لا جدوى من البكاء لماذا لم تتحدوا وتفرقت بكم الأسباب . لماذا لم تثوروا ضد الظلم وتتمردوا الآن ذوقوا العذاب . وأشار طفل صغير ناحية أمه حيث قالت لم تتحرروا من قيود الماضي . لم تتحرروا من استعمار الذل لنواصيكم . . لم تستجيبوا لنداء العقل وتماديتم في طقوس الانحلال . وقال رجل كأنه ذو نفوذ أيها الناس لم

يعطف غنييكم على فقيركم وعاقبتم ضعيفكم وتركتم وجيهكم رغم سفاهته وانحرفتم عن الفطرة السليمة . اقتلوا الظالم فيكم يخلوا لكم وجه إلهكم وتنالون عفوه اقتلوني أنا وطهروا ذنوبي لأواجه الموت طاهرًا . . صرخ الشاب مستنكرا أي إله يا رجل ليس لنا إلا العلم والعقل انتبهوا لكلامكم ولا تكرروا أخطاءكم فيستمر كابوسكم . .

قالت الأم عودوا للحق . . عودوا لما خلقتم عليه. وقال الثوري الثورة التمرد العصيان النضال هذا هو طريقكم الوحيد استفز كلام الثوري رجلًا بسيطًا يقف على استحياء عند طرف المدينة فاقترب من الجمع وقال أيها الناس تركناكم تتحكموا فينا فتجوعونا وقت تشاءون وتشبعونا وقت تروق لكم شياطينكم ألبستمونا وعريتمونا وكنا لكم من المطيعين فانقذونا من هذه المصيبة إن كنتم فاعلين . .

وهنا دخل في الحوار عنصر جديد مسخ مشوّه كان قد ولد لأحدهم بطفرة غريبة جعلت من رأسه أضخم من جسمه كله اسمعوا أيها البؤساء لا الفضيلة ولا الثورة ولا العلم . . إنه الحظ هكذا حظكم فاقبلوه . لو أخذنا بمبدأ الثورة والوحدة فضد من نثور وبمن نتوحد نحن أشلاء ضائعة لم نتعرف على أنفسنا بما يكفي فكيف نذوب في بعض ونحن نجهل تحقيق الذات . ولو فضلنا حكاية الفضيلة فعن أي فضيلة تتحدثون وما نحن إلا زمرة مغامرون ندعى أننا أفضل ما خلق الله وما وجودنا في هذه المدينة إلا صدفة قدرية بحتة جمعت بيننا على اختلاف أنواعنا . وأما العلم والعقل فذلك شأن عظيم لا يدركه إلا من تحرر من الخرافة وأنتم لازلتم تعتبروني مس من الشيطان لمجرد اختلافي عما ألفتموه . هذا مصيركم فاقبلوه . إنكم قربان استمرار الحياة لأجيال سوف تتعظ مما يحدث لنا . .

قال الرجل الذي يظن نفسه صالحًا ارجموا هذا الشيطان إنه أحد أسباب السخط عليكم من السماء . . قالت الأم لا إنه مسكين لا ذنب له ربما نزلت علينا رحمة السماء لوجوده معنا وقال الشاب دعوه ربما اتخذنا منه نموذجًا للدراسة والتحليل فيما بعد لو قدر لنا النجاة . . أبت لحظات السكينة والسلام أن تدعهم في حوارهم يعمهون فبدأ البرق ينبعث من السماء وسقط المطر زخات من سجيل . وتفتت جزء من الشمس وانهارت كتلة ضخمة من جغرافيا المدينة . . وظهر في الأفق الأسود شبح ملاك الموت يتقدم سفنا من لهيب آتية وراءه وبدا وكان العقاب لا مفر منه . . قال الشيخ العجوز ألا يوجد بيننا مسيحًا يشفع لنا نظر إليه الشاب بحنق وقال لقد أتيت من الكبر عتيا لما تخاف الموت وقد عشت رغدًا ألم تكفيك حياتك الطويلة أنا الأحق بالحياة لأنني لم أزل بعد صغيرًا على الموت .

قال الرجل الذي يظن أنه صالح موجهًا كلامه للشاب أيها المعتوه الصغير إن الشيخ لا يخشى الموت بل يخشى جحيم ما بعد الموت لأنه عاش حياته ضالًا بعيدًا عن الحق أما أنا فقد التزمت بالطريق قالت الأم له ومن أدراك أنك كنت على حق فقال لها بغضب لأنني حرمت نفسي من كل صنوف البهجة فقال له الشاب مسكين حرمت نفسك في

مقابل أسطورة آمنت بها وحدك لإرضاء رب متكبر اعتقدت أنه خلقك لعبادته فقط فرد عليه الرجل الذي يظن نفسه صالحًا أيها المجنون إذن لماذا خلقنا برأيك؟ فقالت المرأة التي بجوارزوجها نيابة عن الشاب خلقنا أيها الرجل الصالح لنعمل ونخطئ ونتعبد ونكتشف ونستسلم وننتصر فنأخذ بذلك حقنا من الدنيا والآخرة وليس من الآخرة فقط

صرخ المسخ لا فائدة الآن تدفعون الثمن لن يفرق العقاب بين صالح وطالح أو عالم وجاهل . . فقالت الأم إذن نحتضن أبناءنا ونحميهم بأجسادنا ليموتوا بعدنا . وقال الشاب بل نجمع كل انجازاتنا واختراعاتنا ونضعها في مكان آمن حتى يستفيد منها من سوف يأتي بعدنا . وقال الرجل الذي يظن نفسه صالحًا بل نصلي وندعي ونتضرع . وقالت المرأة التي بجوار زوجها فليفعل كل منا ما يتفق وضميره , وهنا نطق زوجها لأول مرة هل تقبليني زوجًا لكي في الحياة الأخرى رغم عدم اعتقادي في حياة أخرى لكن حبي لكِ أقوى من أي اعتقاد آخر فرمقته بدمعة حزينة انسالت على خدها الحريري ولم تقل شيئًا .

قال الثوري سوف أرتدي بزتي العسكرية أريد الموت على هيئة مهيبة . فقال له الشاب متهكمًا من تريد أن تهيب وأنت ميت أو وأنت هناك أنت مجرد نكرة وظيفتك أن تتجاوزك التجارب لنموذج أفضل.

وقال الرجل البسيط صارخًا كفاكم تشرذم تركنا لكم الدنيا كنتم فيها أسيادًا تهمشوننا واليوم تريدون أيضًا ونحن على مشارف العالم الآخر أن تستعبدوننا ألا تتقون؟ وأجابه الذي كأنه ذا نفوذ ولِم ارتضيتم لأنفسكم الذل والهوان لقد كنتم سعداء إذ يقودكم الآخرون إذ ينوبون عنكم الفعل وردة الفعل كنتم تتملقون السلطة من أجل فتات العيش وكنتم تبررون خطاياكم بالمسكنة وأنكم قوم مقهورون فذوقوا اليوم عذاب ما كنتم تعملون ومالا كنتم تعملون . .

فقال له الرجل البسيط مستغربًا أنحاسب لأننا لم نكن نفعل . . فرد علية الشاب بل تحاسبون لأنه فُعِل بكم . . وهنا ظهر الكاتب العملاق وقال للجميع انتبهوا أيها السادة لم نكتب تاريخنا بعد . فقال له العجوز وكيف تريد أن تكتب تاريخنا أيها الأفاق المخادع كما كنت تكتب خطبك العصماء للزعيم الملهم الذي فروأغلق أبواب المدينة علينا . قال الكاتب لم يفر الزعيم لقد ذهب يبحث عن شعب آخر يستحق كفاحه فقال الشاب بل ذهب لشعب مغفل يعبده كما كنتم تفعلون وقال الثوري الموت لا يطال الزعماء إنهم آلهة إنهم يصنعون الثواب والعقاب وقال الرجل الذي يظن نفسه صالحًا للكاتب الذي ظهر فجأة ولماذا لم يأخذك معه الزعيم لتنجي مما هو آت لنا فقال الكاتب تركني معكم لأخلد حكايته معكم ثم لماذا استيقظتم الآن أين كنتم طيلة السنوات الفائتة أين كان نباحكم وصهيلكم .

قال الرجل الذي يظن أنه صالح طمعنا في جنة عرضها السموات والأرض وقال الشاب حاولت بكل ما أوتيت من حكمة المعرفة ولكن الناس انصرفوا عني. وقال المسخ لا توجه اتهامك لنا واسأل صديقك الثوري لماذا كرّس جهده في بناء جدار عالي بيننا وبين

الزعيم لماذا أخافه منا ولماذا أرعبنا منه ولماذا أساء الظن بنا وقد كنا في غاية الاستئناس والوداعة ؟

وهمس الثوري في أذن الكاتب لابد أن نعترف أيها الكاتب أننا أنت وأنا المسئولان عن كبت آراء الشعب من أجل مزاج الزعيم الإله لكن هذا الاعتراف يجب أن يبقى سرًا بيني وبينك.

قالت الأم أيها الكاتب هل ستتنازل وتكتب حكايتنا . هل تشعر الآن أننا الأحق من الزعيم بأن تسرد تاريخه بدلًا من حواديت مزيفة عن عظمة الزعيم الإله وماذا سوف تكتب عنا لو صدقت مع نفسك فإننا لا نستحق عناء الكتابة فنحن شعب خدعته نزوات زعيمة ونافقة بطموح ثواره ولو كنت تنوي الكذب كالعادة فوفر على نفسك الجهد واستعد للموت وحاول أن تتطهر أولًا بأن تحرق كل مؤلفاتك حتى لا يعثر عليها من سوف يأتون بعدنا فينخدعوا بأننا كنا أمة تستحق الحياة . .

قال الثوري أيتها المرأة ألا تستحين ألم يكن الزعيم هو الذي قاد بنفسه الحرب ضد الأعداء ألم يقدم ابنه فداء لكم ألم يمحوا جهلكم بنور الثورة ألم يقم نهضتكم بتقدم الثورة ألم يرفع رؤوسكم باسم الثورة ألم يكن المدافع الأول عن حقوقكم ألم يوزع الأرض فيما بينكم بالقسطاس بعد أن كنتم أذلاء فيها أوقفه ونهره الشاب بشدة قائلا أيها المخادع قل الحقيقة مرة واحدة ثم مت بعدها تلك الإنجازات التي تتحدث عنها إنما قامت على أنقاض حرياتنا ألم تعرف أيها المغفل أن إنجازات زعيمك لم تكن تحتاج لزعيم من أساسه لأنها كانت سوف تتحقق بفعل التطور الحتمي لمسيرة الشعب الذاتية دون اللجوء لعبقرية الزعيم ودون المساس بحق كل منا مهما كان بسيطًا في الحياة دون قهر ودون خوف ودون تضحيات من أجل عفة الزعيم وشرفة الذي كان يبنيه من دماء شعبه . .

وقال الرجل الذي كأنه ذا نفوذ صدقت أيها الشاب لقد انقلب ضدي الزعيم بعد كل الجهد الذي بذلته لمجرد الاختلاف معه حول إحدى أتفه القضايا وطردني من جنته . .

قالت الأم كفاكم فلنحاول الاتحاد هذه المرة على الأقل ونحن نواجه الموت . . فقال الشاب إذا أصررتم على رفض الموت الجماعي هذا فإنني أعتقد أن الموت سوف يستجيب لرغبتكم وينصرف . . رمقه الرجل الذي يظن أنه صالحًا وقال سآخرا إذن علمنا أيها المتفذلك كيف يكون الانتصار على الموت . ثار الثوري صارخًا بالثورة . . فابتعد عنه الجميع باشمئزاز وانصتوا للشاب الذي قال ننتصر على الموت بأن نصرف شهيته بعيدًا بأن نمارس شعائر الحياة حتى آخر لحظة بأن نرقص ونغني ونحب ونكره بأن نعزف على أوتار الجسد والروح بأن نتحرر من سيطرة الموروث بألا نخاف وبأن نقهر أسطورة الرعب بداخلنا فقال له الرجل الذي يظن نفسه صالحًا أيها العفريت الصغير ألا يوجد لك كبير تلجأ إليه فقال الشاب بلى كبيري هو الشك, فقالت له الأم بنبرة استياء يا بني لا تجهر بإلحادك هكذا . . فقال لها الشاب ولما تجهرون أنتم باللذة المطلقة في غيبوبة

الرضا والنور . ثم ماذا يضيرني لو أنني أعلنت ما أؤمن به . وهنا تدخل الذي كأنه ذا نفوذ قائلًا علمتني التجربة أن السلام يحل عندما يتصالح الجميع على احترام عقائد الآخرين . فقال الرجل الذي يظن نفسه صالحًا بغضب لكن هذا الشاب لا اعتقاد له من الأساس فقال له المسخ من قال ذلك أيها المخرف إنه يعتقد في إله آخر مختلف عن إلهك. إلهًا صنعه من عقله كما صنعتم أنتم إلهكم من لباس التقوى . . فقال الرجل الذي يظن نفسه صالحًا يا للسماء ماذا أسمع يا لكم من مارقون إن العقاب سوف يحل علينا بسببكم تقول ذلك أيها المسخ بدلًا من أن تصبر على بلائك إذا كان تشوهك قد أفضى بك إلى نكران المعروف فما الذي يدعو هذا الشاب الذي أوتي كل أسباب النعمة لأن يقابل الجميل بالجحود .

فقال الشاب أيها الناس أنا لست ملحدًا إلهنا واحد مهما اختلف شكله ويقينه داخل كل منا أنا ضد الصبر على ميراث لم يخلقه الله بل خلقته أوهامكم أنا ضد أن يكرس المسخ حياته صابرًا دون أن يحاول تغيير آفته باستخدام عقلة أنا ضد أن تتغيبوا في نسيج الانسحاق تحت وطأة المقدور والمصير . أيها الناس أفيقوا ذلك الرعب الجاثم على صدر مدينتنا من صنع أيديكم ليس هناك مصلحة للسماء في عقابكم فلنصلى جميعًا لإله واحد عادل حكيم ورحيم إله لا يضيره أن نختلف حوله بقدر ما يهتز عرشه إذا ظلم أحدنا الآخر . .

بدأ الجميع يستحسن منطق الشاب . . حتى الرجل الذي ظن نفسه صالحًا والثوري حتى البسيط المهمش الذي بالكاد كان يفهم أجزاء الكلام وهنا ركع الكاتب العملاق على ركبتيه وقال سامحوني اغفروا لي لقد خدعتكم طويلًا وكذبت عليكم أنا سبب الفرقة التي دبت بينكم أنا من ظن نفسه كاملًا نزيها عن النقصان قال الذي كأنه ذا نفوذ إذن هيا بنا نقف جميعًا في وجه الموت كرجل واحد . .

وتكوموا جميعًا في انتظار الهلاك . . واتحدوا في دائرة مهيبة وتشابكت أياديهم . . و ملاك الموت يطوى الأرض بمنجلة المعقوف ويضرب الهواء بملاءته السوداء نافثا الرعب في كل الأنحاء وتشققت الأرض الجدباء وتكورت السماء واتجهت الأعين صوب كرة نارية ضخمة تسقط من السماء وكرة ثلجية كبيرة قذف بها الساحل القريب من المدينة . . كانت الفصول الأربعة تتعاقب تباعًا الواحد تلو الآخر في سرعة شديدة . . برد ونار . . مطر ورياح ليل ونهار . . وكانت قلوب الجميع قد اتحدت في خشوع وشخصت أبصارهم والتفت سيقانهم على بعضها والكل منهمك في لقاء الموت حينما وجدوه شاخصًا بملاءته القاتمة وسط دائرتهم . . قال الشاب انظروا في عينيه لا تبعدوا نظراتكم عنة ذلك ما يخيفه . . وقال الرجل الذي ظن أنه صالحًا شبكوا أياديكم جيدًا وليصلى كل منكم لمن يعتقد وقال الثوري لا تنسوا البسطاء شدوا من أزرهم هات يدك أيها الرجل البسيط . .

وقالت المرأة التي بجوار زوجها أعلن لك يا زوجي الحبيب أنني أود أن أكون معك حتى لو في جهنم وأنني زاهدة في قصور الجنة من دونك . وقال المسخ فلنقترب من ملاك الموت

فلننزع قناعه ولنقتحم وجهه الطلسم هيا معي جميعًا سنخيفه نحن بدلًا من أن يستمتع هو بإخافتنا وكان الكاتب أول من مد يده لإزالة اللثام عن وجه الموت . فقال له الشاب أخيرًا فعلت عملًا جيدًا لعله يكفر عن ذنوبك وحماقتك وعندما انكشف قناع الموت أبصر الجميع ناحيته و . . و . . و . . و

وقف الجد العجوز عن الحكي في حين أستمر الأحفاد في التوسل إليه لمعرفة المزيد . . فضحك الجد ضحكة عالية جددت جو الألفة الذي كان قد ضاع بسبب حكاية الموت ومدينة الهلاك ثم أكمل.

يا أحفادي كنت أنا الشاب . . وعندما رأينا جميعًا الوجه الحقيقي للموت كان قد اختفى واختفت معه كل ملامح الخوف والرعب ومظاهر الدمار الذي لحق بمدينتنا الجميلة وعاد الهدوء والسكينة مرة أخرى يرفرف على أجواء مدينتنا المحبوبة.

صاح أحد الأحفاد في وجه جده العجوز أتريدنا أن نصدق تلك التخاريف يا جدي العزيز . وانصرف الأحفاد الواحد تلو الآخر حتى أصبح الجد العجوز وحيدًا يتكئ بالحكاية . ويتهيأ لإعادة روايتها من جديد. . . . . .

obeikandl.com

هليللويا

اندس جسده النحيل في أحد الصفوف المرصوصة بإتقان شاءت الصدفة أن يقف أسفل بؤرة ضوء مصباح زيتي يضيء المكان . . ليرسم الضوء لجسده ظلًا هائلًا يمتد بعتمته على بقية الصفوف فيغتال بعضًا من انتظامها وسكينتها . . نظر يمينًا ويسارًا قبل أن يشبك كلتا يديه على صدره ويتخشب كمومياء تنتظر الحساب . . دقات قلبه تتسارع وكلما هم بتحريك شفتيه ليتمتم مقلدًا جيرانه بالصف يشعر بخيبة أمله لأنه نسي ما تم تلقينه من قبل ليقوله في مثل هذه المناسبات فيؤثر الصمت ويطبق شفتيه ويبتلع ريقه وبؤس رجائه ويقف مصلوبًا بلا أدنى حركة في انتظار الخطوة المقبلة التي لا يعرف متى وكيف سوف تكون . . .

انتظم أفراد الكورس في صفوف ضيقة وأمام كل منهم حامل خشبي يحمل أوراقا طبع عليها كلمات النشيد الذي سوف ينطلق من أفواههم مع أنغام الأورغن الحزينة كان مكانه في الكورس خاليًا باردًا إلا من قارورة زيت مشتعل يتراقص لهيب فتيلها على أنغام النشيد الذي بدأ يتلى من الأفواه و أفراد الكورس يسترقون النظر كلما سنحت الفرصة حيث مكانه الخالي ليتذكروه في شجن مكبوت. .

شعر أن الجميع يراقب تعثره ويزدري جهلة ثم وهو على وشك الانحناء تسارعت أنفاسه وثقلت رأسه لم يعتد بعد على طقوسه الجديدة فاته أن يستعد جيدًا قبل أن يرمى بنفسه في أحد الصفوف حافية الأقدام متلاصقة الأكتاف . . راوده قرار الخروج من الصف لينقذ حرجه فجذبته أيادي جيرانه لتعيده لذات الصف فأيقن أنه لا سبيل للعودة أبدًا وأن النية والفعل لابد وأن يتوسطهما تدريب جيد وعندما أنتظم في الصف تذكر مقولة أحد زملائه الجدد.

وأنت واقف في الصف ممنوع أي حركة أو التفاتة أو همهمة خارج النص ممنوع أن تفكر أو أن تتأمل يجب أن تنقاد بالكامل يجب أن تنسى نفسك وعالمك فقط الشيء الوحيد المسموح لك أن تفعله وأنت واقف بالصف المقدس أن تتنفس مفهوم .

النشيد يتعالى في البهو الكبير ليرتد صداه من الحوائط الرخامية فيصطدم بالأذان ليمنحها نشوة روحية من نوع خاص تتوق لها النفوس المعذبة والهنيئة في آن واحد لتطوف حول رغبة الخلاص الذي يوحد الجميع. .

هليللويا المجد في السماء

هليللويا ربنا موجود

قلبي مليان بالخير

يستعد لأداء الانحناءة الأخيرة و نسمة هواء قد اخترقت الصفوف تحركت لها الثريا الضخمة المعلقة في السقف عالي الارتفاع فتراقصت ظلال الصفوف وتمايلت في انسجام وديع وكأنها تبتهل وتتضرع لرب العالمين .

سمع الله لمن حمده .

فيأتي الجواب جماعيا هادرًا راضيًا بالمقسوم: ربنا ولك الحمد .

انحنت رؤوس الأشهاد وراح كل واحد يعترف بذنبه لينعتق من عذاب الضمير . في صوت غير مسموع حتى من ظن أن لا ذنب له أنتشى بالرحمة وصفاء الجمع وهدأة البال تمنح الجميع لحظات الصفاء المنشود وأيقونة الطفل في مهده التي علقت خلف المذبح هي هدف العيون والنظرات وهي منبع التجليات وبشائر الخير وسائر الخلاص و الكورس ما يزال يغني ويردد مع الأورغن الذي اكتسب حزنه شيء من الهيبة ترانيم التسبيح

هائمة بجناحي تمجيد لرب الصالحين والطالحين

مع الملكوت روحي بترتاح

في وجودك بأنسى الآلام

جثا على ركبتيه أخيرًا . بسط ذراعيه ومددهما فوق فخذية نظر في خشوع إلى موضع سجوده وراح يرفع سبابته اليمنى معلنًا التوحيد في إشارة معروفة . هدأت روحة قليلًا وانتظمت أنفاسه وبات مستسلمًا مرتاح النفس .

اقتربت الترنيمة من نهايتها . تطلعت النفوس لتنهل من بركاتها وتفوز برضا الرب ليقبل صلواتها وتسابيحها وعظاتها . وعندما انتهى النشيد ارتفعت رؤوس الأشهاد لتستنشق عبير البركات وتهلل بأصوات ثورية في وقت واحد: آمين

وامتلأ البهو الفسيح بترديدات البوح وصدى الإيمان النزيه: آمين. . . آمين

نزل أفراد الكورس ليلتحموا بالشعب وراح كل منهم يحتضن الآخر في فرح شديد .

خرج الجميع . انطفأت الأنوار . غلقت الأبواب . علقت الأقفال وزحف الصمت متدثرًا برداء العتمة من تحت العتبات لينتشر في أفق المكان معلنًا نهاية القداس.

ورغم الظلام الشديد كان ثمة ضوء خافت ينبعث على استحياء من ركن قصي خلف المذبح . نور أصر على ألا ينطفئ بعد انصراف الجميع .

إنها قارورة الزيت قد عاودت اشتعالها واستأنفت صلاتها التي لا يفقه تسبيحها أحد .

سلّم عن يمينه ثم سلم عن شماله وبعد أن أنتهى مسح وجهه في كفيه .

نظر بجواره وامتدت يداه لتصافح وتلبي السلام. .

حرمًا

آخرج كتيبًا صغيرًا من جلبابه ليتذكر الإجابة لكنه طواه قبل أن يفتحه ونظر إلى مصافحة مستبشرًا في سلام قائلًا هليللويا. .

الناشط علي

اصطف طابور الصباح في حوش المدرسة . حيث وقف الناظر بوجنتيه المنتفختين وكرشة السمين يحملق في التلاميذ ويشير بعصاه هنا وهناك لفرض مزيد من الانضباط . . وبدأ في إلقاء خطبته العصماء التي يكررها بالحرف الواحد في بداية كل عام دراسي. . هيئة التلاميذ في زيهم الموحد يبدون كما لو أن كتيبة من الجنود تستعد لخوض المعركة. والسكون الموشي بالحذر قد بدأ يغتال بهجة المكان . . أشار الناظر ناحية العلم في لحظة سرقها بتمكن من أعين التلاميذ الصغار قبل أن تأفل من النعاس . . وقرعت الطبول مع هتاف التلاميذ. .

تحيا جمهورية مصر العربية . . تحيا جمهورية مصر العربية

ظل التلاميذ يهتفون ويرددون حتى أرتفع العلم ثم أدوا التحية العسكرية للعلم الذي أبتل من ندى الصباح وثقل وزنة وتوقف عن الرفرفة . . انتهت مراسم الطابور بتفقد الناظر لصفوف التلاميذ واطمئنانه بالتزامهم بمعايير الدراسة من كتب وزى في حين كان أولياء الأمور يراقبون من بعيد تخبط أبنائهم وهم يهمون بالنزوح إلى فصولهم مع مدرسيهم في أول أيامهم الدراسية والمشهد برغم تعسفه لا يخلو من براءة لذيذة . . وصلت ذروتها عندما ضل بعض التلاميذ الصغار طريق الفصول وراحوا يهرولون في خطى غير منتظمة ناحية أباءهم وذويهم وهم يملئون الحوش المدرسي بأصوات صراخهم و بكائهم حتى تحول الحوش إلى ما يشبه حظيرة للصيصان الصغيرة التي فقست للتو لتخرج من عتمة رحم التكوين إلى صخب الحياة وألوانها المثيرة . .

خلا الحوش الواسع من الحركة ومن الحياة ومن الضجيج إلا من ذرات الغبار التي خلفتها معركة طابور الصباح وبعض أصداء حركة التلاميذ في فصولهم في الأدوار العليا .

وقف العلم وحيدا بلا تحية وبلا جنود فوق صورة داخل بروازصدئ تتصدر مدخل الحوش المدرسي الواسع . وصل على متآخرا وحاول أن يبحث عن مرشد يدله على مكان فصلة الدراسي ولكن دون جدوى فالجميع انهمك في إجراءات التلقين والاحتفاء بمواسم الثواب والعقاب حسبما تقتضيه لوائح المدرسة العتيدة لبرهة نسي على حيرته ووقف أمام العلم وأنتصب أسفل الصورة ذات البرواز الصدئ وظل يحملق فيها طويلا ليحاول إيقاظ ذاكرته الوليدة ليتذكر ولو القدر اليسير عن صاحب الصورة .

ولكن ذاكرته الصغيرة أبت أن تمنحه شيئًا من معرفة . إلا بعضا من أحاديث والديه كلما كانت تسمح الفرصة ونادرا ما كانت لا تسمح الفرصة .

إنه الأب الكبير
إنه الوالد الحنون
إنه المهيب
إنه .... إنه.....

أوشكت رأس على الصغيرة على الانفجار بالأسئلة التي حاصرت وعيه البريء وكبلت حركته وأصبح مثل الصنم الصغير الموثوق بحبال الصمت حول الصورة اللغز.. لم يدرك الصغير أنه أحيانًا يكون الإلحاح سببًا في النسيان وفي تسطح الذاكرة وفي صعوبة الوصول إلى الحقيقة رغم وضوحها وقربها وطغيان إلحاحها الكريه..

كيف لا تعرفه هل هناك أحد يجرؤ على ألا يعرفه ؟!

لم يعرف علي من أين تأتيه تلك الأصوات والهمهمات التي حاصرت فضاءه وهاجمت مرمى حركته فشلت قدرته على التفكير أو الحركة .

الملامح في الصورة تتحدى عتبات الزمن بحيث أصبحت لا تمت من قريب أو بعيد لصاحب الصورة الحقيقي الذي أكلت ملامح وجهه قرضه المشيب . وكست جلده انحناءات المشيخ .

ظلت الصورة تطارد سكينته . فصرخ علي:

لا لست أبي أنا أعرف أبي جيدًا

فيسمع على صوت أبية يأتيه من بعيد قائلا:

بل هو أبوك وأبو اللي خلفوك آخرس يا ولد وخليك مؤدب

يلتفت علي يمينًا ويسارًا لكنه لا يرى أباه فيعود خائفًا مرتعدًا يواجه الصورة التي نحتت في مخيلته وحشًا هائجًا يأبى أن يتركه يرحل في سلام فتسقط دمعة حائرة على وجنتيه الوديعتين ويبدأ جسده الصغير في الارتعاد فينظر في الصورة قائلًا:

لست أبى ولا أريد أن أعرفك وأبي أفضل منك وأرجوك دعني أرحل واتركني .

فيسمع علي صوت والدته يعنفه :

كيف يا ولد تقول ذلك هل نسيت ما علمناه إياك ؟

يحاول علي جاهدًا أن يجد والدته في ذلك الفراغ المخيف لكن صوت والدته يختفي بسرعة البرق دون أن يمنحه لحظة أمن وطمأنينة فيعود ليواجه الصورة الطلسم من جديد وكأنها أصبحت قدره أو حصته الأولى في عامة الدراسي الجديد وسؤاله المعجز الذي يجب أن يجيب علية حتى يحصل على صك انعتاقه من الخوف الذي راح يطارد نشوة فرحة بيومه الدراسي الأول

ماذا تريد منى ؟

ادى التحية ثم انصرف

أنا لا أعرفك حتى أؤدي لك التحية

إذن سوف تعاقب على ذلك

كيف أعاقب على ذنب لم اقترفه ؟
وكيف تجهلني ألم يعلمك والداك ومدرسوك من أكون أنا . . أنا الشخصية الأهم في حياتك .
لا لست كذلك !
كيف تجرؤ ؟
وكيف تطالب بما هو ليس حقك ليس من المفروض أن يعرفك الجميع ؟
سوف تشفع لك طفولتك ولكنى سوف أزورك في أحلامك وأرعب منامك .
افعل ما شئت فأنا لا أخاف .
ألا تخاف مني ؟
ولِم أخاف منك أنت مجرد صورة لا تنفع ولا تضر ؟!
ولكن صورتي في كل مكان وفي أي مكان تدركه الأبصار.
ولكن ليس في عقلي . صورتك لن ترعب إلا الحجارة والجماد لأنها تبقى دومًا وحيدة بعد أن ينفض الجميع من حولها وينشغلون عنها بما هو أهم وأكثر فائدة .
أنت ولد ثرثار.
وأنت مجرد صنم وعبادة الأوثان ولّت بغير رجعة.
لا فائدة معك سوف أؤذيك
ماذا سوف تفعل أرنِ شجاعتك ؟
بدأ علي يبتعد بالتدريج عن الصورة محركًا قدميه للخلف ومستمرًا في ترديد مقولته:
أرنِ شجاعتك
أرنِ شجاعتك
أرنِ شجاعتك. .
حتى اصطدمت حقيبته المدرسية التي كان يعلقها خلف ظهره بكتلة لحمية رخوة.
استدار علي ليواجه صاحب الكتلة اللحمية التي اصطدمت بحقيبته المدرسية ليتفاجأ بيده الغليظة تهبط على صدغه الرقيق وتصفعه صفعة يقع على إثرها ويطرح أرضًا.
كان الناظر بكرشه السمين المتدلي فوق حزام بنطالِه الواسع ينظر لعلي بنظرات كلها وعيد ويقهقه عاليًا, فيزداد كرشه اللدن اهتزازًا . فرك علي عينيه جيدًا ووقف في مواجهة الناظر بشجاعة قائلًا:
لماذا تضربني ماذا فعلت لك كي تضربني ؟
لم يأبه الناظر لسؤال علي وظل يضحك عاليًا ,فبدأ علي يلاحظ أن ملامحه تتشابه إلى حد بعيد مع ملامح الصورة المعلقة أسفل العلم , وأصبح نظره مشتتا بين الصورة وبين حضرة الناظر ذو المشاعر القاسية والأحاسيس المتبلدة وأخيرًا توقف الناظر عن الضحك فتوقف كرشة عن الاهتزاز ونظر لعلي قائلا:
ألا تعرف من أنا ؟

اغتاظ علي بشدة وقال :

أكره هذا السؤال الغبي الذي دومًا تعتقدون أنه يعفيكم عن المسائلة والمحاسبة .

لم يكترث الناظر لكلام علي ويقظة ونضوج وعيه المبكر الذي يميزه عن بقية زملائه وأشار لأحد المدرسين أن يرافقه إلى فصله الدراسي .وحينما جلس علي في فصله بدأ المدرس في الشرح وعندما انتهى من كتابة بعض العبارات على السبورة واجه التلاميذ الصغار, وعندها لاحظ علي أن وجه المدرس هو الآخر يتشابه إلى حد بعيد مع ملامح الناظر وملامح الوجه الذي يحتل الصورة أسفل العلم في حوش المدرسة . نظر علي في أعين زملائه التلاميذ علّه يجد الإجابة ؛ولكن زملاءه أخذوا ينظرون إليه ويضحكون في سخرية .

أخذ المدرس يضرب بكفيه على المنضدة أمامه لفرض بعض النظام وعندما هدأ التلاميذ وتوقفوا عن الضحك قرع باب الفصل فراش المدرسة ليستأذن من مدرس الفصل ويخبر علي أن والده يريده في مكتب حضرة الناظر.

أخبر الناظر والد علي الذي حضر بناءً على استدعائه أن يأخذه للبيت اليوم ويكتفي بهذا القدر حيث إن علي مرهق ويحتاج للراحة ثم نظر لوالد علي بغيظ وقال :

واضح أن علي ولد ذكي وسابق سنه ربنا يخليهولك

وفي الطريق استسلم كف علي الصغير لاحتوائه براحة كف والده وشعر في التصاقه بجسم والده بشيء من الطمأنينة وراحة البال وراح علي يتأمل وجوه المارة من حوله كأنه يريد أن يتأكد من أن الوجوه لا تتشابه مع وجه الناظر والمدرس والصورة في حوش مدرسته وعندما تأكد من أن لكل وجه ملامحه الخاصة نظر لأعلى حيث والده وراح يحدثه قائلًا :

كان يومي الأول في المدرسة في منتهى الغرابة

ردّ عليه والده دون أن ينظر إليه قائلًا :

كيف ؟

فقال علي :

تصور يا بابا حسيت في لحظة أن كل الوجوه تتشابه وتختفي تفاصيل التنوع والاختلاف الذي يمنحها الأصالة والحيوية .

مصمص الوالد شفتيه ولم ينطق بكلمة فعاد علي يوجه إليه حديثة قائلًا :

تفتكر يا بابا أيهما أفضل أن نكون جميعًا نسخا متطابقة أم أن يكون لكل منا شخصيته التي تميزه عن الآخرين ؟

هنا تكلم الأب وقال :

بل دعني أسال أنا نفسي سؤالًا يا علي هل يكون الذكاء والفطنة نعمة أم نقمة ؟

فقال له علي :

بالطبع نعمة يا بابا هكذا علمتني وعلمتني أيضًا ألا أرضخ أبدًا لأي إجابة لا ترضي

شغف عقلي بالمعرفة والبحث والتنقيب
فقال له الأب :
كلامك صحيح يا علي أصبحت أنا الذي يتعلم منك يا صغيري
فقال علي :
العفو يا بابا أنا الذي دومًا سوف أظل أتعلم منك تصور النهارده وأنا في المدرسة حسيت في لحظة أنك نادم على الأشياء التي علمتني إياها ولكنني الآن تأكدت أنه كان مجرد كابوس . أنت بابا حبيبي .
فبكى الأب وسقطت من عينية دمعة مرت ثقيلة على خديه حتى سقطت على الأرض وقال :
لهفي عليك يا صغيري عندما تكبروتواجه ما لم نقدرنحن على مواجهته ونحن ندعي الذكاء والحكمة أمام صغارنا .
فقال علي :
اختلاف الأجيال يا بابا لازم يحمل معاه بذور التغييرمش ده كلامك . .
ابتسم الأب وانتشى وحدّث نفسه قائلًا :
لا أعرف يا صغيري هل سيشقيك ذكاؤك الحاد أم سيسعدك هل ستلعنني يومًا عندما تدرك أنني سلبتك براءتك في سبيل تنشيط وعيك مبكرًا حتى لا ترضخ أبدًا للطاغوت أم سوف تكون ممتنًا لي ولما علمته إياك .
ثم نظر للأمام وظل ممسكًا بيد علي وظلا يتهامسان بكلامهما عن المستقبل والحرية والأمل وعن أشياء أخرى عديدة علمها الأب لابنة الصغير فنبغ وتجاوز أقرانه في فهمها وحبها وجلب على نفسه دون أن يقصد حقد الآخرين وأحيانًا كرههم . ظل الأب ممسكا بيد ابنة وظلا سائرين حتى غابا في الزحام .
وفي صباح اليوم التالي ذهب علي مبكرًا إلى مدرسته حيث وقف في الطابور مع زملائه وعندما قرعت الطبول وتصاعد الهتاف مع ترديد التلاميذ و المدرسين .
تحيا مصر.....
تحيا مصر.....
كان العلم يرتفع بالتدريج ليصل إلى مكانه حيث أعلى نقطة على سور سطح المدرسة وظل الهتاف يدوي
تحيا مصر
تحيا مصر
وظل رجع الصدى يدوي هو الآخر
تحيا مصر
تحيا مصر
لم يتضح وقتها من أين يخرج الصوت من أفواه التلاميذ أم المدرسين أم من حجارة

السور أم من رمال الحوش أم من العلم المنصوب أم من أغشية الطبول التي لازالت تقرعها عصي الحماس في أيدي التلاميذ الصغار كان علي يصرخ بكل ما أوتيت حبائله الصوتية من قوة ومن طاقة .

تحيا مصر

تحيا مصر

وكان التلاميذ يرددون وراءه بنفس الحماس والوتيرة حتى امتلأ الحوش المدرسي بالهتاف وصدى الهتاف وعندما أنتهى التلاميذ من هتافهم وحماسهم الصوتي بدأت أقدامهم تضرب الأرض بطريقة عسكرية منتظمة مع قرع الطبول ليتوجهوا إلى فصولهم لاقتحامها

وقبل أن تنتهي مراسيم طابور الصباح . ازداد وقع الأقدام وارتفع صوت الطبول فينظر علي إلى الصورة المعلقة أسفل العلم ليجدها قد سقطت على الأرض بفعل الموجات التصادمية الصوتية المنبعثة من صدى الهتاف وقرع الطبول ووقع الأقدام وعندما ركض الناظر وبعض معاونيه في اتجاه الصورة ليرفعوها من فوق الأرض ويعيدوها إلى مكانها أسفل العلم كانت أقدام التلاميذ قد حطمت بروازها الصدئ ومزقتها إربًا إربًا ولم يعد لها أي ملامح أو تفاصيل نظر الناظر باتجاه علي الذي بدأ يلاحظ أن وجهه قد عادت له ملامحه الأصلية ولم تعد تتشابه مع ملامح الصورة التي مزقتها أقدام التلاميذ كان علي يبتسم ابتسامة تشي عن الرضا في حين ظل الناظر ينظر إليه بغيظه المعتاد حتى غاب وسط التلاميذ الهادرة . انتهى طابور الصباح بزخمة وزحمته وانصرف الجميع وخلا المكان من الضوضاء ومن الحركة إلا من رفرفة العلم فوق الصاري بانسيابية وطلاقة لم تحدث من قبل .

صلاة العيد

في الصباح الباكر . . ارتديت حُلتي الجديدة التي اتقنت زوجتي حياكتها . . ولففت على رأسي العمامة وانصرفت مبكرًا . . وفي الطريق حاولت أن أجمع أكبر قدر من الرفاق والصحاب . . تكسوا وجوهنا مسحة إيمان وتقوى لم نعهدها من قبل وكنا قد اتفقنا سابقًا أن نتقابل في بيت الرسول ثم نخرج إلى الساحة الكبرى نؤدي صلاة العيد خلفه ولم ألاحظ نفسي وأنا أفكر في ملاقاة الرسول إنني أصبحت أسير في الطريق وحدي أسرعت الخطى كي لا تفوتني الجماعة فأخسر الثواب وأفقد الصحبة . .

وفي العيد تبدو المدينة مثل ملاك البهجة تتحول جبالها وسهولها وطرقاتها وبيوتها إلى مسبحة ضخمه ينتصفها قنديل مضيء يتجاوز نوره حدود المدينة مبشرًا وهاديًا ونذيرًا .

وقد تحول كل شيء حول هذه المسبحة إلى شكل جديد وهيئة مختلفة ليس من الضروري أن تكون شديد التقوى أو مبشرًا بالجنة كي تشعر ذلك . . حتى الحجارة والرمال ترتدي البهجة والفرحة وغبطة العيد تتحول في أيادي الصغار إلى لذة احتضان السعادة . . وفاجأني باب بيت الرسول مواسيًا وحدتي في الطريق مددت يدي المرتعشة تطرق الباب وازداد خفقان قلبي وكلما تجاوزت يدي فضاء المسافة بين عباءتي والباب كلما ارتعش جسدي أكثر وأكثر وتذكرت ان هذا الاحساس لم يختلف أبدًا في كل مره ألقي فيها الرسول حتى عندما كنت ألقاه وأنا لازلت رافضًا لدعوته وعلى كثرة جلساتي معه في دار النبوة لم يتغير أبدًا هذا الإحساس كأنني أراه في كل مرة لأول مرة نفس طزاجة اللحظة وأبديتها .

كانت يدي أكثر جسارة من قلبي فتقدمت وطرقت باب بيت الرسول وقبل أن تصطدم قبضتي بالباب انشطر الباب نصفين وانبعث منه نورًا شديدًا كاد يخطف بصري فركت عيني بشدة فإذا بنبي . . . نبي الشعر المتنبئ يخرج لي من بيت الرسول ماسكا بيدي بقسوة راميًا إلى مسامعي بيت قصيدته الشهيرة:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

لم تكن مفاجأتي بالمتنبئ في بيت الرسول بأكبر من خسارتي لفوات فرصة صلاة الجماعة مع الرسول . فعدت إلى بيتي أجر ذيول الخيبة والحسرة . وكان السؤال المحير يتدلى من سقف الدهشة إلى أرض المدينة كيف أجتمع الرسول مع المتنبئ كيف التقى رسول التقوى بنبوءة اللغة ؟ جريت إلى بيتي مرتميًا في سكن زوجتي زمليني دثريني فقد رأيت اليوم عجبا في بيت الرسول ثم فوجئت بها تصرخ في وجهي دعك من هذا أنت هنا والناس خرجت في ثورة عارمة ضد الفرنسيس يجب أن نطردهم من أرضنا ومن دمائنا

ومن لغتنا .

وجدتني أقول لنفسي أهي القيامة التي بشر بها الرسول أم أنه ارهاص لبعث التاريخ من مرقد الموت؟

حاولت أن أمسك بظل السؤال فأخذني الظل إلى السماء حيث الشمس مالت قليلًا نحو كهفها النهاري وقبل أن تحرق الشمس عيني اخفضت بصري وتوضأت بما تبقى في ذاكرتي من غبار التيمم متوجهًا لبيت الرسول أصلي الظهر خلفه متناسيًا ما حدث وفي الطريق اندفع جسدي بشدة نحو الأمام وتراجعت رأسي بعنف إلى الخلف فسقطت عمامتي وأحسست أن جسدي محمولا على الأكتاف ومن حوله رؤوس تعلوها طرابيش حمراء لم أرها من قبل حاولت أن أشد عباءتي المحشورة بين الأجساد المتراصة في كتل منتظمة بانتظام أسنان المشط الواحد كالبنيان المرصوص فإذا بعباءتي عباءة العيد تتمزق وتتشرذم وجسمي يسير مع الكتل البشرية محمولا على أعناقها وتحت هذه الرؤوس ذات الطرابيش الحمراء كانت الافواه كلها تملأ الفضاء صارخة مستغيثة بترنيمة غريبه الاستقلال التام أو الموت الزؤام .

حاولت أن أبحث عن وجه الرسول بين هذه الكتل البشرية وبالكاد أبصرت عمامته هناك بعيدًا أمام الحشد ثم وجدتني أسقط على الأرض وأرتطم على إسفلت أسود وأنا أرى طلقة اخترقت ترنيمة الاستقلال وضيعت انتظام البنيان المرصوص تمر من فوق رأسي تمامًا لتستقر أخيرًا في صدر رجل عريض الجبهة لافظا أنفاسه الأخيرة بين يدي ورغم ملابسه الغريبة وطربوشه الأحمر المخروطي الذي سقط بعيدًا مع ارتطامه العنيف ملفوفا بخيوط سوداء كأنها حداد الألوان على مصرعه رغم كل ذلك فقد عرفته أنه نفس الرجل الذي فدى الرسول عن سهم كافر استقر في كتفه الأيمن , وهو نفسه الذي جمع مئات الأحاديث عن الرسول ورواها مصدقا الرؤيا وما بين يديه . ها هو يموت أخيرًا بين يدي وقد التفَّ رسغه حول معصمي . وحينما حاولت إزاحته وجدت ذلك الصليب مرسومًا بوشم أزرق تحت جلد يده . وعندما أزحت يده كان صوته قد لفه السكون الأخير أسكتته رصاصة جندي إنجليزي بربري ظن خطأ أن جغرافيا الأرض يمكن أن تغيرها الجيوش . . لملمت ما بقي من عباءتي أُدثر بها جسدي وأخذني تراب العاصفة الثورية إلى السماء مرة أخرى لأرى الشمس وقد تجاوزت كبد السماء بقليل , فتوضأت بما بقي لي من ميراث الصبر وجريت إلى الرسول لأصلى العصر معه وإذا ببيدٍ غليظة تأخذ كتفي فينخلع عنها عباءتي لأصبح شبه عاريًا ويجرى بي طويلًا طويلًا . ظننت أنه يسرع كي نلحق الصلاة مع الرسول لم أر منه سوى ظهره العملاق ثم وقف بي أمام البحر ومن وراءه العالم يشهد ويوقع على صوته الجهوري الرائع تؤمم الشركة العالمية لقناة السو. . . .

وهكذا أمام البحر تركني عاريًا تمامًا أنظر حولي أتلمس طريقا أعود منه إلى بيتي وزوجتي التي ملّت انتظاري , ونظرت بامتداد الأفق لأرى الشمس وقد بدأت ترتمى في

أحضان البحر تلتمس النسيم من أمواجه ,ويأخذ منها دفئها الغروبي .حانت صلاة المغرب إذن . أين الرسول ؟ التفت ورائي لأرى رجلًا قادمًا نحوي ملابسه أكثر غرابة مما رأيت وحينما أصبح في مواجهتي تمامًا أشهر سكينا في وجهي وأمسك لساني وهو يتوعدني بقطعه حتى يخرس صوت الحكاية الغريبة . . وقبل أن ينفذ جريمته أبصرت أمامي وأنا أراه يتقزم ويتقزم حتى اختفى . وإذا بنور ساطع مبهر يأتيني وفي انبثاقه الإجابة حتما ,ويقترب النور مني أكثر وأكثر فإذا بالرسول يتقدم هذا النور يأخذ بيدي ساترًا جسمي بقميصه الأخضر لأخذ مكاني في الصف الأول وراءه نؤدي بخشوع مؤجل صلاة العيد .وقبل أن أؤدي التكبيرة الأولى أدركت أن الصلاة لم يحن ميعادها بعد فاستيقظت من غفلتي وجلست بين أصحابي أكبر معهم تكبيرات صلاة العيد.

obeikandl.com

obeikandl.com

كأنه أنا

ما بين الوريد وأشباهه,,والخط واستوائه,,تقف عناصر الرغبة على الحياد,,فلا التراب بلله ماء الانتظار,,ولا سوائل العشق قد ماعت,,وهواء ما بيننا أضحى جلمودا يحترق,,فجمر الاشتهاء حينئذ ليس مفاجئا,,لا هو جذوة تتوق للاشتعال,,ولا هو حفرية تغوص فى برودة النسيان,,وحيث أنت,,يبقى الحال ساترا,,بين المضى الى الأمام,,والعودة الى ما كنا عليه..عيناك يا حبيبتى,,لم تعد نظراتهما مباغتة,,ولم تعودا ممهدتين لحدث يأتى,,ومفرداتى فى حضرة وجودك كما هى فى غيابك,,فقدت التتابع البديع,,وطرفة التوقيت..

تنساب الدقائق بطيئة مملة كأنها علقت فى محفة من زمان رملى متكلس والساعات بالتالى ليست بأفضل حال.انها تمر متسلقة عقارب ساعة الهو الكبير المعلقة فوق رأس السكون.وكأنها عقارب حقيقية تسير بسرعة ملليمترين فى نصف الساعة التى بدورها دخلت فى غيبوبة عميقة ممدة أطرافها وكسور وأعشار ثوانيها على احد أسرة المرضى الخاوية.ممرات رخامية طويلة علق على حوافها لعاب مرضى الشكوى ,فالمشفى فى عطلة الاعياد وطنية كانت أو دينية أو حتى شخصية يشبه الى حد بعيد متحف مومياوات مقطوعة الرأس.أسر لى صديقى بوجوب كسر حلقة الملل هذه والا أمتدت(النوبتشية) الى صباح يوم العيد القادم متوغلة فى اسهال الاطفال ومغص العجائز ودورات الفتيات الشهرية المنتظمة حد السيف لدرجة أنها لم تأخذ اجازة مع مع كائنات العيد اللطيفة,اضافة لشجار عائلى أفضى لكسر قواطع أمامية لعم العروس الذى صمم على ان يكون اول أيام العيد السعيد هو ميعاد الزفاف فى حين لم تكن ابنة أخيه جاهزة بعد لاستقبال ضيف جديد يحل أهلا وسهلا على مائدة انوثتها العامرة.لا بأس يا صديقى فلنرحل من هنا مستغلين حالة(لا أحد يسأل عن أحد)فساد صغير.وربما كبير لن يعطل الفساد الأكبر المغلف لحيواتنا كلها.اتفقنا على الذهاب لتقديم واجب العزاء فى عم ممرضة جميلة تستعصى على سنوات الخبرة التى تراكمت منذ سنة الامتياز حتى التخصص ,لكن صاحبى نجح فيما فشل فيه الآخرون ,كنت ضعيفا تحت الحاحه وقد أراد منى رفقة لتشجيعه لاكمال اقتحام أنوثة صاحبة مهنة تعد فى عرف وظيفتنا ترفيها مجانيا تقدمه تقدمه الدولة لصغار الأطباء وأحيانا للكبار,لكنه فى تلك الحالة وبما أن الكبار يفضلون صغارهن فان جزءا لا بأس به من بقشيش المتعة يذهب لخزانة الدولة لاعانتها على كفالة المزيد من اناث التمريض .وهل هناك أنسب من ملائكة رحمة اناث

يعوضن حرمان ملائكة رحمة ذكور أضناهم شقاء دراسة صعبة أنستهم حقيقة كونهم فى الأصل ثديات عاطفية,أما انا فلم أكن أعرف صاحبة الحظ السعيد ,وليس لدي رغبة فى تجديد عبث سنوات انقضت وجعلتنى أركن مستأنسا وداعة ايقاع حياة بيتية طريفة. وفى النهاية التقت رغبتى بالخروج عن المألوف برغبته فى الدخول الى تجربة مثيرة فخرجنا سويا نشق طريقنا نحو مغامرة يكسوها التناقض من كل جانب.عزاء يقدم مبررا للتزويغ مبكرا من(نوبتشية الغم)وفتاتنا الجميلة او للدقة فتاته الجميله تنتظره فى نهاية مشوار التسكع المأتمى,وحتى لا أصبح مثل محجوب عبد الدايم فى فيلم القاهرة ٣٠ ويصدح فمى لاعنا بكلمة(طز)اشتطرت عليه أن أقدم واجب ألعزاء وأقلهما بسيارتى ثم أرحل لا شأن لى بهما,وبالطبع فان ذلك مقابل تغطيته لى فى عملنا الذى تركناه من خلال محسوبية خاله الذى يعمل مديرا للمشفى ,هى اذا مصالح تتصالح ودوائر قرف يكمل بعضها الأخر فى تراتبية ألقاب طبية جعلتنا من كثرتها ننسى أننا أطباء نتعامل مع بشر موجوعين لنصبح فى النهاية مجرد ماكينات مبرمجة تنصاع لأوامر رؤسائها الذين بدورهم ينفذون بكل تفان توصيات رؤسائهم فتكتمل دورة حياة التفاهة ونترقى جميعا فى ألقاب ورقية وامضاءات وتوقيعات لا علاقة لها بما درسناه,فمرضانا مفترضون والنجاح والخسارة متساويان فى الرهان ولأضرب مثلا,فان اخر عمل عظيم قام به زميلى كان تحقيقه فى واقعة ضرب ممرضة لزميلتها,أما أنا -ولأننى أقدم منه-فكانت مهمتى رفع تقريره الى رئيسنا الذى اثر أن يصلح ذات البين فى مكتبه الشخصى تعاونه رئيسة التمريض بكل اخلاص لتنال مكافئتها السخية أثناء وميض لافتة على باب السيد المدير تومض ب(ممنوع الأزعاج).

مدربون نحن حد الاعتياد على استقبال الالم ..وخبرتنا فى معرفتنا بتفاصيل معالم الجسد البشرى كادت أن تصنع منا ألات قتل رهيفة المشاعر.

وهناك فى بيت الممرضة الجميلة حدث ما لم أكن أتوقعه ابدا ,والذى كاد أن يقطع علاقتى تماما بصديقى الذى أقسمت له أننى لا أعرف فتاته مطلقا حتى عندما عرض علي صورتها أخبرته أننى لا أعرفها وأنه لم يحدث قط أى تعامل من أى نوع معها رغم عملنا جميعا فى مكان واحد!!وذلك ما ثبت عدم صحته على الأقل بالنسبة له عندما رحبت بى الفتاة بشكل ينم عن معرفة عميقة سابقة.وما زاد الطين بلة أن أفراد أسرتها راحوا يرحبون بى بحفاوة غريبة وكأننى أعرفهم منذ أمد و(عيال)الدار-دورية الازعاج المترجلة-يرتمون فى حضنى جماعات حتى أننى توهمت للحظة أنهم سيقولون لى :بابا بابا.ولا أعرف كيف اتسع ما بين ذراعى لكل هؤلاء .كل هذا وصديقى فاتح فاه مندهشا ومتسمرا كأن الطير حطت على رأسه وأنا أقف أمامه عاجزا عن تقديم تفسير يقنعنى أنا شخصيا قبل أن يؤثر فيه.نظرت اليه متمتما بشفاهى فى صوت خافت وأنا أنزل أحد العيال الذى تسلق كتفى:

والله العظيم ما اعرفهم ولا شفتهم قبل كده.

تحاملت على نفسى ومددت يدى أصافح بها رب البيت أبا الفتاة

-البقية فى حياتك يا أفندم.
-الله يرحمه كان نفسه يشوفك قبل ما يموت.
-هوا مين سعادتك؟
-أخويا انت نسيت انه كان بيعتبرك زى أبنه.
ثم نادى على ابنته فى صوت أجش كمن يتجشأ بعد شرب زجاجة حاجة ساقعة دفعة واحدة:
-الشاى يا فاتن وما تنسيش الدكتور يوسف بيحبه سكر خفيف مش كده يا دكتور (جوو)؟
كاد صديقى أن يلتهمنى بنظراته المغتاظة وأنا وجهى تحول لوجه طفل يتضرع للذى أمامه ألا يعاقبه على فعل لم يفعله فتحولت اليه بشكل جانبى حتى لا يرانى أحد ,وقلت له بطريقة الكلام المعتمد على تحريك الشفاه دون نطق:
-أقسم لك انى أول مرة أشوف الناس دى.
-وشاى معاليك اللى بتحبه سكر خفيف وكنية جوو اللى ما يعرفهاش غير اصحابك؟
كان والد الفتاة قد ذهب مما أعطانا الفرصة للحديث دون خوف من استراق السمع
-جوو أنا كاتبها على صفحتى فى الفيس بوك وأى حد ممكن يشوفها
-والترحاب والحفاوة اللى تؤكد معرفتك بهم
-صدق او ما تصدقش أنا فعلا ما أعرفش الناس دى مطلقا
-والمرحوم اللى كان بيعتبرك زى ابنه دا ايه ادمن صفحتك ؟
-فى منطقة عندى فى الذاكرة ممسوحة تماما مش عارف اقول ايه بس أنا مندهش زيك أو أكتر.
-انا استغربت اننا نكون شغالين فى مكان واحد وعمرك ما شفتها بس اللى محيرنى انك طلعت تعرفها وهيا تعرفك اكتر منى
-يا بنى أنا فعلا أول مرة أشوفهم وما عنديش أى تفسير للى بيحصل ده.
جاء الشاى تحمله على صينية فضية فاتن الجميلة ,ممرضة ممشوقة القوام ذات وجه صبوح كاشراق لوزة قطن تفتحت على شمس الصباح ,وبقية وصف الجسد الذى بالتأكيد قد وصل اليكم أعزائى القراء كاملا دون داع للخوض فيه بسرد مكرر الا أن الأمانة تقتضى منى أن أخبركم أن هذا الجسد ينتمى لذلك النوع من الاجساد الطليقة الذى يضفى سحرا على أى زى يكسوه .فكم كان فائض الجود بالجلباب وطرحته الريفية وموقن أنا أنه لا يقل كرما وأجزاء منه تختفى لتظهر أجزاء أخرى وهو يراوغ البلوزة والجوب الرسمى أثناء العمل والواقع أن فاتن فى الحقيقة أروع بكثير من فاتن فى صورة فوتوغرافية ثابته ومختصرة لهذا الجمال الفطرى الفائر سواء غطت معالمه بعض أقمشة عرف وتقاليد أو ترك لنفسه العنان وبصراحة مطلقة أستطيع أن اقول لكم كم كان صديقى موفقا ومحظوظا جدا فى انتقاءه الشقى والشبقى فى آن .

ومثلما أتعبتنا دراسة مرهقة لا تكاد تنتهى فان التمريض دراسة قصيرة الأمد تخرج الفتيات بعدها كل واحدة مشغولة بقرينها الطبيب تتعلم على يديه وربما يتعلم هو على يديها ما لم يتعلمه كلاهما من فنون القتال فى ساحة الجسد الرحيبة ,يعرفان مسبقا أنها علاقة لا تنتهى غالبا بالزواج لكنها تترك الشريكين على أعتاب خبرة معقولة تؤهلهما فيما بعد لتجربة زواج محتملة كل مع شريك اخر لم يعرفه من قبل.

كوبان للشاى لى ولصديقى ثم بعد أن وضعت الصينية على طاولة فى منتصف مسافة الفضول قالت لى:

-مش تعرفنا على صاحبك

كنت لحظتها أحتاج لمن يقرص وجنتى لأصحو من هذا الحلم السخيف أو وددت لو أننى صرخت فى وجهها قائلا يكفى هذا المزاح الثقيل .ثم صرفت عن خيالى تلك الافكار وتعمدت أن اجارى الحال :

-الدكتور سامح زميل وصديق.

ابتسم سامح نصف ابتسامة ثم الح على أن نرحل متحججا بعملنا الذى تركناه فى المشفى فقالت:

-طيب اشربوا الشاى

فقلت لها ملاطفا:

-معلش اصل احنا اتأخرنا وكمان علشان نسيبك تاخدى راحتك والبقية فى حياتك

-ابقى خلينا نشوفك يا دكتور جوو

نظرت اليها محتفظا ببعض كياستى مبتسما فى أدب فى حين كان سامح يشدنى شدا للرحيل حتى كادت قدماى تتعثران .رافقنا أخوها الى الخارج ولم تقف شفاهه عن توديعى بحميمية رائقة .فتح لى باب السيارة لكننى لم الاحظ أن الباب عن يمينى قد فتح .انطلقت بسرعة .نظرت لسامح بجوارى وسألته كيف دخل الى السيارة دون ان يفتح بابها فلم يجبنى,وصلنا الى المشفى فى وقت قياسى,دلفنا الى مكتبنا ,جلست وراءه وكان المقعد دافئا كأننى تركته لأقل من دقيقة .جاء موظف الاستقبال يحمل بعض الاوراق التى تحتاج لتوقيع ,وقعتها وأذنت له بالانصراف ,لكن ورقة وقعت على الأرض ,أخذتها لأعيدها اليه ولم يعر انتباهى أن توقيعى كان يحمل اسم سامح توقعت أن تكون خدعة من صديقى الذى لم أعد أراه مطلقا .أمرت الموظف أن يطلعنى على الأوراق التى وقعتها كلها ,فحصتها جيدا الورقة تلو الأخرى ,,وأعدت الفحص مرات أخرى .حتى سألني الموظف :

-هوا فيه حاجة يا دكتور سامح؟؟

فرددت:

-أبدا ابعت حد يعمل لي كوباية شاي سكر خفيف.

سيدة الأرض (نوستالجيا)

يأتي الخريف من كل عام ولا يخطئ توقيته إنه أكثر الفصول دقة وانتظامًا خريف هذا العام قد اصطفاني دون خلق الله ليدون على لساني أحزانه وأماله ومع ازدياد البرودة يتحول الليل إلى أمسية أرجوانية تحول صمودي وبياتي الشتوي إلى تاريخ مكبل بالأحداث وتنكسر دائرة الصمت الأرجوانية ويسقط القمر منتحرا من سماء الفصول فترتمى الخلائق في أشعته الفضية تطهر عنها ذنوبها وتكتب فيها أحلامها وأشعارها ويقف الخريف أمامي كمارد نحاسي من العصور الوسطى وتصطف حوله جميع المواسم وأنا أدلي بشهادتي وأنا أعترف بذنبي وأنا أعانق اللون الأزرق المرتمي في أحضان الفضاء فتتحول شهادتي من فصول موسميةٍ إلى فصول شعرية .

من أرض داستها أقدام الظلام فانحدرت الشمس تبكي الضوء الهارب لو سألوا كوب الماء الفارغ من أفرغك لو سألوا الدخان عن مصدره لو سألوا هاملت عن أدواره بعد الفضيحة كيف ستكون الإجابة to be or not to be من صنع هاملت شكسبير أم منطق الخيانة ربما الأدق أن كلا من هاملت وشكسبير وجهان للخيانة أحدهما يخون اللغة والآخر يخون الأرض الشعر عند شكسبير هو لغة علية القوم إذن فالشعر عنده مرادف للكذب ألم يقل بيكاسو أن الفن هو الكذبة التي تجعلنا ندرك الحقيقة.

في هذه اللحظة يتأفف الخريف ويومئ بعبارات تنم عن عدم رضاه فقررت أن أغير دفة الحديث .

اسألوا العلم من لونه من أفضى مزاج الحرية في ملعب الكره من زرع الأقحوان والعنبروالتوت من اكتشف العطرواخترع الصفروالقلم هل لبلادي شأن بُعيد الاستقلال

فأجاب الخريف :

الانفعال في الأدب يعتمد على توفر لحظة التوتر في وقت الكتابة أما؛ قصدية المؤلف في تغريب قارئه من أجل مزيد من الحبكة وتهميش دور التاريخ واللحظة الحتمية فهو في الواقع هروب من دفقة التواصل عبر البساطة من فضلك اكتب من درجة الصفر الانفعالي لتولد الذائقة من جديد بلا أوهام هززت رأسي مستجيبا للخريف وأكملت.

الركاب يندفعون في ركام بشرى نحو طائرة جاثمة فوق أرض الحياد دون جوازات سفر أو هوية لكن عندما سأل ضابط الأمن شخصية كبيرة عن جنسيته أجاب هل

للجنسية أهميه في أرض الحياد وعمومًا أنا من بلاد الحرير والسكر .

عاصمتي يا... حاضرة البلاغة في ذاكرة كل آدمي أين أنت ومن أنت من يعتلي الآن رأسك الياقوت ويعتصم بالمدفع ووثيقة سلام مهزوم ولماذا تنازلتي للعالم عن كبرياءك وتخليتي عن طيبتك أمام أبناءك .

الثورة تدب الآن في جسد الوطن القديم وتعيد إليه نبضا أنتزع منه منذ ميلاد الكتان على ضفاف النهر الطويل منذ اكتشاف الإنسان متلبسا يغني في حضرة اللوز ومواسم القمح ومهرجانات الحنطة والطحين. لو سألوا كوليزيوم روما عن سر عدم ديمقراطيته لنطق بلسان مصري مبين عن منقوصة بلادي اللعينة ولو سألوا اللوفر الباريسي عن حقيقة توهجه لأشار إلى قسم النيل ولو سألوا العالم كله عن مصدر تنوعه وثقافته لتحول ببصره شاخصًا ناحية الشمس وقال اسألوا الشمس اسألوا الأرض اسألوا الزرع والحب والنوى اسألوا الكاتب المصري القديم فلديه الإجابة وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف ابني قواعد المجد حولي وحدي وبناة الأغلال يكيدون للحب في سالف الدهر بدأ الخريف الآن مستمتعا بالحديث ربما لأنه يعرف السر يعرف أن الكاتب المصري يجلس مقرفصًا فوق أعتاب التاريخ وأن في فمه المعقود كل حكايات البشر والمواسم فأكملت كيف يمكن يا فاتنتي أن أستعمل حقي في العشق والذود عنك من فضول الشعر, والتعوذ بتمائم القطن ضد المعتوه من اللغة والساقط من الأبجدية أنا لست شاعرك الأول أنا عاشقك الأوحد .

أد إيه من عمري راح وعدى يا حبيبي هكذا تغنى ابن رشد شارح أرسطو وهو يغادر مكتبته تحرقها نيران الغل والحقد الأعمى وتسلقها نيران صديقة .

أظن أن الخريف الآن بدأ يشعر بالبرد فاقترب من صديقه الصيفي علّه يحظى ببعض نشوته وابتهاله الساذج والخريف بالمناسبة اسمه العربي أفضل منه بالإنجليزية فهو بالأخيرة falls أي السقوط أو الانتحار ,أما بالعربية فهو قرين الجنون وهى أنضج المراحل الفكرية للإنسان التي ربما مات دون أن يحصلها من أرض حبلى بالعفاريت من كل صوب فأفرغت ما في جوفها قيء وغثيان وجدب يا صغيرتي لا تحلمين بالأحرار ولا تقنعي بثورة الأفذاذ إن أنت إلا ضيف عزيز في كتب التاريخ إن أنت إلا بضعة سطور ذهبيه في ضمير الأرض إن أنت إلا مناسبات الفرح والحزن الطفولي نبكيكِ تحت وسائد أحلامنا الشتوية وندوسك بسنابك العزة والقومية.

يا طفلتي أخبريني من صنع ضفائرك تغازل ريح الشرق وهوى بجسدك إلى سابع أرض . من اِلتَهَم الطين والعشب حتى الثمالة وشوّه وجهك حتى التفاهة ؟ من طعن قلبك بخنجر الوداعة؟

أنا ولد من أولاد الحرير فتكلمي ,أنا ابن للسكر والرمل فلا تخافي فقط أخبريني من دثرك برداء الزعامة وانقلب يحصد بسيفه الشبق ؟ كل يد مبسوطة لغلالك وكل رأس مرفوعة بعطاءك أخبريني كيف يأتي الخريف جوعان كل عام لدفئك الكريم ويلجأ

لقدس أقداس تقواكِ هاربًا من وجع الكون فيجد قلبك الزمرد متاهة لألوان الطيف أخبريني يا عزيزتي كيف انقلبت دُرَّة الدار تبكي الليل والنهار والصبح والعسس ؟

اه يا لغتي الذبيحة على أرائك العوام . . اه يا فرادى الشعراء الذين لاكوا أحرف اليقين . . من أول إنسان فتق لسانه بالضاد المبين . . إلى آخر فتاة تهمس في آذن فتاها احببتك من الوريد إلى الوريد . .

توقفت أنا الآن عن الحديث في حين أومأ لي الخريف قادما ومن وراءه شتاء عنيف مضى وقال مكملًا :

لم يعرف العرب مظاهرات الرغيف . . ولم يتحدثوا لغة دهماء الطريق . . ربما لأن الوقت لديهم -أعني في الماضي- كان يرادف اللامتناهي البسيط . . كشاعر ينأى بقصيدته عن مكيدة تأويل الحداثي . . في احتضاره الطويل الذي ربما تجاوزته قيامة المدى .

ثم أكملت أنا :

وأخبريهم أيضًا يا عزيزة كل ضائع إنك أم الأطفال وأم الوديان وأم لكل تائب عائد من أرض الأوجاع .أخبريهم إنك لا تبتغين تسوّل الأحلام وأن في يدكِ الكريمة يتحوّل التراب إلى ذهب وعنبر وأخبريهم أن الشمس تسافر في كل يوم وتعود لتبدأ من فوق رأسك. ألمسك يا حبيبتي أقف بين العلم والنشيد لأتذكر دروسي الأسطورية امنحيني عذرا أو أنا أرتد عن حلم الحصاد العائلي فبين النوم والنهوض حظروا التجوال وبين الوريد والقلب يسكن عنوانك المنزلي حبيبتي أخبريني أنك صنعتي الجغرافيا ليميزوكِ عن الجدب لا ليقتلوكِ فوق العشب. أين أخبأ بعدك أسراري ومراهقتي وأين أخبأ بعدك ذاكرتي من بلل البحر وهوس الموج ؟ أخبريهم أن غضبك نارًا تحرق رصاصهم وأن ثورتك مجد يعيد للعالم الأبجدية أخبريهم أن الأرض دونك تستحيل ثم . . . . ثم ... ثم ماذا أيها الكاتب العفريت ماذا بعد الخريف أما من بطل حقيقي يبعث النضال في سطورك العجفاء أم إن كلماتك بللتها مياه الوهم الراكدة في جسدك لتفقد موسم التزاوج الحريري بينك وبين قارؤك لا تلبس خريفك ثوب فلسفة الادعاء وقل الحقيقة الحقيقة فقط .

ولأنى أريد الحقيقة فقد بدأ الخريف في حالته المثالية يبكي لحالي ويملأ ببكائه كأس الماء الفارغ وتبكي من وراءه الفصول وتملأ الدنيا حزنًا وتزيدها تقيا أما أنا فقبل لحظات قليلة من موت الخريف غارقا في بكاءه ألبسته رداء الملاك الأخضر ملاك الأرض الحبلى بدعوات الخلاص الأخير وأغمضت عيناه الزرقاوين ورحت أرقص رقصة الموت الغجرية فالبطل انتهى والرواية لم تبدأ بعد .

ملحوظه بعد حصاد الحلم الحريري في أرض الأموات وجد بعض الأثريون بالصدفة البحتة تابوتًا نحاسيًا مغطى بحمرة حساسة للخجل ولما فتحوه وجدوا فيه لوحًا طينيًا منقوش عليه كتابة لم يستدل على معنى لها حتى يومنا هذا.

obeikandl.com

الشاطر حسن

لم أكن أدرى أن الدهشة المؤقتة .يمكن أن تتحول فى لحظة إلى حظ سعيد ,يفرد لي جناحا ألذ لأمتطي صهوته مسافرًا فى مساحة من المستحيل ,ورغبة في الانصهار مع نفسي ,ولكن هكذا شاءت اللحظة.ومثلما مكننى الحظ المذكور من تحقيق وهم الانفراد مع الذات ولو لدقيقة .فعلتها ابنتى وهى تداعب برائتى وتهزم جرئتي (بابا اعمللى حصان).

وحسنًا فعلت ,لم أكن أدور بها في أركان الشقة الصغيرة التى جمعتنا في محيط هادئ وجو مرح ؛ولكننى فى الواقع درت بها حول الكون,لقد تسلقت ابنتى الصغيرة ذاكرتى وسكبت عليها دلوًا من الماء البارد ؛فانتعشت وانقشع عنها تراب الصمت,آه يا ابنتى لو تعلمى أن أباك محض صفقة رومانسية تواطأت مع الكبرياء ما كنتى فعلتى ,ولكن هذا الكبرياء ينهار بساطا ربيعيا تحت انسيابية أقدامك ورشاقة ابتساماتك.

أيوه ها عملك حصان وألف بيكى الدنيا,ندور على الشاطر حسن.وقبل أن يشاطر ابنتى الفضول فى معرفة المزيد ,وقبل أن يخامرنى إحساس بنزاهة اللعب مع الأطفال,تذكرت أننى أيضا كنت أبحث عن الشاطر حسن؛ لكن دون أن أشغل بالى وقتها لماذا تحديدًا حسن وليس أي اسم آخر ؟كنت وقتها طفلا ذو عشرة أعوام مخلصة في البراءة ,وكنت وقتها يتيم الأب يتيم الظهر يتيم الشجاعة,,تنقصنى حكمة المسافر وقصائد الشاعر الذى حرّر ذاكرة الإنسان من كلمة انتماء.

عرفت لاحقًا يا ابنتى أن الفارق بين الشطارة والبلادة مجرد حُسن توقيت.آه لو تعلمي,لن تعلمي إلا عندما أقصص عليك هذه الحكاية ,فهي إرثي الوحيد من تجربة اللا دافع واللا مبالاة واللا لون,,بعد عشرين سنة من الحادثة الأولى كنت أمشي فى فراغ ضخم خلفه قِلة حيلتي وعجزى عن اللهو مع الأمل ,,كنت أمشي بجوار ظللى الذى كاد يتوسل للقمر ألا يهرب من ليلته ,لكن القمر هرب,زحف متسللا فى قناع رجل مليح كوردة القطن طاهر مثل قلب الثلج ومثل قلبك انتِ يا ابنتي,,وكأنه سرق حلمي,وكأنه ابتاع فطرتي,لم أتردد ,رهنت ابتسامتى لدى الشمس وقتلت القلق وذهبت وراءه ,وراء البحر,ووراء الألفة,كنت أنفعل ولا أملك رد الفعل ,حتى لاحظنى من بين رهط من الناس وجذبنى إليه ,إلى قلبه,إلى عنوان البحر..

(هنا فى قلبي سوف تولد من جديد ,سوف تعمدك الرؤيا وتعيذك الرقيا,,انهض وارفع رأسك يا بن أم).

لم ألاحظ أبدًا أنني أحلم ..لم ألاحظ أبدًا أنني أتوهم ,فاللحظة شاءت أن أولد من جديد ,أن تخرج الثورة من رحم الطين .وهكذا جذبني إليه إلى قلبه إلى عنوانه ثم إلى ضريحه الرخامي المسكون بكل دعوات أهل الأرض بحسن الأخرة وجزيل الثواب ,وعند ضريحه أخبرني بالسر بالمعجزة :

-:(أنت الشاطر حسن)

:-(أنا,,)

:-(نعم.)

:-(أنا)

:-(افهم!!)

ولم أفهم ,لم أفهم أى شئ ,لم أفهم إلا عندما لمحت ذلك الكتاب على مكتبى ,,كل تلك السنوات وهو هناك جاثم فوق صدر الزمان متحديًا عصور النحس وأزمات الفراق (ستة شخصيات تبحث عن مؤلف)غير أن براندياللو لم يكن يعرف الشاطر حسن ,ولِم ستة وليس سبعة وليس ثلاثة؟ولِم عائلة وليس غرباء؟ولِم قصدية وليس تلقائية؟ولِم شاطر واحد والملعب يتسع؟؟

قلت فى نفسي ألست الشاطر حسن؟ ألم يقل لي هو نفسه ذلك,فلِم لا ..؟؟ذهبت إليه متكأ بالرواية وكلمته:

-:(سيدي رسمت خارطة العالم واكتشفت مواسم الزعفران ,فماذا أفعل أنا ؟)

-:(معك قلبي اتبعه..)

-:(سيدي كل الضمائر سقطت عنها التوبة)

:-(اذهب وقاتل الريح.اذهب وحطم الوثن ,أولست الشاطر حسن؟)

-:(سيدي كم من الزمان سوف ترقد هنا؟ألن تأتِ لتعبث الروح فى قلب الوطن؟)

-:(لم تتعلموا شيئا أنت وحدك الأمل)

-:(اه يا سيدي اه يا رجل ,أى ميراث تثقل به وحدتي؟أى تاريخ تناضل من أجله ضد الدود؟)

-:(الدود هناك خارج ضريحي فالوعي يرقد هنا بجواري)

-:(سيدي)

-:(اذهب.)

ولم يعرف الشاطر حسن مني إلا بضع ذكريات مقهورة مخمورة ,كنت كل ليلة أذهب إلى حيث يرقد ,أحج الي ضميره الذى لايزال بعد على قيد الحياة,وأعود بالألم والوحشة ,أتوضأ بين كفيه ويتلعثم لسانى عندما ألمح طيفه ,وفي أخر مرة ذهبت اليه سألته من منا الشاطر حسن أنا أم أنت؟

فلم يجب يا ابنتي ليلتها فقط لم يجب .

فاستيقظت من غفلتي وعرفت أن الدنيا فقدت عاصمتها وأن الخارطة التى رسمها هو فقدت الحروف والبحار والبطل.

وهكذا يا ابنتي مرت السنون والشخوص لا معنى لها فى حياتي سوى اللاشئ اللاشئ بالمرة.

وانتهت اللحظة التى ظننت أنها أبدية,واستاءت ابنتي من حديثي الذى لا تفهمه,وبدأت تناور صبري بمؤامرة لا تنقصها البراءة برغم ما كان .

:(أنا خلاص زهقت يا بابا)

ثم انطلقت وراء ظهرى .

:(أنت مش عارف تعمل حصان كويس)

ثم رحت أجفف دمعة سقطت من عيني سهوًا وأنا أعانق السحاب ..يملؤنى الخجل,لم يكن أمامى خيار ,أغرقت وجهي فى بعض الماء البارد علّني أنسى.

oberkandl.com

obeikandl.com

التشريفة

سياط حرارة الظهيرة ولهيب شمسها تزيد من لزوجه العرق المنهمر عبر مسام الجلد ورطوبة الأجواء العالية لا تكف عن إزعاج رحلة السعي التي لا تنتهي ولا تهدأ لقاطني وعابري شوارع وسط البلد وعوادم السيارات تنفث دخانها في كل الاتجاهات وتبصق بأصوات "الآلات تنبيهها" على لحظات الانتظار التي تمر بطيئة و بمجرد أن يومض اللون الأخضر في الإشارات المثبتة على أرصفة مداخل الميادين والمفارق يندفع شلال السيارات والمركبات من مضيق الانتظار إلى مشاركة بني البشر رحلة سعيهم الطويلة والدؤوبة . . بحثًا عن الرزق وعن أشياء أخرى عديدة تتوه في زحمة الحياة في وسط المدينة وتمنع ساكنيها من متعة التأمل وخلاصة السكينة . . طوى الجريدة ووضعها تحت إبطه آخرج منديله ونشف عرق وجهه ثم حاول أن يمسح من فوق أصابعه آثار الحبر المطبوع على الجريدة . تذكر أنه أخطأ في تركيب إحدى جمل الكلمات المتقاطعة . نزع الجريدة من تحت إبطه واستلّ قلمه من جيب قميصه . بدأت الشوارع تنفض عن أسفلتها زحمة السير وتسلل شيء من الانضباط ليضبط إيقاع السير اللاهث للبشر والمركبات على السواء . . وبدأت الإشارات تومض باللون الأصفر المتخاذل .

نظر عن يمينه وعن شماله ثم عبر الطريق بعد أن لمح مقهى قريب من الميدان فدلف إليه وجلس على أحدي كراسية وانشغل بإعادة ترتيب كلمات جريدته المتقاطعة والتي بسببها قام بالتزويغ مبكرًا من عملة الحكومي . .

فهلوة . . . مبعثرة
احتيال . . . معكوسة
مشروب شعبي مسكر
البوظة . . إنها البوظة
الآن اكتملت

وضع الجريدة على الطاولة أمامه وأخذ يرشف من زجاجة الحاجة الساقعة بعد أن أشعل سيجارة بلهفة وشوق . وضع ساقا فوق الأخرى ثم أنتشى في جلسته يحملق في الوجوه والكراسي والدخان . أنتشر جنود الأمن المركزي يطوقون الميدان وبعض الشوارع المتفرعة منة كان الجنود ببزاتهم السوداء التي يرتدونها ووقوفهم متلاصقين متشابكي الأيادي يبدون وكأنهم مجموعة من التماثيل المنحوتة من أسفلت الطرقات الفاحم السواد.

عاد لجريدته يتصفحها من جديد .

في صفحة الوفيات لم يعثر على نعي يدلّه على أحد يعرفه .

ثم طوى صفحة الحوادث سريعًا بعد أن ازداد قرفا. عندما لمحت عيناه عناوين بعض أخبار الحوادث , وفي صفحة الفن أثارته صورة لراقصة كانت تتحدى زميلاتها وتزعم أنها الأفضل لأنها الوحيدة التي تستطيع تحريك نهديها أثناء تأديتها لوصلاتها الراقصة إضافة إلى قدرتها غير المحدودة في رفع أردافها لأعلى ثم إنزالهما مرة أخرى. أما في صفحة الأخبار فلم يجد أي جديد غير نبأ تحذير السلطات المحلية من زحمة السير لهذا اليوم وإغلاقها لبعض الشوارع والميادين في وسط البلد ترامت إلى المسامع من بعيد أصوات آلآت تنبيه الموتوسيكلات وبعض سيارات النجدة.

احتشد زبائن المقهى أمام بابها يراقبون . لم يلفت انتباهه تلك الحركة التي اشتعلت فجأة من حوله ظل يرشف من مشروبه البارد ويسحب من عقب سيجارته ويعيش في عالمة الخاص .

الموكب يتقدم ببطء وسط غابة من الحراس الشخصيين السائرين والراكبين . . ووسط جوقة كبيرة من السيارات المعدة سلفا لإصدار أصوات تنبيه مزعجة تشعر من يسمعها أن الدنيا على شفير الحرب فرغ من مشروبه وأطفأ سيجارته تحت كعب حذائه ودفع الحساب تجشأ بصوت عالٍ ثم طوى جريدته تحت إبطه واستعد لمغادرة المقهى .

كانت السيارة السوداء الفخمة الفارهة تتوسط الموكب في حين رافقتها عربات الشرطة من كلا الجانبين مستمرة في إصدار تنبيهها المزعج والمرعب .

عبر الطريق . لم يكترث كثيرًا لتلك الجلبة التي أحدثها عبوره من نفس طريق مرور الموكب .

آخرج منديله من جيب سترته ورفعه لأعلى لينشف عرق جبينه ظن الناس أنه أحد المتجاسرين الذين أرادوا أن يحيوا التشريفة من قريب . . وقف على الرصيف ليرتاح قليلًا كانت أصوات الجنود تصرخ فيه وتحذره وتأمره بالابتعاد بعيدًا عن خط سير الموكب . . لم يشغل باله إلا بمنديله وجريدته اللذين سقطا سهوًا على الأرض

انحنى ليلتقطهما . وقبل وصوله إليهما كانت السيارة السوداء الفارهة قد توقفت أمامه مباشرةً, وعندما لمح وجه السيد الكبير صاحب التشريفة يطل عليه من فتحة شباك السيارة ابتسم له ورفع له يديه يحييه ببساطة وعفوية . ازداد صراخ الحراس من حوله أن يبتعد لكنه ظل يرفع يديه ثم أكمل انحناءه ليلتقط جريدته ومنديله ,وعندما أمسكت يداه الجريدة لم يقوَ على النهوض مرةً أخرى . تمدد جسده النحيل على الأرض في حين واصلت السيارة السوداء مسيرتها حسب خطة سيرها المعدة سَلفًا وداستْ دواليبها الأنيقة على طرف الجريدة وسقطت من جيب جاكته العلوي سماعة أذنه الطبية التي تساعده على السمع والتي كان قد نزعها من أذنه عندما جلس على المقهى حتى لا يعكر صفاءه ضجيج المكان ليتفرغ لحل كلماته المتقاطعة في هدوء لكن الأصم نسي أن يرتدي

سماعته مرةً أخرى عندما فرغ من هوايته الأثيرة .

وبعد انتهاء مرور الموكب تقدم بعض الناس من الرصيف وأخذوا الجريدة من يده ثم غطوا بصفحاتها جسده النحيل الذي امتلأ بعشرات الثقوب الدامية لينتهي بذلك مشهد إعدامه الذي لم يسمعه .

في اليوم التالي وفي نفس المقهى كان شاب يجلس ممسكًا قلمه ممدًا جريدته على الطاولة منهمكًا في حل الكلمات المتقاطعة .

قهر. . . . مبعثرة

خنوع. . . متشابهة

نبات مخدر

صرخ بأعلى صوته الحشيش !!

وقبل أن تكتمل نشوته اقترب منة صبي المقهى معاتبًا إياه في لهجة عنيفة هذا مقهى محترم ولا نقدم فيه الحشيش .

ثم التفت يمينًا ويسارًا ونظر إليه سائلًا : سعادتك بتسمع ؟

فرد الشاب المذهول بالإيجاب .حينئذ صرخ في وجهه صبي المقهى محذرًا أوعى التشريفة.

obeikandl.com

obeikandl.com

يقظة ضمير

شبرين أو ثلاثة على الأكثر. . وعِدة دقائق صامتة محترقة الثواني تفصل روحه عن الخروج مباشرة من مخدع الذات. .

المعجزة الحقيقية أن ينفصل عن العالم في هذه اللحظة بالتحديد حيث دقت طبول الحرب تعلن بداية المعركة. . ويا لها من متعة نادرًا ما يشعر بها . .

الساعة الآن السادسة صباحًا بداية العمليات العسكرية على الجبهة وجسد الجنرال النحيف مُسجى على طاولة العمليات الجراحية في المشفى الميداني الذي أُعدَّ خصيصًا لهذا الغرض . .

الهدف . استئصال شظية معدنية استقرت في عظام جمجمته قريبًا من المخ . . ولأن خطة الحرب لم تدون من أجل السرية . . فقد كان لإنقاذ دماغ الجنرال الذي يحوي الخطة مهمة في غاية الخطورة. .

وفي الساعة الواحدة ظهرًا كان على الأطباء أن يبذلوا نفس الجهد لإفاقة الجنرال بعد إتمام المهمة الجراحية. . الجنود يدافعون بأقصى جهدهم على الجبهة في انتظار أوامر الجنرال من أجل خطة الهجوم . . الذي لم يكن مطلوبًا منه أكثر من اعطاء الأوامر لأن ظروفه الصحية أصبحت حائلًا بينه وبين الاشتراك في المعركة . . وتطلعت العيون كلها للسماء . . واحتبست الأنفاس داخل الصدور . . والكل يترقب أعين الجنرال . . في انتظار عودته إلى الوعي ومعه خطة الحرب بالتأكيد . . لحظات مرت كأنها قرون وصمت عسكري منضبط لا يقطعه إلا دوي المدافع بين الحين و الآخر . . إلى أن قطعه صوت الجنرال متسائلًا أين أنا ؟ ؟

فأجابه رئيس عملياته أنت هنا يا جنرال بيننا . إن محاولة انقاذك تعتبر نجاحًا جراحيًا مذهلًا بكل المقاييس يحسب لنا ولن يكتمل إلا بنجاحنا العسكري المتوقف على خطتك فقال الجنرال أية خطه!! أنني لا أذكر شيئًا . .

مستحيل يا جنرال ماذا حدث هل فشلت الجراحة أفقدت ذاكرتك؟

وهنا قال أحد كبار المسئولين العسكريين أن انسحابنا من المعركة بات مستحيلًا لأننا تورطنا بالفعل يجب فعل شيء أي شيء فليقل خطته هذا الجنرال المعتوه وليذهب بعدها إلى الجحيم . . فقال الجنرال لا داعي للقلق أيها السادة سوف أتذكر كل شيء فقط أمدوني بمعلومات عن هدفنا من الحملة العسكرية وسوف أحلل هذه المعلومات وأترجمها سريعًا إلى خطة هجوم محكمة . . ثقوا فيَّ فلن أخذلكم. .

حسنًا يا جنرال إننا هنا من أجل إيماننا بأننا أرقى شعوب الأرض , وأننا على مدى خمسة قرون من الزمان حققنا أعلى معدل للتحضر البشري , وأن شعوبًا أخرى مغلوبة على أمرها اتجاه حكامها أصبحت في أمس الحاجة لدورنا في تحريرها ونشر تجربتنا المميزة لها فتتخطى مرحلة البدائية الإنسانية إلى آفاق الإبداع الحر الذي يميزنا عن غيرنا .

وإذا حدث ذلك واستنسخنا تجربتنا ماذا بقي لدينا ليميزنا؟

سنظل نحن الرواد يا جنرال . . وسوف نحصد المزيد من الغنائم .

إذن فهي ليست مصلحة الإنسانية إنها منفعتكم أنتم .

نحن !! ألست منا يا جنرال ؟ ؟

بلى لكنني أحاول التفكير بحيادية ذلك سوف يساعدني كثيرًا على تذكر الخطة .

إننا أسياد هذا العالم ومن حقنا أن ... من حقنا أن نحكم العالم أوليس كذلك يا سادة .

إنه منطق القوه يا جنرال .

بل منطق النفعية .

لا فرق يا جنرال كلاهما يؤدي لنفس النتيجة .

بل كلاهما يؤدي لحاجز حجري يحجب الرؤية الصحيحة والتفسير الموضوعي للآخر .

نحن الآخر يا جنرال .

بل نحن جزء . . من شهد لكم بالتفوق أنتم فقط وليس الآخر.

احذر الآخر أيضًا شهد قبلنا .

إنهم مسوخ الآخر وليس الآخر القادر على التفكير.

جنرال إنه ليس وقت فلسفة جنودنا على الجبهة في معركة شرسة ونحتاج لخطتك .

وماذا لو فشلت خطتي ؟

لن تفشل فأنت أعلى مستويات التعليم والتدريب العسكري المحترف الذي نتفآخر ونتباهى به على الدنيا .

هذه بداية المأساة ألا ترون غير أنفسكم .

لأنه لا يوجد غيرنا هذه حقيقه .

عفوًا كونها واقع لا يعني أنها حقيقه مقبولة .

لكنها ضرورية يا جنرال .

الضروريات لا تطيح بالبديهيات التنوع أكثر ضرورة من تفوقنا وسيادتنا لأنه باختصار أيها المغفلون سوف يضمن لنا بقاءنا .

دون سيطرة ذلك أمر مرفوض يا جنرال .

وأنتم بالسيطرة تستدعون حتميتكم التاريخية ببداية الفناء

إذن لا داعي لإنكار أننا نحتاج ثروات هذه الشعوب لاستثمارها في مشاريعنا النهضوية

obeikandl.com

وهم أيضًا يحتاجوها لسد رمقهم .
نحن أولى لتفوقنا .
بل نحن في غنى عنها لنفس السبب وهذا أدعى للتعفف فيما لا نملكه . . التحضر يعادل الأخلاق .
التحضر يعادل القوه يا جنرال .
وهل تساعدون الشعوب المقهورة بناء على طلبهم أم تطوعًا منكم؟
هم في النهاية سوف يطلبون المساعدة نحن فقط نبكر بها .
إذن أنتم فاعل ومفعول به في نفس الوقت حتى أبسط الحقوق تفعلونها نيابة عن الآخرين فعلا منتهى التحضر.
جنرال ليس هناك وقت لهذا الحوار الجدلي .
لكن هناك دومًا وقت للقتل أليس كذلك؟
نظامنا ضمن لأمثالك حرية التفكير حتى ولو كان ضد مبادئنا
لكن نفس النظام يأبى أن يوجد آخر مختلف معه في مكان آخر منتهى الحرية .
جنرال حاول أن تتذكر الخطة أرجوك واعفيني من هذه المناقشة أنا رجل عسكري فقط .
كونك عسكري لا يعفيك من التفكير.
إذن لا ترهقني كثيرًا وتذكر الخطة .
ماذا لو أن هتلر قد نجح في خطته ؟
هتلر كان فاشيًا محترفًا .
وهل كان رأى هتلر في نفسه كذلك؟
بل كان يرى نفسه على حق .
ماذا لو كنتم مثل العم هتلر؟
نحن سادة الحرية .
وكذلك كان هتلر يسمي نفسه .
إذن من نحن؟
دع التاريخ وحده يحكم يا عزيزي .
جنرال أخشى أنه ما كان علينا إنقاذك .
لكنكم فعلتم على أية حال .
هل تذكرت شيئًا الآن .
اليسير فقط لايزال أمامي الكثير حتى تصبح الخطة جاهزة
إذن أسرع وإلا . . .
وإلا مُنينا بهزيمة هي في الواقع نجاح لدفاع الشعوب المقهورة عن نفسها لكن السؤال الذي يحيرني وأحتاج إجابة له لا تذكر خطتي هو لما كانت تلك الشعوب مقهورة لماذا إذن

خرجت لقتالكم وصد هجومكم؟ ؟
إنها مجبرة على ذلك .
تعني يدافعون بلا عقيدة قتالية.
ليس تمامًا هناك شيء ما غامض في سلوكهم .
إذن لماذا تحتاجون لخطه ما أسهل هزيمه الجندي الذي لا يمتلك عقيدة قتالية كافية .
تعودنا النظام في كل شيء اعتدنا التخطيط لكل أمر مهما بدا تافها .
إذن هؤلاء الجنود المساكين يقعون بين جيشين أحدهما أنتم والآخر حكامهم هم انتحاريون إذن .
لا ليس كذلك لكنها عقدة الحب الأبوي المتسلط لدى هذه الشعوب إنهم يعشقون جلاديهم وأحيانًا يعبدونهم .
معنى ذلك أنهم لن يرحبوا بكم لأنكم سوف تمنحونهم حريتهم .
من قال ذلك إننا سوف نعطيهم حقوقهم المدنية فقط أما الحكم فلنا يا جنرال أنسيت؟
إذن أنتم جلادين أيضًا يرتدون قفازات حريريه حتى لا تخدش الضحية قبل ذبحها.
جنرال حاذر من كلامك .
أنا حذريا عزيزي مثلما أنت صريح معي لهذه الدرجة .
نعم نحن جلادين الفرق بيننا وبين جلاديهم هو أننا نطورهم كي نسرقهم. أما جلاديهم فهم يسرقونهم دون تطويرهم كما قلت لك عقدة الحب الأبوي الذي يوكل له الشعب بتفويض شبه إلهي للقيام بكل أعماله نيابة عنه .
أنتم لن تسعوا لإزاحة هذه الصفة عن تلك الشعوب أنتم فقط سوف تستثمرونها من أجل مصلحتكم .
أعتقد ذلك يا جنرال والآن هل تذكرت الخطة ؟
لا ليس بعد
جنرال أنت تراوغ
وأنتم أفاكون
جنرال ماذا حدث لك غسيل مخ بدلًا من علاجك ؟
لا بل يقظة ضمير.
يقظة ماذا . . الآن . . أنت تستهزئ بنا يا جنرال .
نعم أنا استهزئ بكم بجيش كامل وأنتم تستهزؤون من أمم كبيرة.
أبلغ رأيك لحكامنا هم المسؤولون مانحن إلا أدوات تنفيذ فقط
أيها المساكين إذا أنتم أيضًا تحتاجون من ينقذكم من جلاديكم .
جنرال كفى بدأت ألمح شيئًا من خيانة في حديثك .

لا يا عزيزي كما قلت لك إنها يقظة ضمير وحسب .
الآن يا جنرال حدد أنت معنا أم . . .
أنا مع التحضر
إذا أنت معنا
وهل أنتم متحضرون بما يكفي .؟
بل نحن متحضرون بأكثر مما ينبغي .
ولماذا تحرمون الآخرين من استهلاكهم لأزمنتهم تدريجيًا ليتطوروا بأنفسهم لماذا تعطون لأنفسكم حقا إلهيًا بالتطوير .
هذا هو نظامنا تذكر الخطة الآن وعندما تعود أبلغ رأيك للمسؤولين وسوف أساعدك في ذلك أقسم بشرفي يا جنرال .
يا له من شرف مخمور
عفوًا سيدي .
لا لا شيء
هل تذكرت شيئًا الآن ؟
نعم تذكرت كل شيء .
رائع إذن سوف نوصلك فورًا بالقيادة على الجبهة عبر الهاتف .
لا داعي يا عزيزي لأن ما تذكرته لن يفدكم إلا في الانسحاب
الانسحاب كان آخر كلمات الجنرال العجوز فبعد الانتصار في الحرب نفذ حكم الإعدام على الجنرال لكن ليس بتهمة الخيانة العظمى .
ما حدث يا كرام أن جثة الجنرال قدمت لوسائل الإعلام على إنها لمقاتل من الاعداء بعد تشويه معالمها ونعي الجنرال بأنه مات بشرف في المعركة وهو يحاول تحرير الشعوب المقهورة ولازالت جثته مجهولة حتى الآن .
وكان على الشعب المقهور أن يقاتل عشرات السنين حتى يستعيد جزءً من يقظة الضمير.

obeikandl.com

obeikandl.com

تشوهات في منفي

إن كمية البكاء ثابتة في هذا العالم فإذا بكى أحدهم على الآخر أن يضحك .
صمويل بيكيت

طوى كتبه وتأبط حقيبته أعاد ضبط نظارته الطبية على وجهه ثم أستل جواز سفره وقدمه لذلك الكائن الحفري المسمى بالكفيل وهو آخر ما بقي من وصمات عهود الرق والإتجار بالبشر وفي حركة وئيده بها شيء من الافتخار سلمه جواز سفرة وكأنه يسلمه نيشانًا أو وسامًا وطنيًا غاليًا وكان ذلك آخر عهده ببلاده فلم يرَ وثيقة سفره أبدًا طيلة إقامته في منفاه الاختياري .

تقدمت منه رتيبة ممرضة مخضرمة أصبحت من طيلة فترة إقامتها تكتسي نفس اللون وذات القدر من اللامبالاة الذي يميز أهالي البلد الأصليين حتى أنها كانت تتحدث معه بلهجة لم يفهمها أبدًا ؛ولكنه ظل يومئ لها برأسه معبرًا عن تجاوبه مع طلاسمها المحيرة وخائفا من أن تتحول قسمات وجهها الصعب إلى زمجرة غضب تصب لعناتها عليه في أول أيامه في مشفاه الجديد سلمته رتيبة إلى ممرضة أخرى في حجرة تنتهي بممر طويل مُغطى بالقيشاني الذي تفوح منه رائحة مواد معقمة كتلك التي يستخدمها الجراحين في غرف العمليات ومن يد رتيبة إلى يد أخرى أكثر أنوثة وكأنه حقيبة سفر يتم تناوبها من يد لأخرى كانت فوزية أكثر رقة وحنانا وهى تبتسم في وجهه وترحب به .

أهلًا يا دكتور شرفت أول مرة تسيب مصر مش كدة.

تلعثم قليلًا قبل أن يجيب ثم نطق أخيرًا .

إيه أ أ أيوه الحقيقة أنا فعلا أول مرة أسافر برة مصر.

ثم نظرت إليه نظرة فاحصة من الأسفل إلى الأعلى ثم أردفت:

أنت متجوز ؟

لا .

طيب خد بالك المستشفى هنا مليانة ناس وحشة بيحبوا يجيبوا في سيرة الناس .

ربنا يستر.

أخذت فوزية بياناته وسجلتها في دفتر قديم لديها ثم سلمت الدفتر لموظف يجلس على الحاسوب الإليكتروني ليقوم بتدوين البيانات في مذكرة اليكترونية أعدت خصيصا لذلك ودعته فوزية بابتسامة حانية وبنظرة تعده بلقاء قريب على شاطئ التئام الرغبات

ودعها برقة ثم التفت ليكمل بقية إجراءاته مع الموظف الذي ينتمي لنفس البلد كان الموظف يتظاهر بإدخال البيانات في الحاسوب بينما راح من تحت نظارته يختلس النظر إليه وتبدو علامات الإعجاب تزيد من تدوير قسمات وجهه ثم توقفت أصابعه عن النقر على لوحة المفاتيح الخاصة بالحاسوب وتوجه إليه قائلًا له بكل صراحة وفي لهجة محلية تخلو من طلاسم البداوة :

أراك وسيمًا يا دكتور أشقر ولذيذ حركت فؤادي تراك .

ارتبك الدكتور بشدة ولم يعرف كيف يجيب. أخذ الطلب من يدي الموظف وابتلع صمته وانصرف مسرعًا .

في الطريق إلى عيادته لمح لافتة عريضة تدلل على مكان الاعتناء بأعضاء النسوة فقط .

ضحك في نفسه محدثًا إياها: لابد أنه حظيرة المهبل الحليق .

ورغم صوت مكيفات الهواء الهادر في كل أرجاء المشفى كان يتصبب عرقًا حتى وصل أخيرًا لمقر عيادته ومقر عمله الجديد حيث قابلته ممرضته الفلبينية بترحاب ودي وهزات وانحناءات للرأس تميز دومًا الشرق الأسيوي .

كانت رحلته لمقر عملة الجديد قصيرة نسبيا لكنها أضافت لخبرته الحياتية مزيدًا من الحيطة والحذر في التعامل مع كل غريب

وضع رأسه بين كفيه في حين ظلت الممرضة الفلبينية تنظر إليه تحاول قراءة معالم ذلك الوافد الجديد إليها .

أمرها أن تنادِي على أول مريض؛ لكنها ما كادت تفعل حتى دوى في المكان صوت جَلَبَة واحتكاك أصوات بشرية غليظة ببعضها ,تمكّن منه فضوله أخيرًا ليخرج خارج حدود عيادته غير المسموح له تخطيها ليرى ويعرف ماذا يدور خارجها , وتبين له فيما بعد أن حوارًا شديد اللهجة دار بين صاحب المشفى - وهو بدوي جاهل- وبين ما يسمونه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وهي نوع من الشرطة الدينية يحاول أفرادها والمنتسبين إليها فرض صورة دينية صارمة تعم الشوارع والأماكن العامة, وكان سبب الشجار هو تلك اللافتة التي تفصل قسم الاعتناء بالبشرة عن عيادة الأسنان ,والتي كُتب عليها تجميل وتفتيح وتهذيب شعر الأماكن الحساسة للنساء , وصمم أفراد الهيئة أن يزيلوا اللافتة ويخرجوا كل النساء اللواتي يتم علاجهن وتجميلهن بالداخل بحجة أنها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار, وهو الحديث الشريف المأخوذ حرفيا من كلام نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام ؛ولكن بعد أن قام الكفيل صاحب المشفى بالاتصال هاتفيا بأحد معارفه الذي يعمل لدى أمير من أمراء النفط في البلاد تم تسوية الخلاف على أن يتم إزالة اللافتة المكتوبة باللغة العربية واستبدالها بأخرى, يُكتب فيها نفس الإعلان ولكن بلغة غير عربية ويبدو أن هذا الحل جاء مرضيا لجميع الأطراف ,فسواء كانت اللغة عربية أو غير فالنسوة يجدن طريقهن بسهولة لمكان تصفيف وتهذيب عانات البداوة السمينة .

لا تظن أنك تركت مصر جزء لا بأس به من مصر ستجده هنا سيرطب عليك أجواء الغربة الحارة هنا ويشعرك بشيء من الألفة.

لكنها نماذج مصرية لا أحب أن أراها يا سيدي .

تقصد رتيبة الدميمة لديك فوزية الطرية الندية .

لا يا سيدي لست مهموما بالجنس في الوقت الراهن .

ماذا تقصد ؟

أفتقد مصر المفكرة مصر الفنانة المبدعة .

فوزية عليها رقص يجنن .

أنت دومًا تسيء فهمي .

أنت عاوز إيه يا جدع أنت عاوز شغل الأُدباتية والمثقفين أمال سيبت مصر ليه ؟!!

سؤالك طعن قدرتي على الإجابة .

عشان شحاتين وهاتفضلوا طول عمركم شحاتين هنا كل شيء مريح حياة سلسة ناعمة مرفهة عاوز ثقافة وأدب عندك الأنترنت قضي وقت فراغك فيه .

أنا أتحدث عن البشر لا عن الكتب .

أي بشر هؤلاء المتاعيس مثقفي السلطة المنافقين أم مثقفي غياب الوعى المنسحبين أم فناني التغريب والأحاجي أم كتاب الأكروبات النثرية التي لا يفهمها أحد أم الطبقة الوسطى المنسحقة أم الغالبية المعدمة المهمشة أم ماذا ؟

الجميع يا سيدي حتى القاذورات والنفايات المصرية افتقدها هنا .

أنت إنسان غريب ما ترفصشي النعمة بإديك واعقل كده .

أنهى حلاقة ذقنه ونظر لوجهه في المرآة فانتهى الحوار.

تكهرب الجو وازدادت خطى الموظفين والممرضات وتم عمل حائط بشري من رجال الأمن في المشفى فهناك شخصية كبيرة ومؤثرة جاءت لتعالج أسنانها وكان حظه العاثر الذي يتمناه أي أحد غيره يخبئ له مفاجأة غير سعيدة عندما دخلت الشخصية الكبيرة فضاء عيادته الصغير لم يتقدم أحد من معاونيه وانتظروا عند الباب وفقط دخلت الشخصية الكبيرة مع بنت صغيرة تخبئ وجهها الطفولي في عباءة سوداء وفضفاضة وبعد أن أدى عمله الطبي بكفاءة ومهارة وصف له بعض أقراص المضاد الحيوي ليستخدمها في مواعيد محددة وعندما اشتكى له أن كثرة مواعيده وأسفاره خارج البلاد تجعله لا يستطيع التقيد بمواعيد جرعات العلاج أشار إلى البنت الصغيرة قائلا :

البركة في بنت معاليك تفكر حضرتك ربنا يباركلك فيها وتفرح بيها بإذن الله .

وتغير وجه الشخصية الكبيرة ونهض في حركة بهلوانية سريعة من فوق كرسي الكشف وشد ذراع البنت الصغيرة وخرج بها مسرعا للخارج وسقطت منة روشته العلاج .

نظرت الممرضة الفلبينية لطبيبها الحائر وابتسمت في خبث غير معهود ثم قالت له بعربية ركيكة ممزوجة بأنين أسيوي خافت :

هايدي حورمه هوا ليست ابنته يا دكتور .

مرّت الأيام والشهور وشارفت سنته الأولى على الانتهاء وفي غرفة صديقه فؤاد كان الحوار المؤجل الذي التهمه عدم وجود وقت فراغ كافٍ لديهما يفرغا من خلاله همومهما وطرائفهما ومغامراتهما كان فؤاد طبيب عيون شاب يكبره بعام واحد وتكونت وشائج علاقة ودية بينهما لكن الشيء الوحيد الذي كاد يتلف هذا الود هو شدة تدين فؤاد التي كانت تقابل منه بامتعاض شديد .

لماذا لا أراك تصلي ؟

أصلي في سري .

دي نكتة ؟

يا عم فؤاد ارحمني

عارف أنا كنت أيام الكلية شاب مستهتر جدًا .

وبعدين إيه اللي حصل وغيّرك بالشكل ده ياريتني كنت قابلتك أيام الكلية .

لما مات أبويا وأنا في سنة الامتياز.

الله يرحمه ويرحمنا جميعًا .

أنا مش بهزر .

وأنا كمان والله بتكلم جد .

أنت ما فكرتش تقرأ في كتب دينية قبل كده ؟

لا قريت .

قريت إيه ؟

في الشعر الجاهلي لطه حسين .

وهوا ده كتاب ديني يا محترم ده كتاب كلة كفر.

قريت شوية في الإنجيل .

أعوذ بالله كتب محرفة لا داعي لها .

بقولك إيه يا فؤاد ما تخلينا أصحاب مدنيين ياعم بلاش نخوض في أمور الدين .

أنت عمرك انتميت لتنظيم سياسي أيام الجامعة ؟

أنا كنت عضو في الفريق المسرحي .

أنت دايما كده تاخد الأمور تريقة .

طيب ما تزعلش الحقيقة إني ما لاقيتش نفسي في تيارات الجامعة السياسية السائدة وقتها يعنى يا أبيض يا أسود يا إخوان مسلمين يا شيوعيين كنت بأدور على لون رمادي مش لاقيه .

وبعدين ؟

ولا بعدين ولا حاجة فضلت كده محايد مالوش لون ولا ريحة لغاية ما اتخرجت .

يعنى أنت عاوز تقنعني إن واحد مثقف زيك لم ينجذب لأي تيار فكري أو سياسي أثناء وجودة في الجامعة .

هو ده اللي حصل يا فؤاد أنت بقي يا سيدي كان ليك ميول سياسية .

قوم نتعشى الأول وبعدين نبقى نتكلم في الموضوع ده .

طرقت باب غرفته طرقات خفيفة وبمجرد أن فتح باب الغرفة ارتمت على صدره بينما أغلقت الباب بساقها .

حاول أن يبتلع ريقه في بؤس وهو يبعدها عن صدره لكنها كانت كالقطة التي زرعت مخالبها في جلده كان في ظاهره يحاول الظهور بمظهر الرافض الممتنع لكنه في باطن نفسه اتحدت هرمونات رغبته مع أعضائه المنتصبة وتمنى منها المزيد .

لم تمهله ردة الفعل ونزعت عن جسدها ثوبها الشفاف ارتدى نظارته وتصبب عرقًا وهو يتأمل إحدى ملامح الجنة .جسد أبيض طري ممشوق انتهكت عيناه لحمته قبل أن تفعل أعضاؤه .

كانت ليلته تلك مع فوزية ليلة لا تنسى أكسبته مزيدًا من الخبرة كرجل ألحت رجولته اعترافها على ملامح وجهه .

كانت فوزية وجبة دسمة تشبع جوع الجوعى من المغتربين من لم يتزوجوا ومن تزوجوا وشعروا بالملل كانت حلما مشاعا لأي فرد مهما كانت حالته ومستواه الحق في أن يناله وكانت ترضى بما قسم لها بعد إسعادها لزبائنها نقود وجبة عشاء كلٌ حسب ظروفه لكنها لم تشأ أن تأخذ منه أي شيء كانت ليلتها التي منحته إياها مجانية ربما استحسنته وربما رق قلبها لحاله وأكرمته بتضاريسها الغنية كانت تتحايل على قلة راتبها بعملها في مهنة قبيحة لكنها كانت تدر عليها ربحا معقولا تبعثه نهاية كل شهر لإعانة أسرتها الكبيرة الفقيرة وكانت بالإضافة لكونها ممرضة وأنثى كريمة وسخية كانت تقوم بعمل النتف للشعر الزائد للسيدات المترفات اللواتي يقبلن على الزواج وكانت تجني من وراء هذه المهنة أموالا وذهبًا وإكراميات تتفاوت قيمتها من شخص لآخر حسب ترتيب سلمه الاجتماعي ولكنها رغم ذلك كانت تحمل بعضا من صفات بنات البلد المصريات اللواتي يتميزن بالجدعنة, فكثيرا ما ساعدت زميلاتها وأغدقت عليهن شكل من أشكال الاشتراكية الحميدة الذي تاه وسط زحام وفوضى العشوائيات وقلة الحيلة كانت فوزية تقسم البقشيش والهدايا بينها وبين زميلاتها بالتساوي رغم أنها هي من تعبت وأسعدت وجملت وقدمت جسدها للجميع دون تفرقة .

حدثه فؤاد عن ذلك المناضل الثوري الذي نفته بلاده بسبب معارضته القوية للنظام وكيف أن زوجته بعد رحيله حرقت كتبه ومؤلفاته واشترت بجزء من ثروته بيتا فسيحًا قسمته قسمين قسم يحوي صالونًا لاستضافة حوارات المناضلين المنفيين وقسم للعب القمار في الخفاء يديره الابن الأكبر للمناضل الثوري .

وكان فؤاد يقول له سآخرا :

إنها ازدواجية معايير العيش على شفا انهيار الوطن وصرامة المنفى .

ثم أخبره فؤاد أن زوجة المناضل الثوري وجدت في خزانته الخاصة رسالة سرية من إحدى كبار الشخصيات في بلادها تفيد بأن زوجها حصل على رواتب منتظمة حتى يوم رحيله من جهاز الاستخبارات في بلاده .

بكى فؤاد كثيرًا ثم قال :

إنهم خونة لأنهم لم يعرفوا الطريق إلى الله هؤلاء الثائرون ضلوا الطريق لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

كان يشفق على فؤاد وكان يخمن أن سبب هذه التقوى المبالغ فيها شيء ما غامض .

سأله فؤاد بحدة: إلى أي تيار سياسي تنتمي يجب أن تجبني وإلا انقطعت صداقتنا .

كان فؤاد جادًا ولحوحًا في طلبه ولم يعرف كيف يهرب منه فقال له صراحة :

أنا مزيج من عدة أطياف سياسية وربما دينية .

هنا أوقفه فؤاد وقاطعه.... ودينية ألا تستحي؟ ثم أدرك فؤاد أنه ألجم صديقة قبل أن يكمل إجابته التي يريد أن يعرفها فعاد إلى إنصاته له لكنه قبل أن يسكت قال له :

هذه هي بلادنا التي تطرد المرتاح زي حالاتك ليقابل المحتاج زي حالاتي كلنا في الهم سوا يا صديقي .

فسأله من أين عرفت أنني مرتاح فرد عليه من نعومة يديك ومظهرها الخارجي هاتان يدان لم تخلقان للشقاء مثل أيادينا نحن الفقراء تنهد تنهيدة طويلة ثم قال أريد أن أكون مستقلا عن أهلي المرتاحين وسوف أجيبك على كل أسألتك يا فؤاد .

بعد تجربة العالم التعيسة مع الشيوعية ومنهج الاشتراكية الذي لم يحقق العدالة الاجتماعية بقدر ما وجه السوق لخدمة أفكار الدولة الشمولية وسخرها لطبقة معينة وبعد فشل الرأسمالية في تحقيق حافز أخلاقي لحرية الأفراد التي لا حدود لها أصبح لزاما التفكير في طريق ثالث يجمع بين ميزات الطريقين ويتجنب سلبيات كل منهما على حدة ولم يكن مفهوم الطريق الثالث لأنتوني جيدنز هو الأول وإنما سبقته تجارب مهمة أهمها دولة الرفاة لدى جون ماينرد كينزي التي حاولت تصحيح مسار أزمة شعار دعه يعمل دعه يمر لصاحب الرأسمالية الراديكالية آدم سميث .

قال له فؤاد ولماذا كل ذلك ولماذا أمد يدي للغرب وأتسول النظريات وأنا أمتلك شريعة تصلح للدنيا والآخرة على السواء هنا في هذه البلاد الصحراوية التي تطبق شريعة الله تطبق أيضًا دولة الرفاة دون أن يعرفوا أو يستوردوا من صديقك الكافر جون كينزى هذا .

يا فؤاد إنهم هنا يستوردون كل شيء الخدم والأطباء والطب والنساء والطعام حتى لباسهم الداخلي وزيهم الوطني ثم أنني لم أقصد بدولة الرفاة ما يحدث هنا هنا يوجد مواطن تكاسل عن حقه السياسي طواعية من أجل أن يعيش حياة باذخة تعتمد على

الاستهلاك دون أن يعمل أو يتعلم أو حتى يدفع ضرائب.

الضرائب حرام يا حضرت !!

وكلامك حرام

وقوم استغفر ربك .

إلى هنا تنتهي الحدوتة على الأقل بالنسبة لي ولعلكم قد أسرفتم في تصديق هذه الأحداث لا بأس فجزء كبير منها حقيقي بالفعل لكنني كالعادة مارست خيلاء المؤلف في الكذب والتحايل على القراء ولخبطت أذواقهم بمزيج ردئ من عربيات فصحى وعامية وبدوية وأسيوية . بالطبع تعددت لقاءات فوزية ببطل القصة وبالطبع كان فؤاد أيضًا يمارس الجنس مع فوزية مثلما كان له دوره في إقصاء البطل عن وظيفته بالمشفى بسبب وشاية حقيرة لا داعي لذكرها هنا لكن دعوني أخبركم بآخر شيء فعله البطل قبل رحيله إلى بلاده حضوره لحفل زفاف فؤاد وفوزية حفل كان كل المدعوين فيه يعرفون تفاصيل جسد العروس شبرا شبرا بما فيهم الكفيل وصاحب المشفى اللعين ليست تلك المشكلة إنما الكارثة الحقيقية حدثت بعد سنوات طويلة من كتابة هذه القصة عندما فوجئ البطل بفؤاد وفوزية بعدما عادا إلى أرض الوطن يدعوانه لحضور حفل زفاف ابنتهما ذات الإثنى عشر ربيعًا إلى الكفيل ذا السبعين خريفا.

ebeikandl.com

obeikandl.com

الذي لم يأت

وقفت في محاذاة الترابزين ذي الحواف المعدنية المدببة وخبأت وجهي قليلًا وراء كفي ولكنني كنت أراه جيدًا من خلال فتحات أصابع كفي كنت حريصا ألا يراني وكنت أكثر حرصا على أن أتأكد أنه هو . . معقول؟ ! أيكون هو بعد كل هذا العمر أيكون هو بشحمه ولحمه ووجهه الطفولي النبيل؟ لا زلت أذكر بيته الأرستقراطي شقة فسيحة في عمارة أغلب سكانها من كائنات عائدات البترول العربي ورغم ذلك احتفظت شقته بنكهتها الخاصة متحدية كل قوانين البذاءة وأعراف الذهول وسيولة الانحدار حتى انتهى بها الحال إلى متحف حفري لا يقوى على منافسة حفريات النفط وشخوصه ومسوخه.

يسكن فوقه محامٍ فاسد كنت قد ارتبطت بابنته بقصة حب عابر تدخلت أمي البرجوازية في اللحظة الحاسمة لإعطاء قصة الحب هذه حقنة سامة في شريانها السباتي ولازلت أذكره وهو يتابع حركاتي وأنا أكمل المسير على سلم العمارة متجاوزا باب شقته صعودا إلى مخدع حبيبتي كنا نتقابل سرا عند العتبة الإسمنتية الفاصلة بين طابقه وطابقهم وذات مرة فاجأني فاعتراني الخجل وقال لي قولته التي لا أنساها :

ليست تلك التي أئتمنها عليك أنت طفل متمرد وتحتاج لامرأة ناضجة تحتوى عبثك وتحوله لطاقة منتظمة .

كنت أنا الكائن الوحيد الذي كنت بمجرد دخولي بيته ترتمي قطط والدته أصيلة النسب في حضني كان ينظر لي ويضحك قائلا :

قطط حولانة فاكراك شوال سمك .

وذات مرة شاغلنا والدته الكريمة وتسللنا إلى مرسمها وأماط ملاءات الإهمال من فوق بعض رسومها ولوحاتها كنت أنا وهو كتمثالين تسمرا أمام ذلك الجمال الأسطوري أو قل وثنيين اكتشفا أنهما حجرا لا ينطق أمام فتنة الإبداع الذي اقترب من حد الكمال. تشجع أخيرًا وتمالك أعصابه وقابل والدي عند مدخل البوابة الفورفورجية ذات الحديد المعشق مع الزجاج .

أيوا أنا هو يا سيدي أنا صديق ابنك البكر .

كان أبى قد وصل وقتها سنًا جعل كرشه يستقر عند حجم معين لم يستطع أن يخفي إعجابه بكرش والدي وخرجت منه تلك الضحكة وكان العقاب في انتظارنا لمدة ساعتين واقفين نحرك رقبتنا يمينًا ويسارًا ونكرر ركوعًا خاطفا ووقوفا مفاجئًا في تلك الحضرة التي صمم والدي أن نحضرها في حوزته الصوفية في المسجد المقابل لبيتي ولازلت أذكر

إعجابه بموسيقى الجاز وكنت عندما أتأفف من ارتجالها واعتمادها على مهارة العازف دون نوتة معدة مسبقا يبتسم في وجهي ويقول لي: إنه ارتجال الحرية.

يا صديقي كنت أحاول أن أفهم وكان هو لا يمل من خفض جناح كبريائه لسذاجتي كان عاشقا للريف وبراحه وكان دائمًا ما يأخذني في سيارته البونتياك التي سرق مفاتيحها من والده إلى نزهة ريفية حول فضاء التأمل كان يقول لي :إن تعاقب وطول فترات الاحتلال لبلادنا العزيزة واستعلاء المحتل بثقافته الوافدة جعلهم وجعلنا كل واحد ينزوي في مكان يألفه و أن أقصى ما يؤلمه ذلك التصنيف الغبي للطبقات الاجتماعية فأغلب المناطق الراقية الذي بناها هم المحتلون أجانب أو غير أجانب بينما يبقى الريف منبع الأصالة الحيوي الذي لا ينضب أبدًا . وعندما كنت أقول له : وما الذي منعنا من بناء مناطقنا الراقية بأنفسنا بعد أن نلنا حريتنا يضحك سآخرا ويقول : وهل تظن أننا قد نلنا حريتنا بعد ؟!

ولا زلت أذكر أيضًا محاولاتي الأولى في الكتابة وكيف كان يوجهني من بعيد ويقول لي ببساطة :

كن أنت !

فاجئني ذات مرة وقال لي: متى وكيف كانت حادثة فسادك الأولى؟ فسكت للحظات ثم أجبت: عندما سرقت بعض النقود من محفظة والدي وأنا بعد طالب ثانوي , ثم قال : وماذا فعلت بها ؟ فقلت : اشتريت كتابًا في النقد الأدبي , فضحك وقال : لا غبار الغاية تبرر الوسيلة .فكررت عليه سؤاله فابتسم وقال عندما دخلت الجامعة وقررت أن أمحو اسم والدي من ثلاثية اسمي ولصق اسمي مباشرة باسم جدي الذي لم أراه أبدًا .

كانت الذكريات تتوالى أحداثها الواحد تلو الآخر دون أن تمنحني فرصة ترتيبها أو انتقائها ولاحظته وهو يحاول النظر لي لكنه كان يتجنب النظر المباشر لعيني .

كنت أنا كبير والدي وكان هو الصغير وكان يكبرني بعام أو اثنين .

قال لي : لا أعرف لماذا دومًا الصغير ينسونه في زحمة مشاغلهم وتوزيعهم لتركة الإذعان الأبوي .

فقلت له : الحال من بعضه فالكبير هو الذي دومًا يحمل مصائب الآخرين ويعاقب على أخطاء لم يرتكبها .

كان ثمة ضوء خافت يتسلل ليشكل بقعة استقرت في منتصف المسافة الفاصلة بيننا وبدأت بقعة الضوء تتسع رقعتها وتتمدد دائرتها أزحت كفي عن وجهي وأبصرته قادمًا نحوي نظرت في كل الاتجاهات علّه يحيي شخصًا ما غيري فإذا به يشير ناحيتي ويفتح ذراعيه ليأخذني في حضنه. لحظتها انهمرت دموعي بشكل تلقائي لم أستطع منع نفسي الآن اكتملت الصورة في ذهني ودبت فيها الحياة . نعم إنه هو رغم مسافات البعاد وقوانين القهر والاستبداد لا يزال هو بنفس طاقة النور حول عينيه لم استطع منع نفسي مددت يدي في اتجاهه وأسرعت لاستقبل حضنه واشتم رائحة تفوح من حلمه ومن

وجعي رائحة لا يمكن وصفها بكلمات ولا يمكن احتوائها وتعليبها لتصل إليك عزيزي القارئ كما شعرت بها لحظتها . يكفيك ويكفيني أن تعرف دون أن تستخدم حاسة الشم لديك إنها رائحة طيبة ذكية تختصر في أرومتها كل تفاصيل اللقاء ملس بيده على وجهي ومسح دموعي وقال لي : لن أتركك مرة أخرى يا صديق العمر

أعلن النداء الآلي عن توجب انصراف كل منا لطائرته كنت أنا مسافرا للشرق وكان هو مسافر للغرب أسقطنا جوازات سفرنا على أرض المطار أمسك كل منا بكف الآخر ونظرنا للأمام وسرنا في نفس الاتجاه .

في اليوم التالي انتظرته على نفس المقهى الذي شهد ميلاد صداقتنا منذ أعوام طويلة انتظرته ليقرأ هذه القصة كما كنت أفعل معه حينما أنتهى من كتابة قصة جديدة وكنت متشوقًا لسماع رأيه فأنا لأول مرة أكتب عنه وعن تجربتنا معا .

انتظرته طويلا، لكنه كان مثل الذي لم يأت .

obeikandl.com

obeikandl.com

هيستيريا

نحاسيات

فانفار لإيقاظ الروح !

لم أشعر بنفسي فقط استسلمت وتركت أطرافي تحمل ما بقي من وزن غفوتي لم أعرف كم لبثت هنا لم أدرك ماذا غشيني في كهف الغياب .

مارش الظهيرة .

كاد الجوع يقتلني بحثت في كل الأركان لم أجد شيئًا تستأنسه معدتي خرجت للخارج لفحتني شمس الظهيرة ارتديت نظارتي السوداء فدخلت لكنني لم أنزع نظارتي. . . بعد ذلك عرفت أن الطعام كان في كل الأركان لكنني لم أراه عرفت بعد أن أكلت حسرتي خشبيات .

ناي حزين (سوليست تريست)

التلفاز يبث أخبارا مصورة انفجارات ودمار وأشلاء أمهات تبكى وأرامل تندب وتوابيت تسير في طابور طويل ومقابر امتلأت لآخرها حاولت المذيعة الأنيقة السير وسط الأشلاء لكنها تعثرت في أرجل إحدى الجثث وعندما استردت قدمها انقلبت الجثة على ظهرها فرأت وجهها طفل صغير معصوب العينين يبدوا أنهم كانوا رحماء وكان ذوقهم في الأذى رفيع فلم يشاؤوا أن يرى الطفل مشهد إعدامه .

نحاسيات مرة أخرى .

مارش جنائزي

لم أطق إكمال نشرة الأخبار تلك أغلقت جهاز التلفاز ذهبت إلى مخدعي أحاول إكمال لوحتي الأخيرة تعثرت قدمي في قطتي الصغيرة تنبهت أنها بدون ذيل لكنها لا تتألم ولكن المفاجأة لم تمهلني أن أعرف أكثر أبصرت ناحية النافذة فوجدت مشهد طابور التوابيت يزحف نحوي فركت عيني علّني أحلم لكن المشهد كان يقترب أكثر وأكثر ذهبت لأغلق كل الأبواب وأسد كل الفتحات أسرعت لكن خطي طابور الموت كانت أسرع .

نقر على وتريات الروح .

المذيعة الأنيقة تتقدم موكب التوابيت وقفت أمام البوابة الرئيسية للبيت كنت أقف وراء البوابة ممسكا مسدسي وهددت بأن أي محاولة لاقتحام المنزل ستؤدى إلى مجزرة حقيقية لم تعبأ بكلامي وتقدمت خطوتين ثم مدت يدها من خلال إحدى فتحات البوابة وأخذت مسدسي دون أدنى مقاومة مني ثم وجهته نحوي وأخبرتني أنه مجرد

مسدس للأطفال وليس حقيقي.

سوريالية الختام .

ارتمت قطتي في حضن المذيعة الأنيقة قفزت تلك المسافة في الهواء بسرعة ورشاقة لم أكن أعرف أنها بكل هذه البراعة ولكن هذه المرة لمحت ذيلها كاملًا. كانت أمي تجوب الدنيا بحثا عن أخبارها الحقيقة وكانت تتمني أن اصبح مثلها مذيعا لامعا.

قالت لى المذيعة:لماذا رفعت العصابة من فوق عينيك؟أنت لاتزال بعد صغير لا ينبغى أن ترى مثل تلك المشاهد.

وقبل أن أنطق وجدتها تبكى وتبكى ثم أفسحت الطريق لأحد التوابيت الفارغة ليتقدم نحوي ,كان التابوت ضيقا بحيث طمأنني أنه ليس لي ,لكنه عندما أصبح فى مواجهتى شعرت أنه يناسب مقاس جسدى تماما.

أوركسترا الحقيقة

هذا وبصعوبة بالغة تمكنت السلطات المعنية من دخول البيت ,بيت المذيعة اللامعة. حيث كانت صورتها المتأنقة لاتزال تبث من جهاز التلفاز وهى تتعثر في طريقها بين مئات الجثث التي خلفها القصف الوحشي للطائرات,,تقدم الضابط المسئول وأغلق التلفاز بينما أشار لبعض مساعديه أن يضعوا جثتى المذيعة وولدها معصوب العينين داخل تابوتيهما ,وذهب الجميع وساد المكان صمت طفيف لم يقطعه سوى مواء قطة صغيرة تلهو مع طيف شبح صغير معصوب العينين.

ألابد أن يكون هنا عنوان؟
(ضع العنوان الذي يروق لك)

هذا الجزء من النهار هو المفضل لديه حيث تميل الشمس في اتجاه الحجر الغربي للأفق فتنساب صورها المعكوسة على نوافذ المترو متحركة في متوالية بصرية من نافذة إلى الأخرى حتى تستقر على جانب أحدي النوافذ الزجاجية عندما يتوقف المترو .

يفتح رئتيه لاستنشاق الهواء الممزوج برائحة احتكاك الحديد بالحديد يحبس الشهيق داخله للحظات ولا يزفره حتى ترتوي جميع خلاياه . . محطة المترو هادئة فساعة الذروة لانصراف الموظفين قد انقضت . جلس مقابل صديقه وقبل أن يغادر المترو المحطة أخبره بإنشائه لأنه استطاع أخيرًا نزع صحيفة الجريدة من تحت ملابسه منتصرا على إحدى قرارات أمه الغير قابلة للترويض لكن سرعان ما خاب ظنه لقد تامر الطقس مع ربة الدار فاليوم دافئ ولم تخشى أمه تسلل البرد إلى صدره لابد أنها تعرف الاستخدام الأمثل لصحف الجرائد.

جذبه من يده مذكرا إياه بالرهان الذي اتفقا عليه سابقًا فأخبره أن عليه الانتظار قليلًا حتى يمتلأ المترو عن آخره .

ما هذا البطيء هل يتسكع المترو معنا ؟
يبدو أنه يعرف ويريد منحنا الفرصة كاملة .
تجاوزنا أربع محطات حتى الآن انطق الآن
وقف في المنتصف وصرخ بأعلى صوته

.....

كنت أتمنى أن نصل إلى المحطة الأخيرة
حمدا لله أن الركاب سمحوا لنا بالنزول
كان عليك أن تتدعي الجنون
لا كان يجب أن أتركهم يفتكون بنا
لم أكن أتصور أن يكون نصف عدد الركاب اسمهم محمد لقد عددتهم جيدًا .
النصف زائد واحد لأنني رفعت يدي حين صرخت أم نسيت أن اسمي محمد .
وهل كان يجب عليَّ أن أرفع يدي أنا الآخر ؟
لا بأس فنحن أمة محمد .
على أية حال لقد نقصت نقود الرهان قليلًا اشتريت علبة سجائر.

إذا سوف أكتفي باستخدام سجائرك .
هل تذكر ذلك المقهى الذي يقدم لزبائنه عرضًا لفرقة سيرك متجول ما رأيك لو مكثنا هناك قليلًا ؟
فرقة سيرك إنها رجل وابنته .
لكنهما يقومان بعروض جيدة .
أية عروض في آخر مرة كادت البنت أن تقع من فوق كتف أبوها ؟!
لكن الرجل حوّل هذه السقطة إلى حركة جيدة .
إذا كنت مصممًا فسوف أعتبر رهاني صدقة لوجه الله من أجل فرقتك الكسيحة تلك .
.....
صلي على رسول الله
ثم قام الرجل بفرك يديه جيدًا قبل أن يحمل ابنته الصغيرة ليكورها في الهواء .
يا صديقي إنها نفس الحركات المملة ضع بعض العملات بجواره وهيا بنا نذهب لمكان آخر .
لم يفته أن يسأل الرجل عن اسمه قبل أن يغادر .
محسوبك محمد يا بيه
.....
انتهى بهما المطاف إلى مصطبة أسمنتية على جانب الرصيف جلسا عليها يمددان أطرافهما وبعض ذكرياتهما القديمة .
هل تذكر تلك الفتاة التي قابلناها بجوار الضريح الشهير؟ فتاة المولد يا رجل .
عفوًا لا أتذكرها .
تلك الفتاة المجذوبة التي استجارت بنا حينما طاردها بعض الفتية .
آه تذكرتها تلك التي كانت تكشف عن نهديها اللذان كانا بعد في طور التكوين .
هل هذا كل ما تذكرته ؟
لا تذكرت أيضًا كيف تطوعت وسترت صدرها بصحيفة جريدة أمك أسفل ثيابك ومكثنا الليل كله بحثا عن شيء بديل حتى لا تعاقبك الست الوالدة بوضع صحيفتين بدلا من صحيفة واحدة .
هل تذكر أنت تلك العاهرة المسكينة ؟
عاهرة ومسكينة كيف يا صديقي ؟!
تلك التي ضاجعتها مرتين دون أن تعرف أنها ترتدي طرفا اصطناعيًا والتي طالبت قوادها باسترجاع نقودك الذي كان اسمه محمد بالمناسبة الصدفة السعيدة .
أنت ماسخ .
معك حق لكن أخبرني كيف سوف ننهي هذه الليلة المملة

كما بدأناها ؟
ماذا تقصد ؟
نركب آخر رحلة للمترو ونتراهن من جديد.

obeikandl.com

obeikandl.com

أحدب الميدان

شعوذ يا دجال في حضرة البركة العجوز إئتنا بذهول حد رعشة اليقين حضر لنا روح الشهيد الثائر ودعنا نسأله لماذا قضيت نحبك ونحن لا نستحق ؟أكنت تعرف أم إنك تماهيت في قراءة الغيب ؟ انشط يا دجال فالوقت يمر كسيف يشق غيمة الوهم أسرع قبل أن نفيق أسرع قبل أن يتحول الشهيد إلى زومبي .

ونتحول نحن إلى مجاذيب

؛؛؛

عندما سألنا مدير الفندق وأين أفراد الحراسة؟ نظر إلينا متجهمًا ثم قال :

لا يوجد لدينا أفراد حراسه لا نملك رواتب لهم عليكم التكيف مع هذا الواقع ولا داعي لهذا الترف الاجتماعي , ثم أطرق لبرهة وأردف لدينا عم جابر هو حارس الفندق الذي يمكنكم وضع ثقتكم فيه لا ينام أبدًا ولا يطلب بقشيش فقط يحب الاستماع إلى النكات الجنسية .

كنا جميعنا متلهفين لرؤية عم جابر هذا ذلك الكائن الذي سنبيت في حضن أرقه في ليلتنا الأولى والأخيرة في الفندق آخرج منصور دفترا من جيبه وراح يدون فيه بعض النكات ليقدمها بقشيشا كعربون للصداقة مع عم جابر. أما صفوت فراح يجهز بعض زجاجات المياه المعدنية من بقايا امتعتنا بينما أشعل جرجس ولاعته المذهبة ليقوم بتسخين الأغطية البلاستيكية على الزجاجات فتبدو كأنها جديدة لم تفتح من قبل فتشبع نهمنا للطازجة حين نسمع صوت فتحها من جديد وكأننا نستخدمها لأول مرة .

فؤاد لم يكترث بكل ذلك وآخرج بيجامته من حقيبته وبطريقته الفوضوية خلع ملابسة وقام برميها في الغرفة ثم استلقى ممدا أطرافه وفاردا إرهاقه على الأريكة الكبيرة في مدخل الغرفة واستعد لحلم لقاء جديد مع نوم طويل.

نظر إلينا عبد الحميد مبتسما سآخرا ثم قال : يا لكم من أشقياء هل تصدقون كلام مدير الفندق عن عم جابر هذا. وقبل أن يكمل عبد الحميد كلمته هرع إلينا غباشي من بهو اللوبي الكبير داخلا الغرفة التي كان لا يزال بابها مفتوحا ثم قال لنا: هل تعرفون من يقيم في الغرفة المجاورة لنا؟ قال صفوت سيدتان أم وابنتها والأم أجمل من ابنتها لازلت أشتم رائحة عطرها ولازالت أردافها التي تحاول تمزيق بنطلها لتخرج إلى رحابة الواقع تزغلل عيني . نهره غباشي قائلا: يا معتوه إنهن يعملن مع المخابرات ضحك عبد الحميد وقال: لماذا دومًا تنتهي قصص السيدات الحسان بعالم المخابرات ؟ أفرغ عقلك من هذه

الخرافات أيها التقليدي .

طرقات خافتة على باب غرفتنا المفتوح .

انبهتنا إلى قدوم زائر غير متوقع فسكتنا جميعًا ونظرنا من وراء الباب فإذا بعم جابر بشحمه ولحمه رأس صغيرة سمراء تعلوها شعيرات مشيب ما بعد الخمسين تستقر فوق جسد نحيل يرتدي جلبابًا أزرقا مليئا بالرقع وحدبة خفيفة فوق ظهره ويد يسرى كتعاء... هو الفندق ده ما فيهوش نوم ولا إيه صرخ فينا متقيأ هذه العبارة في وجوهنا فلم يستطع أن ينطق أحد فينا ثم أردف بكرة مظاهرات يا حضرات والميدان ها يولع ناموا بقا .

لا يمكنك أن ترى نور الشمس إلا من خلال هذه البوابة وهذه البوابة لا تفتح إلا من خلال تلك السلسلة المعدنية المنتهية بقفل ضخم صدئ ومفتاح . هذا القفل يضعه عم جابر حول رقبته وكأنه تميمة الحياة التي ترافقه إلى عالمه الخاص ولا تنفصل عنة ولا ينفصل هو عنها أبدًا.

في الصباح راح عم جابر يتفحص وجوهنا ويصر على رؤية بطاقة إثبات الشخصية لكل واحد فينا إجراء ممل لكنه ضروري لفتح بوابة الحرية المؤدية للميدان . صرخ فيه عبد الحميد يا راجل أنت ما أنت شفت بطايقنا أربع مرات إمبارح وعارف إننا نزلاء في الفندق .

لم يهتم عم جابر لكلامه وأكمل تفتيش أجسادنا وعندما سأله صفوت عن ذلك قال مش يمكن تكونوا سارقين حاجة من الفندق.. الفندق ده بيتي وكل حاجة فيه بتاعتي واللي معترض مش ها يخرج برا البوابة .

لوّح لنا صديقنا العائد من سفر طويل كان قد أصبح مشهورا صاحب وجه مألوف على كل الفضائيات منذ اندلاع الثورة حواراته حول الحرية والعدالة الاجتماعية باتت أبجدياتنا في أولى خطواتنا للعمل السياسي . طرق صديقنا البوابة بأدب ولطف محاولًا أن يرق قلب عم جابر له ليفتح البوابة فنظر إليه قائلا : بلطجية تاني فصرخ فيه غباشي بغضب بلطجية إيه يا بني آدم أنت ماتعرفش الدكتور ممتاز؟ فقال عم جابر محتدا :ممتاز ولا مش ممتاز الكل لازم يتفتش قبل الدخول أو الخروج .

قال فؤاد غاضبا: لا أنت زودتها قوي يا راجل أنت. تقدم منصور ببطء ناحية عم جابر ثم همس في آذنه فإذا بالرجل يضحك ضحكة عالية مجلجلة تكشف عن نابيه المطمورين داخل فمه المكرمش وبعدها قام عم جابر بفتح البوابة لنأخذ الدكتور ممتاز في أحضاننا الواحد تلو الآخر ثم نستعد للتوجه إلى الميدان . أغلق عم جابر البوابة خلفنا فعرفنا أننا قد ذهبنا في طريق أحادي الاتجاه سكة اللي يروح ولا يرجعش , فقال جرجس مازحًا : أيها الأبطال الميدان أمامكم وعم جابر وراءكم فانظروا ماذا أنتم فاعلون .

تشابكت أيادينا ونحن ننطلق ناحية الميدان الذي بات رمزا للثورة منذ اندلاعها وبدأنا رحلة طوافنا حوله. طوفان من البشر حول كعكة الحرية كرنفال من الأزياء

هتافات وأغاني حماسية وباعة جائلين صنعت بضاعتهم منتهية الصلاحية مخزون الغذاء لأهل الميدان وتنوع الغذاء قليلًا ليصبح أعلام وتذكارات وطنية لقت رواجًا كبيرًا بين الرواد . باب رزق موسمي ربما لن يتكرر مرة أخرى لبشر يعاملون كأشباه بشر ومشاهير هنا وهناك يمينهم يتوق لإعلان نفسه نبيا للثورة ويسارهم لا يمل من الابتسام لعدسة الكاميرا حين يسأله أحدهم بالتقاط صورة تذكارية معه.

غباشي لم يفوت الفرصة راح يبحث عن مشاهير الفضائيات وبائعو الكلام حلوه ومره ,وجهز عدسة كاميرته التي لا تغلق أبدًا ليزين حائط مكتبته الكبيرة التي ورثها عن أبيه ببعض صور الميدان لحظات وبدأ الجمع ينفرط عقده أمام وطئة الزحام الشديد. وحده كان الدكتور ممتاز يحاول دائما أخذنا إلى حيث مناطق يشدها جو التأزم داخل الميدان, فمرة يدخل في حوار مع أحد المتظاهرين يرفع لافتة ضد الجيش فقام بنهره وحثه على احترام الجيش وأنه لولاه ما كانت الثورة قد استمرت ,ومرة أخرى نجده يحث مجموعة من المتظاهرين يهتفون بأن الجيش والشعب يد واحدة على أن ينتقدوا أداء الجيش ولا يصنعون منه فرعونا آخر سيكون هذه المرة عدة فراعين وليس فرعونًا واحدا كان يتلهف لأن تراه إحدى المحطات الفضائية الأجنبية التي ملأت الميدان لعمل حوار معه .

فإذا به يصرح لأحداها وكانت محطة أميركية ويتحدث بلغة إنجليزية عصرية ظن أننا لن نفهمها ويقول: إن أمريكا كانت وراء انجاح الثورة , ومرة أخرى يقول :عندما استضافته إحدى القنوات المحلية إن الثورة ضد الأجندة الأميركية بكل فحواها.

جلس بعضنا على الرصيف من شدة التعب والبعض الآخر راح يقيم حوارا مع بعض الفتيات اللواتي انتشرن في الميدان ببناطيلهن الضيقة جدًا , كانت الفتيات ممتنات جدًا للثوار أن أتاحوا لهن هذه الفرصة ليتعرفن على الوجه الحقيقي للبلاد حسب تعبيرهن وكيف أن الثورة لم تميز بين السافرة والمحجبة في العمل الوطني فالكل سواسية في حب الوطن ومع ذلك المنهج المضاد للتمييز كانت كلما مرت بجوارنا فتاة منقبة أو محجبة شعرنا بتأفف الفتيات السافرات فعرفنا أننا لا نزال في بداية المشوار.

شاءت الصدفة أن يجلس منصور بجواري على الرصيف فسألته بخبث ماذا قلت لعم جابر ليفتح بعدها البوابة بهذه السرعة فقال لي مبتسما :وماذا تظنني قد قلت له ؟ فقلت بالتأكيد أخذت بنصيحة مدير الفندق لتقول له إحدى نكاتك الجنسية فهز رأسه بالنفي وقال لي : أبدًا لقد أخبرته أننا قد نذهب لتناول وجبة الغذاء في أحد المطاعم القريبة وأننا سنحضر له معنا وجبة عائلية دسمة مليئة بالأفخاذ والصدور المقرمشة .

كنت أعرف بالطبع أن منصور يكذب فهو لا يريد أبدًا لأحدنا أن يعرف كيف يبني نكاته الجنسية فهي موهبة تميز بها منذ عرفناه , وكنت أعرف أن الوجبة المجانية التي وعد بها عم جابر المليئة بالأفخاذ والصدور إنما هي بالفعل أفخاذ وصدور لكن بطريقة أخرى . لكنني عدت لأسأله ولما وجبة عائلية وعم جابر يعيش بمفرده ؟ فنظر لي وقال:

سوف نتناولها أنا وهو مع السيدة وبنتها اللتان تقيمان بالغرفة المجاورة لغرفتنا في الفندق ثم قطّب ما بين حاجبيه ورفع أحدهما لأعلى وانصرف .

وجوه مألوفة احتضنت ذاكرة النضال فينا وأخرى غبرتها عواصف الحراك , رجال ونساء وشيوخ وأطفال ,حوانيت متنقلة وحواديت ليست بالضرورة أن تحكي كلها عن رحلة كفاح الشعوب المقهورة كان جزء لا بأس منها يتحدث عن التحام الفقراء بالأغنياء وكذا التحام الأجيال داخل الميدان وإذا ما كان هذا الالتحام مؤقتا أم أنه سيغير وجه الحياة بالفعل في وطن شرب الذل حتى الثمالة , وحوارات تتناول تقسيم الغنائم قبل أن نرى أي غنيمة.

صبية خرجوا من مدارسهم لفسحة عبر التاريخ ,وآخرون كان الميدان بالنسبة لهم مكانًا أوسع من شوارع ضيقة اعتادوا افتراشها مسكنا وملجأ . ثائرون وآخرون خرجوا باندفاع قصور فضولهم الذاتي مهرجان بشري متعدد الألوان والأهواء اختزله الميدان واحتواه جابرا خاطر الجميع . كادحون يطالبون بفرصة أفضل لكن من خلال توكيل مجاني لمن ظنوا أنهم أكثر لباقة منهم ,وأثرياء جزء منهم راح يبحث عن استثمار جديد بين البشر والجماد والحالة وجزء أخر ضج من أحوال نظام ربما لم يعد هو نفسه مرتاحا لنفسه باختصار كان الجميع مسحوقا حتى النظام نفسه.

هنا ليس للصمت وجود يجب أن تتكلم لا يهم في ماذا إنما يجب أن تقول شيئًا وإلا داستك أقدام الحرية , فالقانون هنا تكلم أو تحرك بسرعة ولأن الميدان مزدحم عن آخره فلا مجال غير أن تستبدل حركة الجسد بحركة اللسان فلسانك هو بهلوانك في الميدان الشهير إن حركته صانك وحماك وإلا . . . . . يا سادة إنه الميدان خلية النحل لكن دون ملكة وقوس قزح الذي كسر قوانين الطبيعة واكتمل ليشكل دائرة من الألوان الثرية باهظة التناقض .

يا عالم إنه الميدان كعبة الثورة التي فرضت على الجميع أن يحج إليها ليكتب له الملائكة عند الله إنه ثائرًا ولولا هذه الفريضة ما أصبح ثائرا وما استحق صك غفران الحرية .

يا ناس إنه الميدان من بداخله فقط هم جوقة الحظ السعيد ومن لم يدخله فاته الإيمان والحق النبيل .

(يا خلق الله من استطاع منكم أن يفهم أن فقرتي السابقة كانت منتهى التهكم فله الأجر والثواب) .

مدير الفندق استطاع تحويل الحدث الأكبر في الميدان الي حدث أصغر يقضي حاجته في دورات مياه الفندق من خلال فضلات لقمة عيش سائغة بأموال نزلاء الفندق الذين تكاثروا فيه لقربه من الميدان ,نزلاء منهم ثائر وفيهم سائح ومن يظن نفسه ثائرا وفيهم لصوص وبصاصين وعصي سعى وأخرى لها مارب أخري.فقط كان عم جابر هو العنصر المحير فعلا,ترى بماذا أفادت الثورة شخصا مثله؟أو بماذا اضرته؟وهل يمكن اعتباره

شريكا فيها أم معارضا لها أم مجرد كيان محايد ينتظر بخبث وشاية النتائج سعيدة كانت أم تعيسة ؟؟؟

مرّت الساعات بسرعة شديدة رأينا فيها الفصول الأربعة تهبط على الميدان , ورأينا معها تطور الإنسان في المكان من لفحة شمس الظهيرة التي أجبرت الإنسان الواقف الهوموايركتيس للانحناء تحت عباءة تظلله , إلى هبوب عواصف رملية جعلت الهوموسابيليس أو إنسان مستخدم الحجر أن يضع بعض المتاريس الحجرية في مدخل الميدان ضد غضب الطبيعة وضد شغب البلطجية ثم مرق العصر الطباشيري فجأة عندما قرر إنسان النيانتيردال أو الإنسان الفنان الأول أن يرسم بالطباشير على إسفلت الميدان بعض رسوماته التي تعبر عن مطالبه البسيطة خبز وكرامة وحرية حتى ظهر الإنسان العاقل أخيرًا الهوموسابينس الذي بدأ يغني على منصة كبيرة في طرف الميدان أغاني وطنية شديدة العذوبة . وأخيرًا انتهى العصر الجليدي بهبوط بعض زخات المطر التي كان صفوت يراقب نزولها منحدرة من فوق صدور الفتيات السافرات إلى محاولة الفتيات المحجبات رفع تنورتهن لتكشف عن جزء بسيط من سيقانهن عند محاولة عبورهن الميدان لتجنب البلل . .

بعد تطور الإنسان في الميدان وبعد انقضاء العصور المناخية التي هبت على المكان وجدنا أنفسنا بالتدريج خارج تلك المتاريس الحجرية التي نصبها رواد الميدان . خرجنا بالتدريج دون أن نشعر جرفتنا حركة الأجساد في سعيها وطوافها الدؤوب حول الميدان وعندما حاولنا الدخول مرة أخرى إلى داخل الميدان منعنا الثوار وطلبوا منا إبراز هويات إثبات شخصياتنا فتش كل منا داخل جيبه فلم يجد أحد منا بطاقته وفجأة صرخ جرجس لقد أخذها عم جابر ولم يعيدها إلينا مرة أخرى , وقبل أن يتملكنا اليأس وجدنا عم جابر يطأطئ لنا رأسه معطيا لكل واحد فينا بطاقته وآمرا الثوار بفتح المتاريس وعندما لمح منصور أخذه بالحضن قائلا له : قولي واحدة كمان والنبي.

مع بداية هبوط أولى خيوط الليل بدأ الميدان ينفض عن نفسه الزحام ومثلما لم نعرف كيف استوعب الميدان هذه الأعداد الضخمة من البشر في سرعة شديدة لم نعرف أيضًا كيف تسربلت هذه الأعداد وذهبت في سرعة أشد وكأن أنفاقا ابتلعتها أسفل الميدان وكأن شيئًا لم يحدث وكأن الثورة راحت تغط في سُبات لترتاح من عناء يوم شاق .

عدنا والعود أحمد دعانا غباشي لرؤية صوره في الميدان مع المشاهير تصفحنا الصور الواحدة تلو الأخرى ثم نظرنا لبعضنا فاتحين أفواهنا تعجبا معقولة الصور كلها لا يظهر فيها إلا عم جابر وقبل أن نحاول تفسير ما يحدث فوجئنا كلنا باستدعائنا إلى النيابة العسكرية للتحقيق في تهمة ازدراء الجيش وعندما وصلنا إلى هناك كانت كل الشلة موجودة إلا شخص واحد هو الدكتور ممتاز فعرفنا وتيقنا وقتها كم كان حكيمًا ذلك الأحدب وكم كان يرى مالا تستطيع رؤيته بصائرنا.

obeikandl.com

ألف ..... باء(فانتازيا ملحمية)

أولًا تقديم

ثم بدا وكان القمر يبكي . . قطرات ندى باردة . . وكانت هي آخر ما بقي منها .

ثلاث طرقات على باب النادل .

كل طرقة بألف صرخة سكين يشق صدر الخوف والباب يؤدي للنادل . . كألف طريق مسفلت بدماء البوية الملطخ بها الحائط . . كألف مئذنة تشق سماء الهداية بآذان لصلاة فات ميعادها . .

والباب يؤدى للنادل . .

في سكون المشهد . . فالق زجاجي يملأ المدى . . ويسد عرض الأفق المتسع . . كألف طريق مسفلت بدماء البوية تتداعي الأصوات أمام جيش الصمت . . عند باب النادل . . ويتسع المدى خلف الفالق الزجاجي . تتجاوب الكلمات بدون أفواه . كهمس أحرف منتحرة عند أعتاب شفاه طوتها الرغبة في الموت حبًا وعشقًا . . وتحت الخيوط المتهدلة من قرص الشمس . . كان أحد هذه الخيوط مربوطًا في طرفه السفلي ألف وبجواره كانت باء . . ومع حركة الشمس نحو الغروب تلملم ما بقي من خيوط في حجرها . . ومع التهاب الأشعة المتخاذلة وتلألؤ الشفق . . كان ألف وباء يرقصان . . يتموجان . عشقًا وحبًا . . وليس في الوجود سواهما وكل الدنيا ألف وباء ,,وفي كل الخيوط ليس إلا ألف وباء وكأنهما انبثقا من عنبر الحواديت في غفلة الشمس . عن حكاية ولد وبنت .

وفي عز الحب والدنيا برد . توقف ألف عن الرقص فتوقفت باء عن الحب . واختفت الدنيا وراء شمس المغيب .

ثانيًا فصل في انعتاق الرواية عن حضرة الراوي :

ولد وبنت

أ انتظرتكِ طويلًا.

ب لقد جئت في ميعادي . . أنت دائمًا متلهف لا أدري لماذا.

أ هل أصبحت المعادلة الآن أكثر تعقيدًا

ب دورك فيها هو سبب تعقيدها

أ لا تزيدين شواهد قبري . . شاهد آخر يشهد في كل لحظة على مصرع الرواية .

ب ولا تجعلني قربانًا من قرابينك المخلصة لإله القهروالرعب
أ تعلمين أن إلهك وإلهى وإله هذا الكون عادل ورحيم .
ب إنما أنت الذي تجعله أحيانًا يبدو غير ذلك بطقوسك الكاذبة. .
أ إن كذبت مرة أخرى طهريني أو اقتليني
ب بل سوف انسحب .
يتحد الآن الراوي والبطل يمتزج الألف والنص ويصرخان في وجه باء .
ألف (والراوي معًا) أنت لست حرة .
ب وأنتما لستما مرغمان
الراوي كان هذا المقطع قبل عودة الثورة تحلّق في أفق الكاتب نصًا عذريًا بمعنى الكلمة أظنني قد جانبني الصواب في بعض أو في كل أجزاء الحوار الساذج . .
أسأل أحدا من المتفرجين . . هل من الضروري أن تكتمل القصة على هذا النحو ؟ لن يجيب أحد. لن يجيب أعرف أنه لن يجيب أحد فأنا فقط الذي يقرر إذن سوف أستدعى ربة الداروسيدة الحكمة في المقطع الاتي . . فلم أقصد رصد حدوتة حب عبيطة . ولكنني قصدت تغيير هذا العالم بأسره منذ اكتشاف الرغبة وحتى الموت في سبيل وطن . . سوف أبدًا إذن وسأغيب أنا وللأبد وراء شمس الكاتب .
ب انصت يا ألف عندما أتحدث يجب أن تنصت .
ينفصل الآن ألف عن وحي الراوي . ويختبئ الراوي في وعي الكاتب ويعود ألف ببطء وبالتدريج إلى سيرته الأولى .
باء مكملة فأنا الذي صنعتك . .
ألف مقاطعًا وأنا الذي انتصرت . كي تهتف الدنيا كلها باسمك باء صباحًا. باء مسًاء ,باء شمالًا وجنوبًا فقط باء.
ب وأنا التي فتحت لك أبواب النصر,تدخلها بيمينك وتقبل ترابي بين قدميك . .
ألف ببراءة سيدة الدار ربة الجوار,,عنوان العالم في رأسي أمي وحبيبتي . مزاجي الخاص أنت سوف يأتي الموت لا محاله ويموت البطل . وتبقين أنت بدون بطل ,بدون ثورة تبعث أشلاء المجد حول جبينكِ .
ب الموت لك وحدك يا ألف . انظر إلى الشجرة ، ستظل وارفة يرويها التاريخ سيرة حب ونضال.
أ ومن أين لكِ ولشجرتك هذه بالنضال ؟ ينظر للشجرة بأسى ثم يتمم ,فأنا الذي زرعتها
باء مقاطعه وأنا التي رويتها .
أ الموت سوف يطأ. .
ب الموت لا يطأ وطن الأسطورة .
أ معاتبًا ومن الذي صنع الأسطورة يا باء؟ ؟ إنه أنا أسطورتك أنا صنعتها فإذا

انتهيت ماتت الأسطورة ، ثم يضع يده برقه على كتفها أنتِ واهمه لم يبقى لنا مكان هنا
ب لا يوجد حل وسط . . أنت البداية.
أ لا توجد باء بغير ألف .
ب دعني أموت هنا إذن وحدي . . دعني أفصل التصاقنا بمساحة ذكريات قديمة.
أ الحلول الوسط هي دومًا معارك النبلاء . لما لا نبحث سويًا عن وطن آخر تفور فيه أسطورتنا؟ ؟
ب أسطورتك أنت وحدك . .
أ سأموت لو كانت هذه هي رغبتك . سأحترق لو كانت هذه هي حقيقة ما كان .
باء تعترف وهى تبكي برغم ما كان وما زال يكون . . ألا أنني أفيض حبًا هل تعرف؟
أ نعم أعرف . . أعرف أنني أضناني البحث عن منقوصتي حتى وجدتها ذات يوم مدهش أشرقت فيه الشمس مرتين . . تقف بجوار قلبي ربما منذ ألفي سنه قبل أن أوجد . . واليوم وقبل أن تكتمل القصة لمنتصفها أجدني عاجز عن اكمال دوري فيها . .
باء تتحرك ببطء تمد ذراعيها ناحية الشجرة . . تحتضنها بعنف . . تنمو في الظل . . تتشابك الاذرع ثم تتحد . . يخرج من رأسها ألف رأس ورأس.
ألف صارخا أحتاجك بجانبي كي لا تموت الأسطورة . .
باء في صوت جماعي أنا دومًا بجانبك . لو نظرت حولك في أي لحظة في أي مكان ستجدني بجوارك.
أ كيف وأنتِ تتعلقين بهذه الشجرة البغيضة؟
ب إنها تاريخي وأنت الذي صنعته هل نسيت؟
أ بل أريد أن أنسى أنني أموت يا باء .
ب وهل تريدني أموت بجوارك؟
أ لن تموتين سوف تمنحيني القوة كي أقف صلبًا في وجه الموت فقط دعيني أقبلك.
باء تبدأ في الرقص ولا تبالي .
أ لن تستطيعين صنع بطل آخر فأنا آخر الابطال
باء تستمر في الرقص
ألف مستغيثا فكي العقدة . أزيحي الرغبة عن وجهي يا فاجرة.
ب استدعي الراوي ينهي مأساتك فأنا لن أفعل شيئًا.
ألف يبكى بحرقه مات الراوي وتركني وحيدًا أواجه مصيري بعبث تداعيات النص وبوحي التراث في ضميري فأنا الآن البطل والباعث والممثل .
يواجه الجمهور ويصرخ أخبروني ماذا أفعل ؟
ثم ينظر إليها بلهفة لو استدعيت الراوي ووجدني حيًا لقتلني أنا وأنت.
ب إذن استدعى ثوراتك ملهميك وجودك يا بطل يا ألف.
أ أنت ملهمتي وأنت ضريح ثورتي . ألا تعرفين؟

ب كنت أعرف.
أ ولماذا الآن لا تعرفين؟ .
ب لأنك لن تفعل .
أ رغم حبي.
ب ورغم عشقي.
أ ولما لا؟
ب ولما نعم؟
أ ليس ذنبي .
ب بل ذنبي أنا.
أ كانوا. . . .
ب وكنت. . .
أ كنت أحتاجهم.
ب وكنت تريدني. .
أ كلاكما.
ب بل أحدنا.
أ أنت.
ب ليس الآن.
أ تعذبينني.
ب لقد أخطأت.
أ واعتذرت . وقدمت قرباني .
ب لم أسامح بعد . وفر قرابينك.
أ سوف تفعلي ودون قرابين.
يتحرك نحوها . ويحاول أن يقبلها . .
ليت لي ألف فم كي أستطيع تقبيل كل رأس لك مرة واحدة.
باء بانفعال شديد أنت يامن راودت قلبي عن نفسه أحبك.
أ حينما كانت الشمس تشرق نورًا على أحلامنا صغارًا. وعندما سطع القمر أشعته الفضية على حكايتنا كبارًا كنت أنت سماء حياتي وشمسي الذهبية . ارتوائي في ظمأي وقصائدي فوق ورق من الأماني .
باء وقد سقطت من الشجرة وعاد لها رأسها الواحد وعندما يأتي المساء وأشتاق للشتاء . أتذكرك مع سقوط المطروفرحة الدنيا بالماء كنت فرحتي.
أ وكنتِ سعادتي .
ب كنت نوري.
ألف يقترب منها ببطء شديد وكنت قمري.

obeikandl.com

ألف وباء يقتربان من بعضهما ويلتصقان ثم يقبلان بعض ثم يقف ألف في مواجهة الجمهور ويتحدث انصتوا يخرج من صدره ورقه ويتلو ما فيها وقبل أن يقرأ يقول أعطاني إياها الراوي قبل أن ينسحب من النص وكتب عليها (تلمود من تراب الصبر)وأخبرني ألا أقرأها إلا عندما أقبل باء فانصتوا جميعًا ربما استطاع أحد منكم أن يكمل تأليف النص.

وتحركت رغمًا عنى ورغمًا عن العالم الواقف خلف ظهري . وأغلقت على نفسي باب التردد بلا رجعه . كم شجرة لا تنبت إلا الرماد تتناثر من حول الضيعة؟

تقاطعه باء يا مسكين إنها شجرة واحدة . هل جننت؟ هل لعبت خمر النشوة برأسك فتوهمت إنك سيد العالم؟

ألف لا يبالي بمقاطعتها ويكمل قالوا لو ذهبت إلى الحكيم قبل الظهر بقليل . وخبأت بعضًا من أشعة الشمس في يدك ذات الكف الذهبي سيخبرك الحكيم إن الشمس لن تعرف الظهر بعد الآن وسوف تنصرف . . قلت يا أهل المدينة إنني أنا من روى الأشجار الستة عند بابكم القرمزي .

تنفعل باء بشدة وتصرخ في وجهه , قلت لك إنها شجرة واحدة لماذا تصر . .

فجأة تتوقف باء وتنظر حولها فتجد خمسة أشجار ينبتون من الأرض . . يتسلقون الفراغ ويتفرعون غصونًا تتشابك إلى أعلى . ثم تقف باء كالبلهاء غير مصدقه تضرب كفًا بكف وهى تتمتم :

لقد أفسد ألف والمؤلف هذا النص إني منسحبة.

يوقفها ألف بشدة ويكمل إنني أنا من روى الأشجار الستة عند بابكم القرمزي . . رويتها بماء النهر تارة وبدماء الجنية التي تساكن النهر تارة أخرى . . أنا من قتل الخوف في عيونكم وبشركم ببعث فحولتكم أسفل عورة الجنية وأنا من أبى أن يعود إلى الشمس خالي الوفاض فأمهلتني الجنية أيامًا ستة لأحصد فيها كل أحلامكم منذ جئتم للمدينة , ولأنتزع من كل رجل فيكم شعرة من رأسه ومن كل امرأة منكم قطعة من لحم كتفها . . ومن كل وليد لديكم إصبع من يده فتحرقه الجنية عند النهر ويتصاعد الدخان نحو الشمس فينجلي الأمل وتنفك العقدة وتنزاح اللعنة وتسعدون يا أهل المدينة من بعد شقاء .

في هذه اللحظة بالذات يمسك ألف بيد باء ويتوسل إليها ألا تنسحب من النص . . من القصة التي هرب منها مؤلفها وتركها تتأرجح بين الممثلين تارة والجمهور تارة والعالم أغلب الوقت .

يواجه ألف باء منتصبًا بقامته وتنفرج أسارير وجهه الآن يا باء لم يعد لدينا غير هذه الخشبة التي نقف عليها . . أنا الإنسان الأول وأنت الكون . . أنا السيف وأنت الحرية . . أنا التاريخ وأنت الباعث والمتمم . فلنبدأ من هنا تاريخ العالم .

انظري أهل المدينة الملعونة يتدفقون يحدوهم الأمل في صنع الطموح .

باء مقاطعة : الطموح كلمة أظنها سقطت سهوًا من سيرة الشعراء التائبين . أين نحن والطموح يا ألف .

أ قال كافكا –الطموح هناك ولكن الرحلة انتهت –وأنا أقول يا باء إن الرحلة تبدأ وتنتهي ألف مرة في المرة الواحدة بينما الطموح لا ينتهى أبدًا . أنتِ طموحي يا باء. .

في هذه اللحظة التي ينبهر فيها ألف باكتشافه أناسًا آخرين موجودين معه على المشهد تبدأ باء بفضول بسرد مقاطع من التلمود (تلمود الراوي).

وتسمرت وجوه الصبية في بطن الليل . . وانتعشت الرغبة في رؤوس الشياطين . . وإذ تعود الحواديت أدراجها الموسمية . . وتقفل كل عجوز فمها ويتوقف الحكي والرقص على أعواد الحطب المستطيل وتنهمر من أعين المصابين بداء الصبر المزمن عبر التاريخ نظرات الحسرة على ذكريات مواسم القمح ودفء الفراش في ليالي البرد . وأكوام العث تأكل في العمر الرث .

يندفع فجأة أحد الصبية من ألف ويخاطبه :

سيدي سوف تموت المدينة وسوف يعود التاريخ من حيث بدأ لا يعرف لمدينتنا عمرًا ولا اسمًا.

أ يا فلان . قد أدركت هول المصيبة فلا تقصص رؤياك على أحد من أهل المدينة . . ثم يواجه الناس (أهل المدينة) الذين يتزايدون حوله .

هأنذا يا شر الناس أعود إليكم وترنيمة الخوف على لساني لست بطلكم المنشود . بطلكم انتحر بسكين الصبر ربما قبل أن يعرفكم وتعرفوه . . أما أنا فأواجه الموت مثلكم انظروا إلى هذه السيدة - يشير إلى باء - هي جنية التلمود حول عنقها تميمة الخلود كانت حبيبتي وكانت أمنيتي قبل أن تظهروا , قبلتها شفاء من مرض الدود ونظراتها كألف دعوة من دعوات الأتقياء . .

_باء تنظر لألف بدهشة يكسوها الفزع

أصدقت ما يحدث ؟ ؟ ؟ كل هذا خارج السرد إنها حدوتة حب فإذا كان المؤلف قد تركنا وذهب فلن أكون أنا مثل الماريونيت يحركها الريح . . سوف انسحب وأعود إنسانا . . وتبًا لهذا النص . .

ينفلق القمر الآن نصفين (القمر هنا هو ألف بنفسه) ويخرج من بين شطريه طفل وليد لا صرة له ولا عورة تبزغ الشمس من جبينه المندي ويفور الوعي من بين عينيه . . .

ب ماذا يحدث لك يا ألف برب السماء . من أنت الآن وما اسمك ؟ ؟

ألف في صورة الطفل يا سيدتي كل أسمائنا مستوحاة من اسم مدينتنا إن عرفته عرفت أسمائنا كلها . . واسم مدينتنا مشتق من . . .

باء مقاطعة: تبًا لك ولمدينتك . . في البداية كانت الشجرة التي أصبحت ستة أشجار. . والآن هؤلاء الناس الذين لا أعرف لهم أصل ولا قصة . . ماذا يحدث يا ألف ؟ ؟ دعك من هذا المزاح السخيف إننا نمثل فقط , نمثل وأنت الآن لا تمثل أنت تتوهم بأنك المؤلف .

هذا آخر إنذار إما أن نعود للنص وإلا سوف انسحب. .

الطفل انصتي يا باء لا تستطيعين الانسحاب الآن من اللعبة أو النص سميها كما تشائي . . أنت قلتها كلانا ماريونيت ومات من يحركها وانفرطت خيوطها وتشابكت أقدارها صلواتنا إذن واحدة لا يحركنا سوى ال. . . . .

ب سوى الريح .

الطفل بل سوى الثورة! ! لما لا تكون ثورة ؟ ؟

ب ضد من ولماذا ؟ ؟

الطفل ضد المنطق ومن أجل المنطق . . ! ! !

ب أي منطق هذا ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

الطفل فاليكن ما يكون . أصبحنا أنا وأنت المسئولين الآن عن حياة هؤلاء .

ب إذن لا تشركني معك في هذه اللعبة السمجة . .

الطفل لم يعد ذلك بالإمكان فالموت أيضًا أصبح يبحث عنك هنا أو في الخارج . . تذكري أنت في الخارج مجرد ممثلة أما هنا فأنت البطلة . أسطورة الخلود . تعويذة البقاء الآن لم يعد الانسحاب ممكنا قبل أن ينسحب الراوي أغلق باب المشهد للأبد علينا . . وعلى الجمهور . لا مفر لا بد من الاستمرار.

تنحني باء وقد استسلمت وتسأل ألف أو الطفل :

إذن أخبرني ماذا سيكون دوري في هذه الملهاة؟

الطفل فقط تفاعلي ولا تسلبيني رد الفعل وسوف تتصرفين بشكل تلقائي . . أعدك بذلك. .

ب إذن ما اسمك وما اسم مدينتك؟

كل أسمائنا مستوحاة من اسم مدينتنا إن عرفته عرفت كل أسمائنا . واسم مدينتنا مشتق من عصير الأشجار الستة وآخره الخوف والرعب من الآتي لمدينتنا .

مدينتنا مدينة الحكمة والجمال . . تنام في الليل فتنام الدنيا وتصحو قبل الشمس فلا يعرف العالم نورًا حتى تبزغ الشمس من بطن مدينتنا الحرة . .

ب أيها الصبي من أنت وكم عمرك؟

الطفل سيدتي أنا أول من اكتشف مدينتنا وأنا آخر من يرحل وراء أشعة الشمس . . عمري هو عمر مدينتنا ولدت في أول يوم أشرقت فيه الشمس على وجه المدينة وأنا باق بقاء السر في أعين الخوف . . اسمي شعائر صمت تتجلى وحيًا مقدسًا لكل أهل المدينة ما من سيدة إلا وتمنت أن أولد من رحمها وما من فتاة إلا وماتت عشقًا في اسمي وأقسمت بوسامة وجهي أن تقتل نفسها إن أنا لم أكن لها وما من رجل إلا وقدم كل أولاده قربانا من أجل أن آخرج أنا من صلبه . . سيدتي كل تاريخ المدينة ها هنا في رأسي كل أنثى في المدينة هي أمي وقرينتي وأختي كل رجل في المدينة هو أبي وخليلي وشقيقي أنا المدينة، والمدينة أنا معجزة أليست كذلك ؟ ؟

ب بل أسطورة بالفعل أسطورة . .

يعود الطفل مرة أخرى في صورة ألف ويخاطب الجمهور فلنصنع حضارة لأن الحضارة هي اللحظة التاريخية المنظمة التي لابد منها. .

سيموت من يموت ولكننا سوف نبقى هنا شواهد مجد تتحدى الزوال . .

أحد الجمهور يسأل ألف وما مصيرنا نحن معكم ؟

أ أنتم مثلكم مثل أهل المدينة البائسة مدينة الوهم متاهة النص . . أفيقوا تعالوا نقيم جسورا من اللغة والتفاهم فيما بيننا . فربما واجهكم نفس المصير. .

الجمهور وكيف نواجه الموت ؟

أ واجهوه بالحرية وبالحرب ضد الدهشة وبالهجرة نحو الوطن

الجمهور دعك من الوطن نريدك أن تكمل قصتك مع باء كي ننصرف .

أ لن تنصرفوا . . مصيرنا واحد موتنا واحد. .

كتب المؤلف هذا النص لأنه لا يعيش بيننا . لا يعيش عالم الدمى . . دماءه خيانة لوحدة هذا البيت أما الآن فكلنا ضمير واحد يهتف في حضرة التاريخ باسم الحرية . لوننا واحد طريقنا واحد.

الجمهور لسنا دُمى .

أ بل أنتم كذلك . الجمهور الذي يرى نصًا ولا يغير فيه ويقنع بمجرد الانفعال يصبح كالدمى أو أشد لعنة .

لن تنفك العقدة عقدة المدينة أو عقدتكم على السواء إلا عندما تعرفون إنني أنا الراوي وأنا أنتم وأنا السر وأنا المدينة وأنا الشمس . أنا المخلوق الأعم الذي يذوب في وجهه كل ملامح البشر كل ثوابت الوجع أنا العقاب وأنا الثواب .

الجمهور ومن هي باء إذن ؟ ؟

أ ألم تعرفوا أنها الحرية . إنها أنشودة الورع إنها الجنية إنها فتاتي المرحة إنها ربة الدار وسيدة الميراث إنها المحرك والباعث إنها ببساطة يا بلهاء الوطن البيت الوجود إنها النبوءة . عندما غابت الشمس التي تحرك خيوطنا أصبحت كتلنا هي الدعوة الأخيرة للخلاص . .

ب وإذا . . . . . .

أ وإذا ماتت الدنيا وقتلني الأمل في الانتظار وانتحر قلبي بين شفتيك . مخنوقًا ألملم نفسي وشراعي وأبحر صوب عينيك فأنت آخر أشتيتي وآخر قطرات الندى وسوف تعرفي !!!

أ ، ب لو أنني أملك حياتي لك أهبها . . لو أنني أملك مصيري لك أمنحه لو أنني لو أنني. . .

يتجهان بقوة ناحية الراوي الذي ظهر فجأة وبدأ في التبول على شجرة من الأشجار الستة . . يمدان ذراعيهما نحوه وقد اتحدا في جسد واحد له رأسين . . يخرج الراوي سكينا

من قميصه وزنادًا من حلمه . يصوب ناحيتهما . . يقطع ذراعيهما ثم يخرج لسانه رعبًا, ألف وباء ينموان لهما ألف ذراع وذراع كلما قطع ذراع نما بدلا منه ذراعين حتى امتلأ المكان لآخره بالأذرعة يحتميان بالشجرة الأم حتى يصنعان ظلها , يطبقان بأذرعهم حول رقبة الراوي يخنقانه في عنف وتحدي ورغبة في الانتقام ليموت أخيرًا. .

ثالثًا ختام :

تحركت الشمس ناحية الغرب . . وما بقي من أشعتها سوى خيطان ذهبيان . يتدليان منها كحبال المشنقة . . في أحدهما كان ألف وفي الآخر كانت باء ثم اختفت الشمس وراء ظلها الأرجواني تبتلع ذيول النور في تثاؤبها . . ورحيلها نحو الغرب الذي يحتضنها بشوق . . ناشرًا أذرع الظلام . . تطوق الشمس . . لتختفي تدريجيًا في حضنه. .

وتختفي معها كل الخيوط . . كل الأقنعة وكل الأشياء . .

وعلى الأفق وعلى امتداد الفالق الزجاجي كانت ثمة دماء تسقط فوق النهر. وترسم للسماء شمسًا . تضئ الكون بشعاع من ذهب . يخترق الأفئدة . ويؤلف فيما بين الباقي منها على قيد الحياة وفي سكون المشهد يفيق رجل من نومه يشعل مصباحا زيتيا. . يطعن نوره قلب الظلام في صمت. . يتجه ناحية الباب يطرقه بثلاث طرقات . . تخرج يد النادل من أسفل الباب . . يداه أحداهما تمسك بدمية مشنوقة على شكل حرف ألف والأخرى تمسك بتمثال مقتول على شكل حرف باء تتدلى الدمية الألف من أعلى نقطة في طرف التمثال الباء . وتلتف حول ظهر التمثال . . لتطعنه بنفسها في قرار الظهر الأسفلتي نصل على هيئة الألف . . ثم يستقر أخيرًا متدليًا مشنوقًا ميتًا . .

يصرخ الرجل . ألف طعن باء . .

ثم يصرخ النادل أخيرًا باء شنقت ألف .

يعود النادل ليختبئ خلف الباب الذي لا يفتح إلا بطرقات ثلاث . . ويعاود الرجل نومه . . ثم يطمس نور المصباح الزيتي بفعل القصور الذاتي لقطرة ندى سقطت حرة فوق الأرض العدم . . . .

وفي صباح اليوم التالي . . ورغم حرارة الجو وزمهرير شمس يوليو . . امطرت السماء بدون غيوم . . قطعًا ثلجية . . غريبة الشكل في كل مكان تسقط على الأرض ولا تذوب .

قطعًا على هيئة حرفين اثنين فقط

ألف وباء

. . . . . .

إلى هنا يا سادة تنتهي القصة

وقد وعدتكم بألا أعود

ولكنني أعود هنا بمنطق آخر لأسألكم سؤالا أخيرا :

من منكم ألف ومن منكم باء أم هل كلكم ألف وباء في آن واحد. ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ .

obeikandl.com

صندوق النذور

(ثم فاتني أن أسأل نفسي وهل أنا أيضًا فاسد تحجر الدمع في مقلتي فعرفت أن الضعف وقله الحيلة والمسكنة هم جنود غير مرئيين للفساد نعم أنا فاسد)

بمجرد أن توقف الميكروباص في محطته الأخيرة وأعلن السائق بصوته الجهوري مصر يا حضرات اللي ما حاسبش يجيب الأجرة .

وسهير كاد قلبها أن يتوقف أمسكت في يد خالها السيد حسنين وراحت تقبل رأسه في امتنان وتقول له: الله يخليك يا خال كان نفسي أزور مصر من زمان, فيأخذها خالها الوقور في حضنه ويربت على كتفها قائلا : امسكي في جلابيتي يا سهير مصر دي واسعة يا بنتي وممكن نتوه فيها. ترجلا من سيارة الميكروباص إلى حيث ساحة الموقف الضخم الذي تتلاقى فيه وتنطلق منه كل مركبات الأجرة من العاصمة إلى بقية أعضاء الجسد العجوز وكأنه القلب الذي فيه تتجمع الدماء بعد رحلة طويلة في أقاليم الأركان الأربعة سهير ذات الأحد عشر ربيعا تبدو في لفة الإيشارب الذي أحاط بخصلات شعرها الفاحم السواد الشديد النعومة كجنية صغيرة انبثقت من عنبر الحواديت إلى رحابة الواقع الفسيح . ردائها البسيط المسدل حتى أخمص قدميها تفوح منة رائحة زفارة استخدام مساحيق الغسيل اليدوية الرخيصة .توقفت عند محل يقدم عصير القصب لزبائنه لم تألف مثل تلك الحوانيت في قريتها الصغيرة ترجت خالها أن يشتري لها كوبا باردًا يلطف من حرارة القاهرة التي استقبلتها بلفحة موجه حارة أغسطسية محملة بعوادم الغازات والتلوث الذي ملأ هواء العاصمة .

طيب يا سهير بس مش عاوزين نتآخر يا بنتي لو وقفنا قدام كل محل مش هانروح مشوارنا في الميعاد , وكمان عاوزين نرجع البلد والدنيا لسه نهار يا بنتي .

تمسك بيدي خالها وكأنها عروسة مولد شقية, بينما رسمت رشفات كوب عصير القصب شاربًا كستنائي اللون فوق شفتاها أكسبها مزيدا من شقاوة عفوية وكانت نظرات خالها لها تشي بشيء من الحيرة والخوف على شيء لا يعلمه إلا الله .

انحشر الجسدين في علبة صفيحية لسيارة ميكروباص أخرى تقلهما إلى حيث وجهتهما النهائية في القاهرة . . تنظر من نافذة السيارة مشدوهة إلى المحلات والشوارع والمارة بأزيائهم الغريبة التي لم تعتدها في قريتها الصغيرة النائية البعيدة عن كرنفال الصخب وضجيج الألوان .

لم تنتبه إلى ذلك الشاب الذي جلس بجوارها في غفلة من خالها الذي سرق النعاس وعيه المتعب وراح الشاب يمد يده على بعض الأماكن الحساسة في جسدها الذي لم يعرف من تضاريس الأنوثة سوى بضع قطرات حيض لم تنتظم بعد , ولكن الشاب الأهوج فوجئ بصد عنيف من سهيروكادت تعض يده الآثمة لولا أن تنبه الجميع وصحا خالها من نومه وأصركل من في السيارة على طرد الشاب إلى خارجها .

أخيرًا وبعد رحلة عناء طويلة وقف الإثنان أمام الباب الضخم المذهب للجامع القديم خلعا نعليهما وترجلا في الممر الطويل الذي ينتهي بساحة دائرية يتوسطها ضريح تعلوه قبة .

السيد حسنين يمسك بيدي ابنة أخته سهيرويطوف بها سعيا حول ضريح التبريكات بينما سهيرآخرجت من جيب صغيرفي ردائها الريفي دمية مصنوعة من الكتان ومحشوة بالقطن من ذلك النوع الذي يصنعه القرويين لأطفالهم وكانت حريصة على أن تنال دميتها المحبوبة تبريكات الطواف حول الضريح .

راح خالها يتمتم بعبارات غيرمفهومة وعندما استبد بهما التعب جلسا في ركن حول الضريح حيث آخرج الخال مسبحته وراح يسبح , بينما سهيروضعت دميتها على حجرها وأخذت تصفف لها شعرها الكث المصنوع من بقايا النفايات القروية وبعض القش (عندما جاءته البشارة وعرف أنها أنثى أسود وجهه فدخل على زوجته في فراش مخاضها وبصق على وجهها ثم خرج ولم يعد .حرصت السيدات المصاحبات لعملية الولادة على غسل المولودة في إناء مليء بدم الوطاويط حتى لا ينمولها شعرزائد غيرمرغوب في أنحاء جسدها وتصبح ملساء ناعمة يشتهيها الرجال ثم ماتت الأم بعد الولادة بيومين.

عاشت البنت في كنف خالها الحبيب لم يبخل عليها بشيء فالخال كما يقولون والد , ولكن بعد سنوات ضنك أصبح الوقار مهددًا, وأصبح الخال محاصر بالديون وعتمة الفقر.).

مد يده على سيجارة الحشيش فاكر يا شيخ حسنين أول مرة شربت فيها حشيش كانت في رحاب الشيخ الأزهري الجليل يوميها الراجل قال الحشيش مش حرام بس أنا قلتله تعرف تشربه يا مولانا قدام الناس في الجامع وأنت بتقول خطبة الجمعة ؟

بصلي ونفخ في وشي وقال:

قوم انجريا نجس اطلع برة أنت عاوزنا ننجس بيت الله الطاهر.

حسنين لا يزال معلقا عينيه على تجويف قبة الضريح الداخلية والذكريات تتراءى له أمامه دفعة واحدة دون أن يقدرعلى منعها من التجوال في أروقة وتلافيف أنسجة دماغه, واستمر المشهد أمامه مصحوبا بروائح البخور المختلطة بروائح نفاذة لجوارب المصليين والنائمين حول الضريح, ثم جاءت سيدة تضع على رأسها طرحة سوداء تداري القليل من شعرها بينما نصفها الأسفل مكشوف حتى ركبتيها حيث لم تستطع جيبتها القصيرة جدًا في أن تكسي لحم ساقيها الأملسين ووجهها متعلق بأضواء النيون الخضراء

داخل الضريح عيناها تبكي ولم يعرف أحد مسألتها التي أرادت أن تحل بشفاعة العارف بالله؛ إلا أن البعض تدخل سريعًا لتسليك طرف ردائها القصير عندما انحشر بين أحدي زوايا الحديد المدبب الذي يحيط بالضريح وانصرفت مسرعة , ثم ساد صمت لم يقطعه سوى صوت نقرات حامل صندوق النذور وهو ينبه النائمين في المكان إلى وضع بعض النقود في الصندوق من أجل زيادة البركة. آخرج الخال بعضًا من العملات المعدنية ووضعها في الصندوق , ولكنة لاحظ أن الرجل مد يده بطريقة سحرية داخل الصندوق وأخذها وعندما لمح نظرات الاستغراب في عيون الخال ضحك وقال: أصلها ما بنتفعش يا حاج بغيرها بعد كدة بفلوس ورق ثم انصرف مسرعا داخل إحدى الغرف السرية حول الضريح , وانطلقت جوقة من الخدم تعيد ترتيب المرور وتبعد الغير مرغوب فيهم من الزوار فلن يبقى إلا المقربين فقط والمحظيين من الشيخ الكبير الجليل الذي حضر ليقوم بتبخير الضريح بنفسه وهو الإجراء اليومي الذي لم يمل تكراره أبدًا . وعندما أبصر الشيخ الجليل سهير ترقد في حجر خالها نادى على أحد حراسه ومال عليه محدثًا إياه وبعدها بقليل خلت ساحة الضريح من الجميع عدا الثلاثة قوم يا حسنين مبارك بإذن الله .

مد الشيخ يده ليتلقفها حسنين في سعادة وانتشاء ويقبلها

اللي اتفقنا علية مش كده

أنا مقدرتش أخالف أوامرك

مجبور يا حسنين بإذن الرحمن وطلبك مقضي يا ابن الحلال .

ادعيلي يا مولانا

تروح تكلم العمدة بكرة كل الأمور ها تبقى تمام

طيب .

وأنت ها ترجع البلد لوحدك يا حسنين .

استيقظت سهير من غفلتها التي استهلكت سويعات من عمر الزمان وكأنها ولدت من جديد في رحاب القاهرة الفسيحة طفلة قروية تحولت إلى أنثى في لحظات جهنمية , حاولت جاهدة سرقة تلك الأنوثة التي لم تكتمل بعد كانت لا تزال تجلس القرفصاء في حجر خالها نظرت إلى وجهه الذي تألفه جيدًا اطمأنت أنه نفس الوجه فقط بعض تغيرات الانفعال المؤقتة لكنه نفس الوجه الصبوح منبسط الحاجبين نظر إليها وابتسم ثم أخذها في حضنه قائلا :

كله إلا أنت يا سهير كله إلا أنت يا حبيبتي .

لم تفهم سهير كلمات خالها لكنها عندما عادت إلى قريتها الصغيرة كانت الوجوه تقابلها بترحاب غير عادي وتشير إلى خالها حيث صندوق كبير ملئ بالنقود وجدوه في حجرته الضيقة .

تجمع أهالي القرية والقرى المجاورة لرؤية المشهد المهيب كانت السيدة الفاضلة تبخر ضريح شيخ مجهول وعندما بدا شعاع من النور يخرج من القبر تلفتت السيدة

العجوز البكر المصون للأهالي المتجمعين حول الضريح قائلة لهم :

إنه خالي !

لأنه رفض ذات يوم مرفهو اليوم يحصد النور

انفض الجميع وخلا المكان حينما أضيئت شمعة يتيمة وراء الضريح رسمت ظلا هائلا على الجدار لرجل وطفلة ينتظران دورهما لإتمام سعادة صاحب المقام.

obeikandl.com

أرض المنكر

عندما وطئت قدماه أرض الأسرار تلك جثا على ركبتيه وخبأ رأسه وراء تلة رملية ليشاهد الموكب في صمت دون أن يشعر به أحد من سكان تلك الأرض . يرفع رأسه في حذر وخوف ويفتح عينيه في لهفة وشوق . وقبل أن تفتر همة الترقب والفضول بدأ الموكب يتراءى له أمام عينيه الواحد تلو الآخر. الأقدام تدب بخطواتها الثقيلة على بقايا الرمال الطفيلية التي لفظها النهر بعد انحساره . الأطفال في المقدمة وكل طفل يمسك بعصا طويلة طرفها الآخر يمسك به أحد العجائز. السيدات تضع فوق رؤوسهن الملابس وبعض الأواني بعد غسيلها في مياه النهر.

أما الرجال فكانوا يحملون على ظهورهم أعواد الحطب والقش وبعض جلود الأيائل بعد سلخها عنها وغسلها من الدماء وبقايا اللحم في مياه النهر.

الشمس تنادى أشعتها إيذانا بالرحيل, وعلى الموكب الإسراع حتى لا يخيم الظلام قبل الوصول إلى البيوت المخروطية المصنوعة من قش الأرز عشرات العصيان والخيزرانات الرفيعة يقود بها الأطفال العرايا الذين يعبثون فيما أفرزته Hانوفهم من مخاط يقودون أجدادهم وآبائهم وامهاتهم وخالاتهم و. . و. . و. . ممن فقدوا نعمة البصر بسبب ذلك الطفيل الذي يسري في مجرى النهر ويتسلل إلى أجسامهم ودمائهم أثناء مخالطتهم لمياه النهر في أعمالهم اليومية ويتناسل في عيونهم وتفقس ديدانه في عدسة العين فيسبب تلك العتمة ويسلبهم البصر فلا يرون إلا بعيون أطفالهم الذين لم تعتم قرنيات عيونهم بعد ولم يشوهها ذلك الطفيل النهري الذي يراعي لحسن الحظ براءة الطفولة .

وحين يكبر الأطفال ويصلون إلى سن الرشد تكون عيونهم قد اعتمت وآباؤهم إما قد ماتوا وإما قد منعهم هرمهم وعتي ما بلغوه من عمر من ممارسة الأعمال الشاقة اليومية , فيأتي الدور على أطفال الجيل الجديد ليقوموا بنفس دور أسلافهم وهكذا تكتمل دورة حياة العتم ودورة حياة الطفيل النهري في الأجيال المتعاقبة .

فوجئ بيد حانية تربت على كتفه في أثناء انغماسه وانشغاله بالمشاهدة والمراقبة نظر في اتجاه اليد ثم جذبها ليجلس صاحبها بجواره ويضع يده على فمه هامسًا له :

لا ترفع صوتك يا غسان سوف تخيفهم أنت تعلم أن من يفقد البصر يصير أكثر حساسية اتجاه أي صوت مهما كان خافتًا .

لا تخف يا سيدي أردت فقط الاطمئنان عليك بحثت عنك في الدار فلم أجدك ولم أجدك أيضًا في المزرعة فخمنت أنه من الجائز أن أجدك هنا .

وماذا تريد يا فتى ؟
لا شيء أردت فقط الاطمئنان عليك كما أخبرتك .
الآن فقط يا غسان عرفت الحقيقة !
أية حقيقة يا سيدي ؟
حقيقة أرض الأسرار.
بل أرض المنكر يا سيدي .
لذلك يتزاوجون بمجرد أن تحيض فتياتهم ويبلغ فتيانهم, حتى ينسلون سريعًا, فالعمى يهاجمهم بسرعة ولا وقت لديهم.
ولكنهم بذلك يسمحون للطفيل بأن يتكاثر معهم أيضًا لماذا لم يبحثوا عن شفاء ؟
إنهم لا يريدون الشفاء لأنهم موقنون بأن شفائهم سوف يعجل بيوم نهايتهم وهم بعد غير مستعدون لذلك .
أية لعنة تلك التي تخطف البصر وتقتل الإرادة ؟!
إنها لعنة الوجود في أرض المنكر يا سيدي .
ولكن أخبرني يا غسان لماذا لم يصبك الطفيل النهري ؟
لقد أعطاني سيدي الأوروبي الذي كنت أعمل معه قبيل مجيئك المصل الواقي .
ولماذا لم يفعل ذلك المعتوه نفس الشيء مع بقية بني جلدتك؟
حاول ولكنهم رفضوا يا سيدي ألم أقل لك أنهم يخافون التطور .
ولكن معنى ذلك يا غسان أنهم لن يشفوا أبدًا .
أن الطفيل في المقابل يمنحهم وفاءً من نوع نادر.
ماذا تقصد يا فتى ؟
إنها علاقة مصلحة معقدة يا سيدي لا أظن إن العقل الأوروبي سوف يستوعبها بسهولة . معذرة يا سيدي إن كنت قد تجاوزت حدود اللياقة .
لا أبدًا يا غسان ولكن بربك أفهمني كيف تكون هناك علاقة مصلحة بين المرض اللعين وبين البشر ؟
إنه يتغذى على عيونهم فيسلبهم البصر وفي المقابل يفرز في أجسادهم مادة عضوية غريبة تعجل وتزيد من خصوبتهم إناثًا وذكورًا فيضمنون بذلك استمرار تناسلهم واستمرار وجودهم في أرض المنكر التي لا تمنح أسرارها إلا لهم بعد أن تسلبهم البصر.
والبصيرة ترى من سلبهم البصيرة ؟
تلك لم يسلبها أحد منهم وإنما تنازلوا عنها طواعية فبماذا تفيد البصيرة في أرض المنكر هذه إلا أن تزيدهم عذابًا وقهرًا .
وبماذا سوف يفيد وجودنا هنا بمعداتنا وأبحاثنا وعلومنا المتقدمة إذا كانت الإرادة في الشفاء مفقودة يا غسان ؟
هذه الأرض لا تحتاجكم لتعالجوا ما بها من أمراض وإنما لتقضوا على ما بها من

سكان ولتبدؤوا عهدًا جديدًا بعيدًا عن التخلف والإذعان .

كيف تقول هذا الكلام يا غسان أليست هذه أرضك وهؤلاء هم بنو جلدتك ؟

نعم يا سيدي هم كذلك , ولكنهم أصبحوا مثل اللعنة التي يجب التخلص منها صدقني لا فائدة منهم حتى ذلك النهر الأزلي لم يستوعبوا قيمته وحيويته ولم يفهموا منه إلا ما يشبع نهم عشقهم للخرافة .

ولكنك بذلك تخون نفسك .

لا يا سيدي لقد تجاوزت عذاب الضمير منذ أمد .

أنت غريب يا غسان .

هذه الأرض هي الأغرب . لقد حدثني جدي عن رجل عاش في هذه البلاد منذ فترة بعيدة عندما كان جدي لا يزال صبيًا صغيرًا وقبل أن يداهم طفيل العمى سكان البلدة .

وما علاقة هذا الرجل بما نراه الآن ؟

لقد حاول جاهدًا أن يفيق هؤلاء الناس من سُباتهم وينبههم إلى أنهم إذا ما لم يصونوا نعمة الخالق في أرضهم التي كانت لا تزال بعد جميلة فإن الدمار آتٍ لا محالة .

وماذا حدث بعد ذلك ؟

اتهموه بالجنون ومات كمدًا , مات حسرة يا خواجة .

هذه أول مرة تناديني بالخواجة يا غسان .

أنا آسف يا سيدي إذا كنت قد ضايقتك .

لا أبدًا ولكن لك أن تعلم أنك أيضًا خواجة بالنسبة لنا .

وهل هؤلاء أيضًا خواجات بالنسبة إليكم يا خواجة ؟

هل قرأت لويل ديورنت يا غسان ؟

للأسف يا سيدي انتهت وظيفة القراءة لدينا منذ أن هاجمنا الطفيل النهري .

كان يقول فيما معناه أن الحضارات العظيمة أو حتى تلك الغير عظيمة أحيانًا لا تنتهي باحتلال خارجي يجني ويقطف ثمرة أبدًاعها أو خيرات اراضيها ويحتلها وإنما بسبب طغيان وعزلة تلك الحضارات فهي تنهي نفسها بنفسها. . . .

ذلك يتوقف على من يمنح وصف حضارة للآخر فالغالب أن الآخر يكون متحذلقًا وربما يعني بحضارة ما تلك الملاحظات الشيقة التي يدونها في دولاب مذكراته عن غرائب الأمور التي لم تعد حضارته في حاجة إليها .

لا أعرف يا غسان إن كنت سوف تفهمني لكنني أرى في هذه الأشياء البعيدة عن الحضارة هنا سيرة الإنسان الأول أو صيرورة الإنسان الأخير وربما يأتي يوم يأتي فيه أحفاد أحفادك إلى بلادنا ليروا نفس المشهد ويقابلوا غسانًا أوروبيًا يحكي لهم ماذا حدث مصمص غسان شفتيه وانتصب واقفًا يقضي حاجته في النهر بينما بقي الرجل المراقب يسجل بعض الملاحظات في دفتره .

غابت الشمس ورحلت إلى أفق آخر يطل على بشر آخرون ويمنحهم أملًا وسعادة

ورغبة في الحياة . . وأظلمت الدنيا على أرض المنكر وجثم الليل على عروشها الخاوية فأردا أطرافه الداكنة لتنشر الظلام في كل الأرجاء وتسلب ما بقي من دفئ الوجود المختبئ داخل قرنيات العيون المعتمة . . واستمر النهر في رحلته غير عابئ بمصير هؤلاء الذين يساكنون على بعض شطآنه مستمرًا في جولته الأزلية ربما وجد أناسًا يستحقون أن يمنحهم شيئًا من هيبته وعظمته وعطائه اللامحدود.

obeikandl.com

اللعبة

يوميًا وقبل الشروق بقليل يُخرِج تلك الكراتين المخبأة تحت فرشته يطمئن على ما بداخلها ثم يعيد غلقها بإحكام . يوقظ ابنة الصغير ويبدئا سويًا رحلة الخروج من سرداب الفجر إلى ضوء نهار الرزق . في نفس المكان وعلى ذات الرصيف يقوم الولد الصغير برص اللعب بعد أن يكون الأب قد أعاد ضبط البطاريات ولف الزنبرك وتنظيف اللعب من التراب العالق عليها يا ولد هذه لعب أطفال صينية الصنع إذا وقعت على الأرض خربت كن حذرا إنها مصدر رزقنا الوحيد .

يجلسان حول لعبهما الرديئة يتقاسمان رغيف خبز حمصته الشمس وأكلت أطرافه فطريات سوء التخزين ,ينتظران زبون قد يسعد يومهما البادئ كالمعتاد مبكرا جدًا ,تلك البيوت القديمة التي يسكنها أناس قليلو الحظ هجروها بعد أن تدخل رجل ذو نفوذ وقام بشراء الأرض المقابلة للرصيف ليبني عليها حيًا راقيًا كبيرًا يسكنه علية القوم وأما السكان الأصليون فقد فرحوا ببعض التعويضات الزهيدة وهجروا بيوتهم للأبد .

على مدى سنوات وهو يبيع لعبه لأطفال تلك المنطقة التي كانت فقيرة قبل أن يزحف عليها عمران الحضارة كانت لعبه تناسب هؤلاء البشر ترى أتناسب السكان الجدد بأحلامهم المتسعة وطموحهم اللامتناهي وملابسهم الأنيقة. في كل الأحوال فالزبون دومًا على حق يقلب البضاعة يفتش فيها ينتقى الأفضل يشتم ويسب ويحاول انقاص الثمن لكن المهم أن يدفع أخيرًا أي شيء ليتحول هذا الشيء إلى طعام بسيط ولعب جديدة لتستمر دورة حياة العرض والطلب ترى هل يأتي من يعيرنا بألا نظرات ابنه تلهمه الإجابة

ليس لنا مكان آخر من خرج من داره قل مقداره وهل نحن لدينا مقدار أساسًا هكذا حدثته نفسه في لحظة تراشق حظه بواقع تغير كثيرًا مع تحولات أزمنة أفضت على ذات المكان طقوسًا جديدة لم يألفها بعد .

كان الصبي مهمومًا بتلك اللعب التي يقوم برصها وحملها دون أن يستمتع باللعب بإحداها وكان كلما همت نفسه وراودته طفولته (المذبوحة على سفح شظف العيش) بأن يمد حلمه ليلعب بإحدى اللعب الرخيصة تلك نهرته نظرات أبيه القاسية ومنعت جرأة شعوره من اقتراف ذنب اللهو البريء .

ليست لنا يا ولدي أننا نحملها نبيعها نراهم وهم يلعبون بها لكننا ممنوعون من اللعب بها .

سليقة واقع ورث وقاحة ماضٍ كئيب .

أمر ولده بتغطية اللعب بكيس مقوي حتى لا تؤثر حرارة الجو على البلاستيك المصنوعة منه فيخرب قبل بيعه .

ألا يوجد أحد قرر فجأة أن يجرب اللعب مع الرداءة ليتمرد ولو قليلًا على نمط الحياة المرفهة ولو على سبيل التجربة العابرة

يا أبي وفر على نفسك العناء .

لا يوجد على الفرشة طعام ويجب أن نبيع قطعة واحدة على الأقل لنضمن غذائنا البسيط. .

لولا معونات جيراننا الطيبين لكنا متنا من الجوع مرَّ شهر منذ أن ابتعت بكل ما لدي من تحويشة هذه اللعب من تاجر الجملة بأحد الأسواق الشعبية ولم ينقص عددها حتى الآن يا له من حظ.

مرّت سيدة مع ابنتها الصغيرة جذب أنتباه البنت الصغيرة إحدى اللعب المرصوصة قابلها الصبي بترحاب وآخرج لها اللعبة أشاحت السيدة بيدها للصبي في إشارة لعدم رضاها آخرج الصبي لعبة أخرى وأخرى حاول باستماته أن ينال رضاها كانت البنت تبكي والصبي في حيرة حتى آخرجت شيئًا من حقيبتها باهظة الصنعة ووضعت بعض النقود في يد الصبي وانصرفت مسرعة لكن الصبي ركض مسرعًا ليلحق بالسيدة وارجع لها نقودها قائلًا:

لا نأخذ نقودًا إلا بعد بيع اللعبة خذي نقودك يا هانم

رمقته السيدة بنظرة استعلاء واستعادت نقودها قائلة :

فقر وعنطزة !!

عاد الصبي لأبيه خالي الوفاض وقبل جبينه البارد رغم حرارة الجو.

لا تحزن يا أبي ربنا كبير.

سويعات مرّت والأب وابنه ملتصقان في أحضان لعبهما التي زحف عليها غبار ما خلفته الحفارات الضخمة التي تضع أساسًات البنايات الكبيرة في الحي الراقي المقابل للرصيف .

الأب وابنه وسط لعبهما يبدوان كأنهما تمثالين من البلاستيك لا يختلفان كثيرًا عن تلك الدمى التي يبيعونها للأطفال الفقراء الذين لم يعد لهم وجود في هذا المكان

يبدو أننا الفقراء الوحيدون هنا يا أبي

لن يأتي أحد

لن يأتي أي أحد

تعلقت نظرات الأب بالسماء راقب الصبي وجهه ومد يده على إحدى اللعب وعندما لم يرى نظرات عتاب من والده أيقن أن باستطاعته اللعب بها دون خوف من لوم والده.

طبقه وسطى(جزء من سيرة ذاتية)

لأنه كتوم أكثر من اللازم؛فقد نسي مع مرور الزمن أن ينطق اسمه؛لأنه حذر أكثر من اللازم.فقد ضل عن طريق بيته وهو يحاول تضليل الآخرين عن مكان مخدعه؛لأنه حريص أكثر من اللازم أصبح أخيرًا وحيدًا لا يعرفه أحد .

رسالة إلى صديق

حين بدأت ذاكرة الأماكن تتشكل في وعيي كانت رغبة الفضول قد سبقتها حول ما يمكن أن تطاله أطراف الفهم لدى وأنت تعرف أن الأماكن كي تبقى أطول في الذاكرة تحتاج لقليل من الاحتفاظ ببرود الاعصاب لتحد من لهفة التعرف سريعا على أماكن جديده قبل أن تكتمل رائحة الأماكن الاقدم وتأخذ مكانها الطبيعي حفرًا واضحًا يوشم الدماغ. كانت أماكني محدودة بين مدرستي وبيتي وكل تفاصيل العالم المدهش هي ما يقع بينهما في طريق ذهابي وإيابي يا لها من ذكريات طفل معجزة هههههه المشكل الحقيقي هنا يا صديقي إنني أكتب عن طفولتي بعد أن تجاوزتها بأمد كنت أتمنى لو أنني استطعت التدوين وقتها كم كانت ستكون صادقة وطازجة وعفوية دونما رأوا عارف وشاخص لبواطن الامور يفسد دومًا لهفة الترقب لدى القارئ لأنه أضاف لطفولته الجاهلة سنوات من المعارف اللاحقة فأصبح طفلنا هنا مجرد شخصية وهمية تنوب بالوكالة بطلنا المغوارلكن على أية حال لعل السرد يصلح قليلًا من اعوجاج الأنا أو لعله يفضح أمرًا يحرج الأنا فتتقى الله وتترك الامور كما هي دونما عبث في تفاصيل دورة حياة كائن رمادي .

كانت امي حريصة رغم انهماكها الجاد في عملها أن أحظى أنا وشقيقتي بحظ أوفر من تعليم فني مرهف حرمت هي منه لكنني كنت أتمرد على تعلم الفن في جو من الجدية والصرامة فأنا شخصية ذو مزاج والمزاج والجدية لا يجتمعان وأمي كانت نموذجا للجدية حرمت أمي من ذلك المزاج نتيجة لتعاليم دينيه وأعراف خاصة تحتفى احتفاء لامحدود بولائم الوظائف المرموقة في سلم الحكومة ها قال حكومة قال.

لا بأس تربت طفولتي في أحضان معلمتي المصرية المسيحية تعلمت منها الكثير من طقوس الملبس والاتيكيت لكنني كنت أمرق من خلال تلك الطقوس غير مستمتع ,فلا وقت للمتعة لأن كل ما أتعلمه يجب أن يوظف سريعًا لمهارة دراسية تؤتي ثمارها في أسرع وقت؛ ليقطفها والديا فِخارًا وافتخارًا بابنهما النابه إنها حقًا برجماتية أبويه .

شوكة في يدي اليسار وسكينًا في يدي اليمنى لا قطع ستيك الاسكالوب وأنا أستمع في الخلفية لمقطوعه ساحره لشوبان (لم أكن أعرف وقتها إنه شوبان عرفت ذلك فيما بعد)على سفرة تؤدي في نهايتها إلى جهاز بيك أب قديم كانت امي تستخدمه لتدريباتها الصوتية حيث كانت معلمة إشارة لذوي الاحتياجات الخاصة من الصم والبكم لكنها بعد أن تجاوزت مدة الدراسة بنجاح أصبح الجهاز مستعدًا أخيرًا لتشغيل أسطوانات موسيقية قبل أن يعطل في النهاية ويمنعني من هذا السحر ردحًا من الزمان.

ماذا لو أنني تمردت قليلًا على ميعاد غذائي المقدس أو نومي في حضن شراشف الحرير في غرفة نومي المستقلة كان ذلك التمرد ترفًا غير مسموح لي بمجرد التفكير به فأنا قد خلقت لمهمة مقدسه . فضروريات الحياة لدينا أربعة الماء والهواء ويأتي قبل قضاء الحاجة مس التفوق معلمتي المسيحية التي تتقاضى راتبًا من أبي نهاية كل شهر كنت أسترق النظر خلسة لظهرها الناعم الاستوائي عندما تنحني فينكشف جزء منه أعلى ارداها حين ينطوي بنطلها الجينز كنت أتمنى لو إنني استطعت أن ألمس ظهرها ولا أعرف إن كان ذلك رغبة جنسية مبكرة لدي أو مجرد حب استطلاع برئ فأنا لم أكن بعد قد تعرفت على فرويد ولكنني كنت دومًا أعقد مقارنة بينها وبين جسد خادمتنا الريفية تلك ناعمة مخملية وهذه خشنة قاسية؛ لكنهما الاثنتان في النهاية سرداب أنثوي يدعواني مجانًا للدخول فيه دارسًا ومتعلمًا ومستمتعًا.

خافت أمي عندما كبرت أن أترك غرفة نومي وأذهب لأنام في حضن خادمتنا الريفية الجاهلة خصوصًا وأنها كانت في سن حرجة فقامت بطردها شر طردة.

ادخرت أخيرًا مبلغًا صغيرًا من مصروفي اليومي اشتريت به أصبع روج أردت تقديمه هدية لمعلمتي. كنت أود لو أنني سرقت مبلغًا ضخمًا لأشتري لها نوعًا غاليًا كالذي تستخدمه أمي لكن هذا ما طالته يداي .كم كانت معلمتي فرحة بهديتي البسيطة ذهبت لأضع أسطوانة شوبان فقالت لي: لا هذه إحدى ليلياته تسمع في فناء الليل ,دعك من الموسيقى الآن ثم طبعت على وجنتي قبلة لازلت حتى اليوم أتحسس حرارتها وكأنها بطزاجة الأمس , وكالعادة داهمتنا دروسنا ويومياتنا الروتينية في أحضان الكتب وبقى فقط حوار ضمني من خلال العيون نعم كانت معلمتي المسيحية هي أول حب في حياتي حتى قبل أن أعرف معنى أن يشاطر المرء مشاعر ما اتجاه أنثى .

الرسالة الثانية :

مُقبلات الطعام هي فن مستقل بذاته في تصنيعه وطريقة تقديمه وأسلوب تناوله يا سيدتي لا شأن لي بذلك فأنا لست أرستقراطي. إذًا ماذا تريد يا فتى أنت ابن ناس محترمين وشكلك شكل ذوات ؟

لا أعرف لكنني أريد أن أتذوق طعم شفتيكِ .

وبالطبع اشتكت مدرستي لوالدي فكان العقاب في انتظاري لكنني صرخت في وجهه لأول مرة في حياتي .

ولماذا لا تستحون من رجولتي التي بدأت تخط علاماتها على ملامح وجهي وتصرون على أن تأتون لي بمدرسات جميلات وهكذا رفصت النعمة بقدمي .

مأساة أن تعيش في بيت ربيبه كلاهما يعمل عملًا مرموقًا ومشغولا به . مأساة أكثر أن تطاردك سمعة والديك الحسنة إلى أي مكان تذهب إليه, فأنا إن أردت التقوى لن أكون مثلهما وإن أردت انحرافًا سلخت سمعتيهما لم يكن أمامي سوى الانطواء .

كان لي صديقان أحدهما أبوة مقاول وجنى ثروة ضخمه في حين بدأنا نحن نفقد جزء كبير من ثروتنا المدخرة نتيجة مغامرات أبي التجارية الفاشلة والآخر كان أبوه رئيس والدي في عمله لكنني كنت احتقره هو وأبوه فقد كان نسخة مصغرة من نرجسية والده المريض نفسيًا أو ربما اكتسبت هذا الكره نتيجة لكلام والدي عنه وعن مضايقاته له في العمل لكنهم عندما زارونا ضيوفًا في بيتنا رأيت كم الود والترحاب الذي قابلهم به والدي يا له من نفاق لم أعتد عليه بعد.

ثم تعرفت أخيرًا على صديقة جميلة, أو هكذا كنت أراها مثل نبيذ معتق منذ عهد ثورات الإحسان وجهها كقطيفة وردة مليحة غبرتها طقوس شمس الصباح فأكسبتها ملامح الإشراق والدتها متعلمه لكنها لا تعمل أبوها يمتلك مصنعا على أطراف مدينتنا الصغيرة وما أحلى استذكار الدروس معها في حضرة لباسها الشفاف الذي يترنح من خلاله بعض ملامح إحسانها الأنثوي ألفائر مبكرًا بيتها مرتب ولوحات هنا وهناك تدل على مستوى طفيف من الاهتمام بالفن ولأول مرة أستمتع بمذاق لحم البوفتيك الذي أعشقه وعدت مرة أخرى للحم بعد أن مكثت فترة نباتي نتيجة لسوء طهي أمي للحم نظام يحاصرني في كل راكن كل شيء منمق وفي مكانه انها عائله لا تضحي بالجمال من أجل الدراسة والعمل مثل عائلتنا لا أعرف لماذا فتر اهتمامي بصديقتي الجميلة بعد أن رأيت والدتها يبدو أنني بالفعل إنسان معقد لقد عشقت الام أكثر من ابنتها وبالتالي فقدت كليهما .

سوفوكليس مكتشف أوديب وشكسبير أستاذ الدراما الإنسانية الغير احاديه وفرويد مفسر الانحطاط البشري هكذا إذا اكتمل لدى ثالوث غرائز البيان الأول واكتشفت بالصدفة إنني كائن أدبي بحت وصدقت لفترة طويله إنني أوديبي النزعة .

الرسالة الثالثة :

(انظر يا فتى للتحولات الاجتماعية التي حدثت في بلادنا كيف شوّه انقلاب العسكر في يوليو حياتنا الجميلة كان هناك تفاوت طبقي كاسح لكنه كان مرتب ومنتقي بعناية جعله أكثر انسجامًا .انظر لنفسك كيف تنازلت طواعية عن مرتبتك كابن لأحد العائلات المحترمة من أجل مصلحة اشتراكية عفيفة ولماذا أنا وأنت ننتمي لهذه المدرسة الحكومية الرثة رغم مقدرتنا على أن نكون في مدرسة أرقى وأنظف لو لم يكن ماديًا فعلى الأقل عقليًا تدريجيًا ستتحول حياتنا إلى لونين أبيض وأسود ولن يكون هناك مكان لمساحة ما في المنتصف . فإما أن تكون مع أو ضد قريبًا سيكون صفوتنا هم من يأكلون البيتزا تلك

العجينة الإيطالية الشعبية بعد أن كانوا يأكلون السمون فيميه والشاتو بريان سيفطر صفوتنا على البقسماط المغموس في الشاي بعد أن كانوا يفطرون الباتية والكرواسو .أما فقراؤنا فلن يكون بمقدورهم أكل الطعمية لأنهم سيأكلون علف الماشية فكل واحد فيهم قيمته تحددها قدرته الإنتاجية وبهذه الطريقة تكون الماشية المدرّة للألبان واللحم الوفير أكثر أهمية منهم في عالمنا الاشتراكي الجديد) .

كنت أشعر أن مدرس التاريخ قاسٍ جدًا وعندما لمح تلك الدهشة في عيني قال لي :

(لست ابنًا لأحد الباشوات الذين أمَّم ممتلكاتهم ذلك الغول الناصري حتى اكتسب حقدًا ضده؛ لكنني ابن أحد موظفي الطبقة الوسطى التي جعلها الحلم الناصري كتلة واحدة تشبه بعضها ولا اختلاف أو تباين أو تميز بينها يخلق تنافسًا فيها ولها أصبحنا نحلم حلمًا واحدًا, ونتنفس هواءً واحدًا, ونلبس ملبسًا واحدًا, ونأكل طعامًا واحدًا يرضى عنه الزعيم الملهم؛ لأنه لا يعرف غيره كان مجرد اختلافنا في أذواقنا ترف اجتماعي من شأنه تشويه نقاء ثورته المباركة, أصبحنا نسخًا واحدة تؤيد ذلك الوحش خوفًا أكثر منه احترامًا؛ لأن الذي اكتسب لونًا مختلفًا وتجاسر وتمرد ضد رغبة الزعيم الإله كان مثواه سجون وتعذيب وغرف ثكلى بجراح غزوات زوار الفجر؛لذلك انكسرنا معه جميعًا عندما انكسر هو , ولم يبق أحد فينا قادرًا على الحلم بعيدًا عن أضغاثه . أخطئ الفرد فهزمت الأمة بأسرها ,تلك الأمة التي حولها بسلامته من أمة عظيمة كانت نسيجًا خاصًا ميزها عن ما حولها من أمم وشعوب إلى شعب هو في أفضل الأحوال جزء من الشعب العربي يعنى أصبحنا بقرة كبيرة تقود قطيعًا من الأبقار هذا هو التاريخ المسكوت عنه يا ولد. يا ولد أفهم أن المثقف الحقيقي خارج التصنيف الطبقي فلا هو معدم لأن موقفه ثروته ولا هو برجوازي لأن قضيته هدف وليست وسيلة ولا هو أرستقراطي لأنه دومًا متمرد ضد النمطية والاحتكار) .

ابتلعت جملته في صمت وبؤس حائر وعرفت كم كان حكيمًا مدرس التاريخ لكن بعد فوات الأوان .

تحولت أمي بالتدريج إلى كائن متدين وديع , وتحول أبي إلى أمين على حوزة صوفية في جامع كبير بجوار منزلنا الجميل.

أما أنا فكنت أبحث عن الإسكندرية تلك الفاتنة النائمة في أحضان زمن مضى يقاوم الانفلات إلى قبضة التكهن بزمن عشوائي آت لكنني قبل أن أتعرف على محبوبتي الجديدة كان لزامًا أن انعتق أولا من كتلة الأسمنت القبيحة الجاثمة على صدر مدينتنا الصغيرة إلى براح الريف وبراءه وبساطته .

كنا عندما نزور ريفنا عند أقاربنا الأقل حظًا منا هؤلاء من لم يسافروا في زمن الابتعاث النفطي ومكثوا حول الأرض يزرعون غيطانها ويفرشونها سنابل وأبسطة خضراء ومروج تروي عطش السنين العجاف. أكنا عندما نزورهم نكون ككائنات فضائية هبطت على قريتهم الحالمة في وحل الشتاء وروث الذباب الذي يتناسل على أنوفهم البارزة خارج

أُطر وجوههم تتطلع إلى تنفس عطور ملابس هؤلاء الزوار الأقرباء نَسبًا, الغرباء عادات وتطلعات يا له من مشهد غرائبي .عجيب أن تشعر أنك محل دراسة ككائن غريب من قبل ذويك وأقرب الناس إليك.

كان هذا الريف بمثابة تطهر أخير من ذنوب المدينة القبيحة قبل ارتكاب ذنوب أخرى أكثر بشاعة في أمكنة أخرى؛ لكنه الريف أيضًا الذي أصابه ما أصاب المدن من أمراض السياسة ودجل كهنوت الخطط الخمسية التي لا تنتهى ولا تكتمل أبدًا , اللهم إلا تلك البلوكات الخرسانية الشبيهة بوجه ستالين والمرصوصة بجوار بعضها البعض لتمتص أكبر قدر من السكان ؛ لكن دون أن تمتص غرائزهم وقدرتهم اللامتناهية على التكاثر .

كنت أود أن أتذكر حادثة فسادي الأول وأنا أقرفص في تعريشة الحطب التي بناها وهندسها بعبقرية معمارية فطرية دون أن يتعرف على حسن فتحي , خالي الحبيب الراحل تذكرت تلصصي على مُدرستي المسيحية , وعلى خادمة المنزل أثناء استحمامها واكتشفت أن هذا الفساد لا يذكر وأنا أتلصص خِلسة لأشاهد من تحت عقب الباب المتهالك أعضاء تلك البنت الريفية المسكينة التي اقتادوها إلى منزل خالي الريفي ليستأصلوا بعض أجزاء من جسمها حتى تصبح عفيفة شريفة طاهرة كأهلها ويسلمونها أمانة لزوجها العجوز دون نتوء جنسي يثير شهوتها وتذكرت حينما سطوت على محفظة والدي لأسرق مبلغًا من المال لشراء كتاب في النقد الأدبي تذكرت كل ذلك وأنا أتنقل بين الفساد الذاتي و الفساد الجماعي .

تسللت جدتي إلى التعريشة وأمرتني أن ألف لها سيجارة تبغ في ورق البفرة لتدخنها وأمرتني أن أدخن معها وتلك كانت آخر حوادث فسادي في الريف وبداية تعلقي بعادة التدخين .

دلفنا إلى مطعم راقٍ يقدم لزبائنه المأكولات والأطباق الفرنسية . كان والدي مصممًا أن نتذكر بعض أيامنا الخوالي حين كنا في أعلى مرتبة السلم البرجوازي ؛ ولكنني كالعادة لم استمتع وبدأت أسال نفسي ألا يوجد في معجم الطبخ المصري أطباق راقية يمكن أن ننافس بها العالم المتحضر ,وهكذا انتهى بي السؤال لأكون مع صديقتي التي تعلمت الموسيقى ونحن نحضر سويًا حفل كونسير في الأوبرا لبعض معزوفات جورج بزيه التي ألفها لأوبرا كارمن الشهيرة .

الرسالة الرابعة :

لا تهتم بالملبس ولا تنتقي صنوف طعامك تأكل في أي مطعم يصادف طريقك حتى ولو كان رديئًا . أنت وسيم وميسور الحال ومتعلم . أنت ابن أصول ولكنتك تدل على ذلك لماذا أنت زاهد فيما يحاول جاهدًا غيرك التعلق والتملق بواحدة من هذه الصفات أنت إنسان غريب .

بهذه العبارة فقدت علاقتي بصديقتي الثانية فعرفت أنني لا أزال إنطوائي لكنني اكتشفت صفة جديده مبهرة لدي فأنا صعلوك ابن ناس محترمين هههههه .

كنت قد انتهيت من دراسة عصور الموسيقى الكلاسيكية من باروك إلى روكوكو إلى رومانتيكيه.

قال لي معلمي وانتهى العصر الرومانتيكي بفاجنر فقد وصل إلى ذروته ولم يعد هناك متسعًا لإيجاد ما هو جديد من بعده وكان لزامًا التحول إلى القوميات في الموسيقى الحصة القادمة ندلف سويًا إلى بداية الحداثة ومصطلحات جديدة مثل الأتانولاتي ، والديسونانس عند سترافينسكي .

بعد فترة اعترفت له أنني لا أستسيغ ذلك التمرد وأن ذوقي وقف عند رابسوديات ليست المجرية .

العجيب أنني بعد كل هذا الجهد لم أتقن العزف على أية ألة موسيقية حتى ولوكانت مزمار بائع حلوى غزل البنات

سألني والدي ما الذي إذا يثير اهتمامك أيها العفريت لا الرقى يعجبك ولا التدين ولا الريف ولست منحرفا ماذا أنت تحديدا أجبني .

وبالطبع لم أقدر على إجابة سؤال والدي المباغت لأنني لم أكن أعرف وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ماذا أريد تحديدًا ؟

فأجاب والدي نيابة عني :

على بركة الله تصبح طبيبًا بحول الله

كانت تلك هي آخر مهنه يمكن أن أفكر بها لا أعرف هل أهداني قدري مجموعي الكبير في الثانوية العامة لا شقى أم لا نعم تمنيت لحظتها لو أنني فشلت فتصبح اختياراتي محدودة فما الفارق بين التفوق وغيره إذا كانت الخيارات في كليهما محدودة فأنا في ظل تفوق دراسي غبي مبني على الحفظ والتلقين وليس الأبداع وألفهم العميق لم استطع أن أمد يدي وحلمي لدراسة ما كنت أوده وأحلم به ويطاله مجموعي بسهولة .

اقتصاد وعلوم سياسيه يا بابا .

اقتصاد إيه يا روح ماما أنا قلت طب يبقى طب بكره تفهم لما تخلف يعنى إيه ابن بكري يحققلك حلمك ابن عمك مش أحسن منك أنا قررت أنك تكون دكتور سواء رضيت أو لا .

وهكذا كنت أنا قربانًا للإذعان الأبوي .

علموني وهندسوني لمتعتهم هم وليس لمتعتي أنا ادخروا أحلامي ليتباهوا هم بها أمام الغير ما ذنبي أنا إذا يا عالم ومتى تطفوا أحلامي المؤجلة فوق سطح الوعي الله يخرب بيت الوعي .

ثم أخيرًا الإسكندرية وتلك حدوتة أخرى طويلة.

ولكن قبل الإسكندرية لعلي تذكرت مشكلة نفسية عند والدي لا أعرف لها تفسيرًا حتى الآن كان أبي يصمم أن أقضى حاجتي مرة واثنتين وربما أكثر قبل الذهاب إلى أي مطعم أو دار سينما حتى لا أضطر إلى دخول الحمام.

تخيل معي كم يكون قاسيًا أن يتم إجبارك على دخول حمام بيتك إجباريًا وأنت لا تريد قضاء حاجتك عرفت. لاحقًا من عمي الأصغر أن والدي كان يخشى دومًا دخول أي مرحاض عام تحسبًا لاحتمال وجود كاميرا مراقبة مثبتة في مكان ما سري .
صحيح فقط ما كان ينقصني هو عالم المخابرات.

(ذواكر شاغرة)

ليست من الحواس الخمسة ولا حتى من الستة ,,إنها خارج التصنيف الجاد بالأساس,,ماذا يضير المرء أن يستغني عن بعض منها ,أو حتى كلها لن يموت أليس كذلك؟إنها ليست معدة ولا قلب ولا عين ولا أذن ولا حتى رموش وأهداب ,,إنها شئ يمكن تعويضه بسهولة درجة إنها لا تحتاج لطبيب من الأساس ,,أى حلاق أو ميكانيكي يمكن أن يضيف هذا التخصص إلى جوار قائمة دعايته لعلّه يجلب إليه بعض زبائن الخرف إنهم يضحكون عليكم يا سادة خمس سنوات دراسية من أجل ماذا ؟ من أجل تفاهة أليس كذلك .
تعالوا نعقد مقارنة بسيطة هنا لتعرفوا إلى أى مدى أصبحتم مثل الراقصين على السلالم, سلالم لقب طبي قديم لم يعد في حاجة إلى راقصين جُدد ,,سوف أدعوكم لنذهب سويًا لحضور مناقشة رسالة دكتوراة عنوانها (استخدام أشعة الجاما نايف فى علاج أورام الغدة النخامية)وبعدها نذهب لحضور مناقشة رسالة دكتوراه عنوانها(التسرب الميكروسكوبى بين سطح العاج ومادة الحشو)هل أدركتم الآن معنى حشوة التفاهة يا أطباء الأفرول الأبيض القصير.
انتهت محاضرة فلان الذي لا أريد أن أذكر اسمه؛ولكن ذاكرتي الهشة اسعفتني بمقولة مايكل انجلو الخالدة:
Trifles that makes perfection and perfection is no trifles
ولكن من يفهم؟ من حتى يريد أن يفهم؟
قال لي صديقي القادم من أقاصي الصعيد(الطبيب عندنا هو الممسك فى يده بمبضع والمعلق على رقبته سماعة)
فقلت له:حسنًا فلنقل إننا أطباء الأوزان الخفيفة؛ لذلك لا تتحمل أوزان الريشة التي نمتلكها أن نعلق على رقابنا سماعات, أو أن نمسك بأيادينا المشارط.
ابتلع زميلي مقولتي فى تعجب ولم أره بعد ذلك أبدًا. عرفت فيما بعد أنه قام بإعادة تسجيل اسمه فى قوائم امتحان الثانوية العامة للمرة الثانية محاولا تحسين مجموعه العام ليزداد نصف درجة تلك التي حالت بينه وبين تحقيق طموحه فى تعليق سماعة على رقبته.

كانت مشكلتي في أولى سنوات دراستي الجامعية ليست في حجم مواد الدراسة وأنواعها, ولا في أنشطة الكلية السياسية أحادية الفكر والأسلوب , ولا في أساتذتي؛ بل بكل صراحة كانت مشكلتي في زملائي ..بون شاسع يفصل بيني وبينهم يقف حائلًا دون خلق أُلفة ما تجعلنا نشترك في أي شئ ذو قيمة إنسانية خارج إطار المقارنات المتعسفة بين كليتنا وكلية طب السماعة والمشرط.

الفن والفلسفة كانا ذراعين يعوضان نقصان السماعة والمشرط ..كنت أقول لهم من يريد أن يذهب فليذهب تصحبه السلامة لن نضيع وقتنا فى مهاترات لا طائل منها فلنركز فى مهمتنا فنحن أطباء . سؤال كيف تعيش ولسنا أطباء؟ سؤال هل أنت حي؟ ..لم يعد العالم يتحمل هذا القدر من التقليدية , ومن الصور النمطية . ثم صرخت فيهم بمقولة مايكل انجلو الفائتة ؛ فانصرفوا عني وأكملت طريقي كائن انطوائي ضلَّ طريقه بالصدفة لدراسة طب الأسنان بدلا من الفلسفة.

كل أقرباءنا مسموح لي بزيارتهم والتودد إليهم عدا عمي الأكبر الذي لم أر منه غير صورة شخصية قديمة في ألبوم صور والدي العائلية. كانت أمي تكرهه, وكان أبي أيضًا لا يقل عن أمي في درجة كرهه لأخيه الأكبر,كان ما يشاع أنه سرق والدي في ميراث أبيهم لكن الحقيقة المرة أن عمي الأكبر كان يكتب تقارير يومية سريه عن الأنشطة السياسية في الجامعة مسببًا بذلك مصائب عديدة لزملائه ومكونًا أيضًا ثروة طائلة وترقية غير محدودة في وظيفته الحكومية بعد أن تخرج من الجامعة .

لا بأس ففي كل عائلة شخص ما غير محترم ولا أعرف ماذا سوف أكون أنا لاحقًا بالنسبة لعائلتي التي ورثت نكهة النسب ؛لكنها كانت عصامية الحسب .كانت أمي تقول لي أن أصولي أفضل من أصولها ,وأنه عليَّ أن أحافظ على هذا الترتيب الاضطراري ليصبح أبنائي أفضل مني؛ لكن فيما يبدو أنني سوف أحدث خللا في هذا التطور المثالي .

الرسالة الأخيرة :

إن مشكلتي الحقيقية تكمن في خروجي من التصنيف النمطي للطبقات فها هو العنوان المنفصل نفسيًا عن المتن لا يؤهل بأي شكل صاحب الكتابة أن يكون من ضمن أفراد الطبقة الوسطى التي كانت ولا تزال أكثر كدحًا في الواقع مما هي في هذا الوصف الفوقي المتعالي كما أنني لست بحال من هؤلاء المترفين الحالمين برحلة سفاري لاصطياد رائحة الذباب من فوق جلود الرئيسيات ثم قطع راس الضحية وتحنيطها فوق مدفأة قصورهم باذخة البرود ربما أكون شخصًا عاش في الجوار لكنه أبدًا لم يدخل ولم يخرج من حالة المار في الطريق فهو لم يصل لبغيته كما أنه لم يفترش الطريق وينهي رحلته البائسة عند حد الاعتراف المهجور فقط وللصدفة العبثية .

كنت أحتاج لأن أكون بطلًا لأحدى قصصي... ربما لاحقًا سأكون من يدري .

سينما المؤلف

(ليس في وسع الكاتب أن ينصح كاتبًا آخر بخلاصة خبرته فيصنع منه كاتبًا مهما يروق ما يكتبه للآخر الذي لا يكتب, وليس بمقدور الناقد الهمام أن يلفت نظر القارئ البسيط إلى ما قد يراه مغايرًا في نص ما فيظن بذلك إنه يحسن صنعًا .كل ما في الأمر أن تكون أنت القارئ الأول لما تكتب فإن صادفت اهتمام فرادي النُخب فأنت جيد ,وإن جمع عملك بين ذائقة المتخصص ومزاج العادي فأنت لاشك عبقري ,وإن لم تفعل فلا ضير أن تعيد الكَرة مرة أو مرتين أو عشرًا ,أو أن تعيش العمر كله مجربًا في كوة من التفاصيل . . فقط وبكل هدوء كن أنت) .

أعد اللقطة . . استبدل الأم العصبية بفتاة رقيقة مسدل شعرها على جبهتها العريضة فلا يظهر إلا عين ونصف عين من وجهها المستدير,أما الفتى الحانق على تعليمات أمه فلك أن تراه كوجه شبيه بقطعة الجبنة المثلثات . . طبيعي أن يكون مثلثًا قاعدته لأعلى لكنني أريدك أن تجعله بقاعدة لأسفل حينما كان مع أمه ثم تصحح وضعية القاعدة لأعلى عندما يقابل الفتاة مصادفة . . هكذا أظن أن الصورة سوف تكون أحلى ثم لا تلبس الفتاة كعب عالٍ ولا تهتم بلون بشرتها أسمر أبيض أصفر أو أحمر لا يهم المهم أن يكون شعرها مسدل على جبهتها كما اتفقنا ثم أدخل بعض المشاهد للأم مع لقطات لاحقة للفتاة مع الشاب وأدمجهما معًا بطريقة المونتاج والقص واللزق الزماني, وأجعلهم جميعًا يمرون من نفس الأماكن ولاحظ الفرق حتى ينتقل ذلك إلى المشاهد , واحذر فإنك يجب أن تشعر بالفارق وإلا لن يشعر بالمشاهد وسيفتر إحساسه والآن لاحظ معي ما فعلته .

هي نفس المدينة ونفس وجوه المارة ونفس الحافلات والشوارع والنفايات؛ بل إنه نفس النهر ونفس خريره الدافق أعقد المقارنة هنا لتكتشف أن لقطات الفتى مع أمه كانت عابرة غير مريحة. ليس الفتى فقط من تمنى أن تنتهي سريعًا؛ بل المشاهد أيضًا سوف يكون ممتنًا لو أن تلك اللقطات مرّت سريعة . . الكل يتصرف بعصبية وحنق زائد بينما هم أنفسهم تراهم يتصرفون بنعومة وعذوبة عندما ظهرت الفتاة . . انظر إلى الشحاذ كيف كان يرمق الأم رافعًا شفته العليا طالبًا منها بعض العملات , ثم أعد النظر إليه بعد أن أصبح للفتى رفيقة كيف ابتسم وظل يرقص ويغني بصوت جميل مكتفيًا بلمسة يدها الحانية على كتفه . . انظر إلى سائق الحافلة وهو يكبس بقدمه اللزجة على بدال المكابح حتى يتفادى صدام الأم وابنها وهم يمرقون متخطون إشارة المرور ثم انظر إلى ردة فعله وهو يتجنب إشارته الخضراء ويصف حافلته جانبا ويضحك للعاشقين

وهما يعبران ذات الطريق غير عابئين بأي ألوان لأي إشارات .

لا تسئ الظن ترى ماذا تصورت ؟!

الفتاة هي نفسها الأم لكن قبل سنوات من ولادة الفتى والفتى هو أبوه الذي تمنت الأم أن يكون كما حلمت . . أترى إنها المرأة مفتاح السر ومكمن العشق وملاذ الوجد .

أدخل بعض الموسيقى التصويرية الخفيفة . . اختصر الحوار قدر استطاعتك . دلل بالتزامن ودعك من إيقاع التتابع . . لا تتحدث وصف بالحركات لا بالكلمات حتى تصنع من الحواس جمهورًا متفاعلا بالفرجة اجعل اللقطات التي تجمعهما مع العامة أكثر من تلك التي يعتزلون فيها العالم . . املأ صورتك بالكثير من الورود وبعض الألوان المتناقضة حد الشغف وقِف عند اللحظة التي ينظر فيها الفتى لعيني الفتاة مباشرة فتسعل خجلا وترقص أهدابها فرحًا . . لا وعد ولا وداع فقط هي نظرة من تلك الأعين الهاربة من رتابة تفاهة الكائنات .

أُسدل شارة النهاية وارخي ساقيك واشعل لفافة تبغك المحلي وانفث دخانها في وجه الشاشة وابتسم فأنت قد صنعت قصة لطيفة.

Ogeikandl.com

ذلك الصباح العادي

وشي بي خيط ظلام إلى الليل . . أمتسكع أنت في جوف الصمت أم تراك تتآمر بمصباحك الكهربي؟

ليس معي يا سيدي أي مصابيح,ليس معي غير كناية يائسة إن ثمة صباح مغاير قد يأتي صباح عادي مثل أي صباح انبلج متموجًا على وسادة الفراش . . مرفأ يستقبل أولى شقشقات ذلك النهار العادي أمسكت بيدي على وسادتي مرفأي . أعلق هلب النوم عليها لأترجل , وأخطو كشبح مسطول يتوق للإفاقة بقايا حلم مضى ترك أثره كريم علق بلزوجته على وسادتي . . لا جديد أفعله اليوم . . نفس الترتيب الممل . . أذهب إلى المشفى. . أقرأ الجريدة ثم أطويها سريعًا قبل أن أكملها للنهاية يفاجئني السيد المدير أو ربما لا يفاجئني بوضع علامة إكس مكان اسمي في دفتر الحضور والإنصراف ؛ذلك الدفتر الذي يعتبره صحيفة أعمالنا الذي بسبب كثرة توقيعنا فيه أو عدمه سوف ندخل الجنة أو النار. . مهما كان صباحي مبكرًا فأنا بالنسبة لهذا الدفتر(حصالة التاريخ) أكون متأخرا . . يا له من حضور عادي لصباح عادي لا يمل من التكرار. . حسنًا دخلت إلى عيادتي فحصت بعض الحالات كتبت بعض الوصفات خلعت بعض الأسنان اللبنية . . كدت أن أنسى أنني طبيب ,فأنا في هذا المكان أمارس الطب بالإكراه هممت بالإنصراف عندما جاء زميلي ليكمل دوره, كنت أحتاج للذهاب للمرحاض؛ ليس من أجل تلبية نداء الطبيعة؛ بل من أجل أن أفرغ ما في جوفي قرفًا . . إنها معدتي التي لم تعد تتحمل رتابة العمل والأصدقاء . . عدت للعيادة قلت لزميلي: إنني صورت بعض الحالات التي عالجتها واحتفظت بها في حاسوبي الدفتري, ضحك زميلي ضحكة مكتومة وأخبرني إنه لا جدوى من ذاكرة طبيب يعشق البحث العلمي في نظام يعبد الروتين, ثم قال لي حكمة اليوم التي أسمعها كل يوم: « لاتكن غير عادي في مجتمع عادي . يكفينا أننا انهينا دراستنا بسلام «. ابتلعت خبرته جملته في صمت يائس, وقلت لنفسي لا يوجد طبيب أنهى دراسته انشغل زميلي في عمله وقبل أن ألقي عليه السلام وأعود أدراجي لأكمل نومي تسللت كومة ضئيلة من اللحم ظننت أنها نتوء عضوي خرج من جيب قميصي . . أنين الألم هو الشيء الوحيد الذي علق طازجًا داخل جمجمتي . . تبًا لتلك الخبرة الطبية التي تجعل من الألم شيئًا عاديًا انتهت كومة اللحم الصغيرة بكومة أخرى أكبر وأطرى, إنها دليلها الأنضج للذهاب بها إلى مشوار السعادة والراحة عند طبيب ينتظر في نهاية ردهة الشكوى .صحيح فالطفل لا يرشد عن مكان ضرسه الموجوع إنه يئن فقط, يئن ويحرك رأسه لكنه لا يعرف

يقينًا من أين يأتيه هذا الألم . كنت أعرف مسبقًا أن جزءً لا بأس به من هذا الألم مرده خوفه ورهابه من مجرد ذهابه لطبيب الأسنان .

فنحن معشر الأطباء بالنسبة لهم عفاريت يرتدون ذلك الأفرول الأبيض الشهير للتمويه حتى تسنح الفرصة للانقضاض.

إنه ضرس لبني كوّن خُراجًا تحت الفك. ألم تنتبهي لذلك الورم على جانب خده . . لابد من علاج جيد يسبق عملية استئصال ذلك الضرس المتعفن. كانت قسمات وجهها تستدير لتمتص حيرتها . حيرة قروية فقيرة لجأت للتأمين الصحي لعلاج ابنها الصغير. الأم إذن غير متعلمة؛ لكن طفلها يتعلم . . يتعلم كيف يحيي العلم في فناء المدرسة . التزام وطني مبكر على ملامح لاتزال بعد تتشكل على خرقة علم البلاد البالية . يتعلم كيف يصارع أقرانه للجلوس على مساحة ضيقه في فصل دراسي مكتظ بالبراغيث وبالبشر يحفظ عن ظهر قلب بعض آيات القرآن الكريم ربما دون فهم . لا تقف لعثمته في الترديد عائقًا بين حلول البركة على حلم بسيط فقير. طفل بائس موجوع ومقهور يواجه طبيبًا لا يقوى على فرك مخلفات النعاس من عينيه ,ودولة سخية في عطائها الإشتراكي تكافؤه بتعليم مجانى سطحي وعلاج مجانى أكثر سطحية والألم ربما هو الشيء الوحيد الرأسمالي في هذه المنظومة الذي نسيت الدولة أن تطعمه بجرعة دواء إشتراكي . هكذا تكلمت عيني الطفل في شفاهه وديعة اطبقت على شفتيه صمتًا . لم يفته أن يخبرني أن العَلم فوق المشفى أكثر نظافة من العلم في فناء مدرسته . يا لها من ملاحظة شقية تنهي رحلة التلقين إلى امتحان بسيط في عفوية التقدير . لا أدري لماذا تذكرت أنا الآخر مدرستي وتلك السنوات التي قضيتها محاولًا الاجتهاد في حصة الموسيقى وسنة بعد سنة كانت حصة الموسيقى تتقلص إلى أن اختفت تحت وطأة دروس الفيزياء التي لم تبرح اكتشاف كروية الأرض . ما بيني وبينك يا طفلي العزيز قواسم مشتركه أكثر بكثير مما تبديه ظواهر الاختلاف عبر أجيال شاخت دون المرور على لحظة يقين .

قطع صراخ الطفل تداعي التخمين في دماغي نهرته أمه بشده فصرخت في وجهها .

حتى الصراخ تمنعوا خروجه من الصدور عاليًا. اعطوهم فرصه يا عالم ليعبروا عما بداخلهم من ألم . .

لابد من العلاج أولًا ... وعلاج التأمين الصحي غير كافٍ , لابد من علاج خارجي على نفقتك الخاصة .أين أبوه ؟

أحنت رأسها للأسفل

على باب الله يرزقنا ويرزقك الكريم

من إذن المسئول عن هذه الكدمة في وجه الطفل ؟

الخُراج يا بيه

أتحدث عن الناحية الأخرى ولا تخبريني أنه شجار أطفال في المدرسة .

المعلم صاحب الورشة اللي بيروحها ابني بعد المدرسة .

تمنيت هنا لو أنني ما كنت هنا؛ لكن هيهات فهذا هو عملي وهذه هي قصتي . لن أكون مصلحًا اجتماعيًا لا يصلح ما أعوجه الزمن , وتراكمات نفوذ الاستبداد» فقط سأكون ساردًا لما تراه عيني ويطاله وعيي قدر المستطاع «.

انتهيت من كتابة الوصفة الطبية السحرية بعض أقراص المضاد الحيوي المستوردة

بكم ده يا باش حكيم ؟

لا أعرف

اكتبلي دوا من التأمين على حساب الحكومة

لن يكون مجديًا

ما باليد حيله يا دكتور

أين أبوه يا امرأة ؟

قلت لك وجوده زي عدمه

لا بأس خذي هذه النقود واشتري الدواء

بس ده كتير

أبقى اشتري لعبة للولد يفرح بيها .

كان الطفل يراقب المشهد بكل حذافيره بعينين ثاقبتين لا تريدان أن يفوتهما لقطة . خبي صراخ الألم واختفى . بدأت المشاهد التي حذفها فضولي الطبي في مراودتي بطريقة الفلاش باك . . كيف فاتني أن خُراج الضرس عندما يتورم لا يصدر عنه ألم شديد, فغالبًا ما يكون لب الضرس قد تآكل . هل كان الطفل يقوم بأداء دوره الذي لُقن إياه . لا بأس سوف أعتبرها صدقة لوجه الله حتى ولو كانت تمثيلية شحاتة من تلك الجوقة الصغيرة التي غافلتني على حين غِرة. . لاحظت الأم أنني اكتشفت الخدعة مرض يتحول إلى سلعة وسلعة تتحول إلى غاية . . أسرعت وخبأت النقود في صدرها , ثم لم تعد بغلق فتحة جلبابها عليه بإحكام كما كان . أطل على وجهي بعض من ملامح إحسان ما قمت به من صدقة ترد لرغبتي المعروف إنه أسرع رد للمعروف . امتدت يداها تلامس كتفي ثم تمسك بيدي :

ربنا يخليك يا دكتور .

الصباح العادي إذا بدأ في التحول إلى الغيرعادي . . إنه التقاء الأضداد . . طبيب ينام في أحضان شراشف الحلم المخملي وامرأة قروية تدغدغ رائحة زفارة ثيابها الرثة مخدع هرمونات رغبته الذكورية ,حتى ملامحها البسيطة وأنفها الدقيق وشفتاها الملطختان بطين الزحام بدت في عيني وكأنها تضاريس أفروديت الماجنة .

أنا ما عملتش حاجه أستاهل عليها شكرك ده شيء بسيط أي دكتور ما كانش هايخلع الضرس إلا إذا الخُراج خف .

لا يا دكتور أنا بتكلم عن الفلوس .

يا ستي ما فيش حاجه كلنا ولاد آدم وآدم من تراب .

obeikandl.com

تصور آخر مرة شفت فيها جوزي كانت من إمتى ؟

ده شيء ما يخصنيش يا ست بسرعة عشان تشترى الدوا للولد.

كانت مُصرة في كرمها الأنثوي , وكنت أتظاهر بالرفض كعزومة مراكبية لضيف ثقيل والضيف الثقيل بالطبع هو ذهابها عني. يا للصدفة أنا أيضًا صار لي زمان لم أقرب زوجتي إنها مشغولة في عملها والبيت خالٍ , ما الضير في بعض التجريب ما الضير في بعض التغيير.مللت من الحلوى أريد بعضًا من ملح الأرض الحقيقي .

أصبحتْ الآن أنفاسها تسابق أنفاسي شعرت بتلك الرجفة تسري في بدني, لم أتدرب جيدًا لإبداء رأي مغاير لتلك المواقف كيف أروض ذلك الحيوان المفترس الذي يريد الفتك ببقايا عفة هشة تقبع داخل أروقة العرف والتقاليد. انتهت سنوات العبث منذ أن تزوجت كان ذلك قسمًا ووعدًا أخذته على نفسي أمام الله وأمام زوجتي التي أحبها , كيف سيكون شكلي أمام نفسي إنْ أنا حنثت بذلك القسم العظيم؟ ماذا لو أنّ أحدًا من مرضاي انتبه لما أُريد فعله ماذا لو شاهدني بعض أهل الحي الراقي الذي أسكن فيه ماذا لو . . . يا للمصيبة أبعد أن بلغت من النضج عتيا

يا دكتور ألا تريد شيئًا ؟

بلى أريد أشياءً عديدة, أريد أن أكفر عن عيشتي المملة الرتيبة في أحضان تلك الرغبة اللذيذة .

يا ترى هل ستستمر لذتها بعد انقضاء رغبتها؟ أم سيبقى وجهي في المرآة وقد خط رأسي مشيب هول الواقعة ؟

هل يمكن لسمعتي الطيبة أن تتحمل وخز فعل مشين ؟

أنا أمام حيوانين ضاريين أحدهما نفسي والآخر تلك المرأة بإفرازات ورغاوي تلك الرغبة الملحة التي تغادر جسدها وميضًا كهربائيًا يصعق قدرتي على الرفض .

كانت عيناها تشجع رد فعل مكبوت داخلي كزخات مطر استوائي بلل فمي بريق شبقي لذيذ .

لم أعد أرى زميلي, لم أعد أرى أي أحد من الموظفين ولا المرضى ولا الممرضات ولا حتى طفلها البائس. إن اللحظة تفرد لي مساحات كرمها اللامحدود .

لا أحد يراقب , خذ ما استطعت .

امتدت يدي المرتعشة ناحية صدرها الأسمر متناسق التكوير ثم إلى رأسها النحيل وأزالت إيشاربها المثقوب من فوق شعرها فإذا بخصلات من حرير أسود تتساقط كالشلال .

فقر وجهل رغم قسوته ؛إلا أنه تأنى في إبداع نحت جسد يحتاج لمن يكتشفه .

خذ ما شئت يا دكتور أنا تحت أمرك .

(حذاري فأنت مراقب)

تبًا لذلك الصوت اخرس أيها الوغد دعني استمتع بتجربتي المدهشة أذهب عني أم

تريد أن تشاركني وليمتي يا لك من وقح.
بل أنت الوقح الوحيد . هل تريد استثمار قلة حيلتها وضعفها؟
إنها هي من تريد هي من راودتني عن نفسي .
وأنت هل تقبل ؟
اذهب عني لست في حالة تسمح لي بمناقشاتك الغبية .
أعلم أنك ستقاوم وسوف ترفض وسوف تعود لرشدك, فلا داع للخوض في مهاترات تجربة مبتورة لن تتذكر منها إلا ضعفك ولن يبقى لك شيء من احترام لذاتك بعدها .
ما الضير في ملامسة خفيفة لا تشبع ؟
طالما أنها لن تشبع ما حاجتك لها إذا ؟
مجرد خروج عن المألوف .
لا تخرج عن النص .
تبًا لهذا النص , ألا يوجد به متسع لبعض الارتجال ؟
الارتجال في حد ذاته هو نمط قسري له نظام, له نوتة تحدد توقيت خروج نغماته مهما بدت شاذة .
درس آخر من مواعظ المثالية المتكلفة .
الكلفة هي ما تفعله أنت الآن بزجك لهذا الحوار بيني وبينك في نصك هذا أرجع إلى حدوتك الأساسية وافعل إن استطعت فيداك لا تزالان مرتعشتان .
إنها النشوة وليس الخوف .
مدد أطرافك إذا واقتل خوفك وسأسكت أنا .
اغمضت عيني ومددت يدي أكثر ناحية خصرها لم أكن أريد أن أفعل بقدر ما كنت أريد إخراس ذلك الصوت و إفحامه, بدت لي مستكينة راضية بالمقسوم تنهداتها المنغمة كأنها لحن شجي استجاب لنداء غريزتي وقفت وانتصبت من فوق مكتبي ومددت يدي أكثر وأكثر لأعطيها روشتة العلاج التي كتبتها لابنها .
إنها لحظات مرّت كسنوات عجاف بعد أن نهرت تلك المرأة وعادت لي روحي الهادئة لأكمل دوراني الاعتيادي في ذلك الصباح العادي ,كانت رأسي ملأنة لآخرها بالأسئلة ,لم يكن أمامي غير شيخنا الجليل ذهبت مسرعًا لأصلى الظهر خلفه في مسجده الكبير المجاور لبيتي .
هل هممت بها ؟
نعم يا مولانا .
ثم ماذا حدث ؟
أصابني شيء كالشلل المؤقت.
بوركت يا دكتور لم يشيء الله أن يذهب إيمانك سُدى كتبت لك حسنة بإذن الله لتمحو سيئة كنت على وشك القيام بها .

لا أعرف يا مولانا أهو إيمان أم ماذا ؟
وهل لديك شك ؟
لا أعرف لذلك جئت إليك لتخبرني .
لاحظت أنك متغيب عن المسجد ألم تعد تصلي أم أنك هنا لظرف مؤقت. هكذا الإنسان لا يعود إلى الله إلا عندما تخونه بصيرته .
مشاغل العمل والحياة .
تبًا لتلك المشاغل أنت إنسان كريم وأبواك ذوي سمعة طيبة.
أخبرني يا مولانا لماذا لم أفعل ما الذي منعني ؟
أجننت هل كل ما يشغلك أنك غير سعيد ؛لأنك لم تتم معصية أراد الله بها أن يختبر قوة إيمانك, سوف أذهب إلى خلوتي أستغفر لك وصلي لله شكرًا أنك لم تفعل خطيئة نويت فعلها .
تركني الشيخ الجليل وحيدًا أصارع أسئلتي . . تقارعني بألف علامة استفهام دون خيط رفيع يشي بأي إجابة . . تأبطت حذائي وهممت بالخروج ثم نظرت نظرة أخيرة أراقب أثر الطيف النوراني الذي خلفه الشيخ الجليل وراءه, أخذني النور إلى حيث غرفته وخلوته . وقبل أن ينغلق الباب رأيت شبح طفل صغير بخد متورم يخرج من الغرفة وفي يده لعبة صغيرة من بلاستيك ردئ لفها بإيشارب مثقوب .
ابتسمت في راحة غريبة, واكتفيت بتلك الإجابة . إن الشيخ سوف يتم بدايتي الشاحبة بنهاية مثيرة .
أبصرت للسماء الصافية فوق رأسي حيث بدا أن الصباح العادي لايزال يقاوم أن يكون غير عادي رغم مشارفته على الانتهاء .

على هامش الفكاهة

روبرتو كل الأمور متوقعة

سأجرب حظي

لك أن تكتب ما تشاء وأن تخفي ما تريد؛ لكنني أعود وأكرر إنَّ التوقع ليس برغبة إنه عادة يا روبرتو كل منا يمارسها بطريقته .

هل تظن أنني سوف أكتب قصة عن الحب مثلًا عن الحبيب المنتظر والعاشقة اللعوب؟ وفر على نفسك عناء احتمال أمور لن تأت .

لم أقل ذلك مطلقًا يا روبرتو, ثم مَن الذي قال لك أن قصص الحب فقط هي تلك التي دومًا يتنبأ القارئ ببعض تفاصيلها وبأمور كثيرة من نهاياتها ؟

الجمهور الباحث عن نهايات سعيدة .

لك إذا أن تكون أنت الكاتب الذي يقرر متى ينتشي جمهوره ومتى يخيب ظنه في فرحة تافهة سريعة الزوال, وفي كلتا الحالتين سيكون هناك على الدوام قارئ ما بإمكانه أن يعرف كيف سيكون سطرك القادم .

أنت تحيرني يا محمد .

(يادي النيلة هو الحوار طلع بين روبرتو ومحمد)

(أومال أنت كنت فاكر إيه)

(يعنى على الأقل ما دام فيها روبرتو يبقى التاني ممكن يكون ألفريدو مثلًا)

(مين قال كده؟)

(ما حدش.. سينس كده وحاجات يعنى)

(هيا دي الحدوتة طول ما أنت بعيد عن أعراف القطيع هاتعرف تتوقع كويس , والتوقع اللي أنا أقصده مش إنك تعرف خاتمة القصة قبل ما تقرأها أو تشوفها)

(أومال إيه يا فالح)

(إنك تشارك المؤلف لذة الكتابة ,إنك تحس في لحظة بأن انفعالك في جملة معينة ما كانش في محلة, وإنه في الجملة اللي بعدها هايصالحك بشيء من منطق المشاركة كقارئ ضمني جوا تلافيف سطوره تقوم أنت ترد في سرك بالموافقة يقوم هو لاقط خيط جبر الخواطر ده ومكمل . . وهكذا)

(هو أنت بتشتغل إيه؟)

(أنا صاحب روبرتو)

(الله يخرب بيتك على بيت روبرتو أنا كان مالي ومال مصحة المعاتيه دي)
(طيب ما تزعلش بس فكر معاياة كده التوقع رغبة ولا عادة؟)
(أنا شايف أنها حاسة, دا غير إني مش فاهم إيه الفارق بين الرغبة والعادة؟)
(الرغبة ومضة مُحاطة بترقب الفضول وتسعى للإثارة, أما العادة فهي مجرد إجراء تكراري ممل ووراثي وفعل جماعي ساذج عند ممارسته نشعر بالارتياح ؛لأننا أنجزنا ما كان سوف يسعد ذوينا دون أن يعرفوا قيمة أو تفاهة ما أنجزنا. أما عن كونها حاسة فإذا كنت تقصد الحاسة السادسة فأنا أتصور إن مش ده مجالها الحدس موضوع تاني خالص يا عزيزي) .
(.....)
معذرة قارئي الكريم فالسطر الأخير المنوّه عنه بنقاط متتالية بين قوسين كان عبارة عن سب وشتيمة يخالجني الحرج البالغ إذا ما أفصحت عنها هنا , فلك أن تتخيل كيف كانت .
نقطة ومن أول السطر.

obeikandl.com

ليلة لا تريد أن تنتهي(de ja vu)

فرك عينيه جيدًا حتى بدأت تلك الهالات السوداء في الانزياح من تحت جفنيه وعاد شيء من الحيوية إلى وجهه بعد أن كاد يتحول إلى وجه رجل ميت بسبب جرعة البانجو التي أفرط في تدخينها . نظر إليه حيث كان يقف في مواجهته ثم سعل بشدة حتى بدأ يربت على ظهره ليخفف من حدة سعاله , وعندما هدأ خرجت منه ضحكة عالية وهو يمسك بكفه ليبعدها عن ظهره ثم يمد يده الأخرى لمنتصف الطاولة ليلتقط كأسًا مملوءة لآخرها بالعرق المحلى ويسكب ما فيها مرة واحدة إلى داخل جوفه ثم يتجشأ بصوت عال . ويقف منتشي وهو يلوح بيده قائلًا:

ذات مرة قالت لي أمي أنها رأتني في منامها وأنا أخرج مزهوًا من باب كنيسة ضخمة يعلو رأسي طربوش الذوات إياه الأنيق المختلف عن بقية طرابيش خلق الله ويُقبل يدي جلالة الملك فؤاد الأول .

نظر إليه متعجبًا من أنه لم يصدر ردة فعل لما قاله فصرخ فيه :

هل تظنني أسرفت في الشراب. . هل تظنني سكران أنا أكثر إفاقة منك يا سعادة المثقف .

رمقه بنظرة أخيرة قبل أن يغادر المكان سريعًا دون أن ينطق بكلمة واحدة .

جلس إلى كرسيه الهزاز بجوار طاولته الحديدية حيث زجاجات العرق الملآنة والفارغة وحيث رص سجائر البانجو ورتبها بعناية فائقة من الأقصر إلى الأطول انتهاءً لمطفأة السجائر النحاسية التي امتلأت عن آخرها بأعقاب السجائر. أشعل سيجارة من سجائره تلك المتبلة بحشيش الخرافة وراح ينظر إلى سقف الغرفة حيث بدأت موجات الهواء المندفع من مروحة السقف التي لا تتوقف عن الحركة أبدًا صيفًا أو شتاء تعيد تشكيل دخان سجائره إلى أشباح بيضاء تتلوى في أفق وهمه فتمنحه مزيدًا من لحظات الانتشاء الغائب في غيبوبة مخدره أزاح كرسيه قليلًا للوراء ليصبح أسفل المروحة مباشرةً علّها تجفف عرقه قليلًا وبالكاد استطاع فتح جفنيه ليبصر بعضًا من ضوء النهار الذي تسلل إلى مخدعه من خلال ثقب صغير في باب الغرفة الخشبي تحاشى النظر في اتجاه الضوء وراح يضحك في مجون هيستيري حتى ارتعشت السيجارة بين أصابعه وسقط رمادها على فخذه العاري . كان لوصول الضوء إلى مقلتيه تأثيرًا غير مريح بالنسبة إلى كائن ليلي مثله . . نظر إلى صورة أمه القديمة المعلّقة فوق سرير غفلته حيث كانت عيناه تهربان من قسوة الضوء الذي سحب المخدر من جسمه وتتلمسان بعض الحنين والراحة من خلال

النظر في قسمات وجه أمه الحائرة بين أحلامه وبين حشيشه .

إذا رزقك الله ببنت لا تنسى أنني جدتها , وأن لي نصيب منها فسمها على اسمي لعلّها تكون بعضًا من بهائي .

بدا يشعر بمدى مرارة طعم العرق المغشوش الذي يسكبه في جوفه ومدى رداءة سجائر البانجو الملفوفة بعناية في ورق مستعمل من قبل ؛لكنه لم يحترق لآخره .

إذا ضايقتك زوجتك بنت الكلب فتعالى وعش معي واتركها وحيدة تأكلها الحسرة ويعبث في جسدها الندم .

كان ضوء الشمس يزداد في قوته باعثًا شيئًا من حرارة الوجود إلى داخل مخدعه المنسي , وكان ثقب الباب الخشبي ممرًا ثنائي الاتجاه من خلاله يمر الضوء إلى الداخل , ومن خلاله أيضًا يخرج دخان السجائر وتخرج زفرات أنفاسه المتثاقلة .

تناسى مشكلة الضوء مؤقتا والتفت مستمرًا في النظر إلى صورة أمه في أسى.

لماذا لم تتحقق نبوءتك ولماذا لم تفسرين لي حلمك ؟

أي حلم أنا لا أذكر أنني تنبئت لك بشيء .

حتى أصدقائي ذهبوا عني وأصبحت وحيدًا

وأين زوجتك بنت الكلب ؟

ماتت وهي تلد مولودي الأول الذي ما لبث أن فارق الحياة بعدها بساعات قليلة .

لهفي عليك يا قرة العين وماذا عن عملك ؟

فصلوني منه بعد أن رآني مديري وأنا أحتسي الخمر,مع العلم إنه هو شخصيًا يدخن البانجو ويتاجر فيه أيضًا .

كل ذلك حدث لك ؟

دعكِ من كل ذلك وأخبريني متى سوف يتحقق حلمك ويصبح واقعًا ؟

هل أعددت نفسك جيدًا ؟

قرأت كل الكتب وصليت كل الصلوات .

وكيف تتوقع أن تقبل صلاتك وأنت تحتسي الخمر والحشيش ؟!

البانجو !! إنه البانجو يا أمي هناك فرق .

أسمع ربما أكون قد حلمت حلمًا ما لكنني لم أتنبأ بشيء البتة .

أخبرني متى سوف أخرج من الكنيسة الضخمة ؟

عندما. . . .

عندما ماذا لقد جعلتني نبوءتك تلك أمثولة في نظر أقراني وانفضوا من حولي بعد أن اتهموني بالجنون .

دعك منهم

إذن أخبريني متى سوف . . .

ألم تعرف السر ؟

سر ماذا ؟
كيف تكون مسلمًا وتخرج منتشيًا من باب الكنيسة ضخمة؟
ذلك ما يحيرني يا أمي
هل قرأت التاريخ جيدًا ؟
وحفظته عن ظهر قلب
أشك !!
إذن أخبريني
لا أستطيع
لما ؟
كل ما كان مسموح لي القيام به هو الرؤية فقط .
أنت تحلمين وأنا أشقى وأتعذب هل ذلك يرضيكِ ؟
لا يرضيني يا ولدي ولكن أنا ليس بيدي أي حيلة .
لم يعد قادرًا على تحمل مزيد من انتشار الضوء داخل غرفته وداخل مقلتيه اللتين تحولتا إلى فوهتي بركان على وشك الفوران , ظل يبحث عن أي شيء يسد به ثقب الباب الخشبي ليمنع الضوء من الدخول دون استئذان؛ لكن كل الأشياء التي أمسكها بيده كانت أصغر بكثير من الثقب . حتى ثمرة الصبار التي انتزعها من وراء شباكه لم تنجح إلا في ثقب كفه وجرحه .
ظل يمشي عاقدًا ذراعيه وراء ظهره ويدور في حلقات حول طاولته الحديدية الصدأة , وكأنه قربان يطوف حول وثن متمنيًا العتق .
المال . . الوجاهة . . الوسامة . . المعرفة . . النسب . . الحسب . لقد أعطيتك كل شيء يجعل منك أسطورة زمانك . . أخبرني لماذا تركت قصرك الفخم لتسكن في هذه الحجرة الوضيعة القذرة التي لا تناسب إلا الجرذان ؟
هنا فقط أستطيع أن أشعر بذاتي, وهنا فقط أستطيع أن أحقق قدرًا من التوحد مع النفس .
التوحد مع النفس أم الغيبوبة في حضرة الخمر والمخدر؟
تلك عادة سيئة لم أستطع الإقلاع عنها .
لو كنت امتثلت لكلامي ولم تتزوج تلك العاهرة لما كنت في حاجة لشرب الخمر وتدخين المخدر ولكنت الآن ذو شأن عظيم .
لقد كانت هي الشيء الوحيد الذي اخترته بنفسي
وها هي نتيجة اختياراتك بعيدًا عن توجيهاتي ونصائحي. . ألا زلتَ تخشى الضوء بعد كل هذه السنين ؟
أرجوكِ لا . . بربك لا . . لا تفتحي ذلك الباب إلا عندما يحل المساء أنا لا أطيق ضوء النهار.

من تظن نفسك مذؤوب أم مصاص دماء . . أفق من وهمك إذا أردت أن تتحقق النبوءة .نبوءتي ألا تذكر ؟!!

لم يجلب لي العذاب والقهر إلا نبوءتك تلك . . أم تراها كانت أكذوبة كبيرة قضيت عمري في انتظارها وهى لن تأتي أبدًا .

ما لا تؤمن به لن يأتي أبدًا .

أنت تحيرينني تارة تنكرين الحلم وتارة تؤكدين على النبوءة لم أعد أفهم شيئًا .

أين صديقك ؟

تراه ذلك ضوء الشمس الذي يحاول غزو ظلام الغرفة أم إنه صديقي يعبث بي في مزاح سخيف .

ألهذه الدرجة مفزوع أنت ولا تعرف الفرق بين الضوء الطبيعي والاصطناعي

ماذا لو فتحت الباب وواجهني ضوء النهار ستكون نهايتي .

ألا تملك أية وسيله حديثه تمكنك من معرفة الوقت إذا كان ليلًا أو نهارًا ساعات هواتف أو حتى مذياع .

لا . . لا أمتلك إلا سجائري هذه. . ألا ترغبين في تدخين واحدة

آخرس وتأدب وأنت تخاطبني

لماذا الكنيسة لماذا لا يكون مثلًا كنيس يهودي

وهل لازال يوجد يهود في بلدنا يا معتوه كان ذلك أيام الزمن الجميل

ولماذا لا يكون مسجدًا ؟

على سيدنا وسيدك وسيد الكل محمد بن عبد الله أفضل الصلوات والتسليم ولكن أنت تعرف كيف تحول الدين الجميل المتسامح على أيدي ثلة من المخربين والغير عاقلين إلى مفاهيم مغلوطه .

وهل المسيحية هي التي لم تتشوه ولازالت في نقائها الأول

هكذا كان الحلم يا ولدي ولا أملك تفسيرا لذلك أنا مجرد ناقل أمين

ولماذا لا يكون معبدا فرعونيًا إذا

لأن تلك الحقبة رغم اهميتها إلا إنها انتهت ولم يبقى منها إلا بعض أثار تتناثر هنا وهناك على امتداد الوادي الطيب .

ولماذا تحديدا الملك فؤاد

لأنه آخر روائح الزمن الجميل

ذلك الطاغية

لا أقصد الملك فؤاد نفسه ولكنني أقصد الزمن والبلد والبرلمان والجامعة والاقتصاد الوطني

لم يكن حلمًا ؛إذا كان مجرد أمنيات . ربما كانت أمنية بنكهة الحلم .

كان فعلًا زمن جميل ولكن هل كان هناك سجائر بانجو
في ذلك الوقت لم يكن هناك داعٍ لتلك المهاترات .
إذن أنت تعترفين ضمنيًا أن ما نعيش فيه اليوم يستدعى شيء من تلك المهاترات حتى نستطيع تحمل مرارة العيش وقرف الوجود في الوادي الذي كان يومًا طيبًا وملهمًا وكريمًا ألم تكن أرض الله واسعة.
ومن إذن يحقق نبوءتك الأسطورية
إلى حين يا ولدي
أفضل الموت قهرًا وذلًا هنا على أن أحيا هانئا راضيًا في أي أرض أخرى
يا لأ صالتك ونبلك .
أنا بعض منك
يبقى لي عندك تفسير أخير يحيرني لدرجة الجنون
للأسف ليست كل ظواهر الحلم لدى لها تفسيرات مقنعه ولكن هات ما عندك على أي حال
لماذا أنا
لأنه أنت
ومن أنا
أنت البسيط
والغير عادي
وأنت الأصيل
والمتطور
وأنت العبقري
والمجنون والعقل والخرافة في ان
وأنت الحاكم
والمحكوم
وأنت الزعيم
والمزعوم
هل أكون كل تلك المتناقضات في آن واحد أنا على ذلك أكون أسطورة
الأسطورة لا تقبل منطق الواقع أما أنت فسيد الواقع وسلطان هذا الوجود
حذاري فهذا الوادي لا يقبل إلا سلطان واحد جائر ومخيف لا ينتهي إلا بالموت ولكن حتى موته ربما لا يستطيع انهاء الجور الذي أنتشر في ربوع الوادي إنه جور وراثي متسلسل وسرمدي .
لا تتخاذل ينتهي الجور والظلم تلك هي المعادلة في منتهى البساطة
وكيف لا أتخاذل ؟ لا تخبريني بترك سجائر البانجو

obeikandl.com

بل بترك ما يقودك للمخدرويسلب حريتك والأخطر إرادتك
وما هو ؟
اليأس
لا أريد أن أكون سلطانًا يا أمي أريد فقط أن أعيش كبقية خلق الله
مستورون
ميسورون
فرحون هانئون يا يأمنهم ولياليهم
رؤيتي تلك لم تكن لتجعلك سلطانًا على أية حال إنه مجرد حلم
هل نسيتين كلامك لي عن ضرورة تحقيق هذا الحلم والسعي إلى ذلك بكل الوسائل
وهل بذلت أنت أي جهد من أجل ذلك
لقد تركتيني وحيدًا عاريًا يابسًا ماذا أفعل دونكِ
أكمل . أستمر. وأصل
كنتِ أنتِ زادي ومدادي وأملي وطاقتي
وماذا كانت تفعل زوجتك بنت الكلب إذا ؟
كانت أي شيء إلا ان تكون مكانك لماذا لا تستوعبين ذلك أقصد لماذا لم تستوعبي ذلك وعاقبتنني برحيلك المفاجئ .
إنه الأجل يا ولدي وليس لأحد حيلة في أجله
أعلم ذلك لكنني لا استطيع تصديقه موتك كان بمثابة عقاب قاسٍ لي ظللت أبحث عن الذنب الذي اقترفته وجعلني أستحق ذلك العقاب فلم أجد غير الحيرة والخمر والمخدرعلني أنسي . . أنساك وأنسى نبوءتك وأنسى نفسي .
وهل استطعت ؟
ذلك ما يعذبني
وماذا أنت فاعل ؟
لا شيء . لا شيء بالمرة سوى الانتظار.
انتظار ماذا ؟
انتظارأن يأتي أحد أولا يأتي. . انتظارأن يحدث شيء أولا يحدث . إنه الانتظاريا أمي الفعل الوحيد المسموح لنا القيام به .
الجزاء من صنف العمل يا ولدي
ماذا تقصدين ؟
أنتم تستحقون ذلك
كيف ؟
ذنبكم إنه لا ذنب لكم
أنت تعذبينني بألغازك

السكوت ترف لا ينبغي لكم أن تمارسوه
ليس لنا إلا ذلك
أتعجب كيف تكون ابني ويتملكك هذا التخاذل
قلت لكِ لأنكِ تركتني وحيدًا
وأنت أين أنت أين عقلك أين إرادتك أين ضميرك ؟
دفنتهم بجوارك
إذن تعالى وأرقد بجواري أفضل لك .
ليتني استطيع
ليتني استطيع
ليتني استطيع

أقترب الضوء أكثر من ثقب الباب . ثم من عتبة الباب . ثم بدا الباب يتحرك لينفتح وضع كفيه على عينيه وقبل أن تصل يديه لعينيه انفتح الباب ودخلت منه ذراع تمسك بمصباح كهربي وعندما أشاح بوجهه بعيدًا عن مصدر الضوء ليرى صاحبه ضحك ضحكة مخيفة تزلزلت لها أركان غرفته .

يبدو أن الكهرباء مقطوعه عن هذا الحي العتيق يا ابن الذوات والليل في الخارج عتمه . على أية حال لقد أحضرت زجاجتي نبيذ أفضل ألف مره من خمرتك المغشوشة تلك التي أذهبت عقلك وجعلتك تردد أمامي أشياء عجيبة . . ها كنيسه وملك يقبل يديك . . هاها. . لا أعرف من أين أتيت بكل تلك الهلاوس

نظر إليه يائسًا

إذن نحن لازلنا في الليل أليس كذلك

نعم يا صديقي انه ليل طويل جدًا لكن أخبرني ماذا حدث لك أراك كمن مرت عليه أعوام مع أنني تركتك لدقائق فقط لماذا لونك شاحب هكذا وصوتك مبحوح هكذا

لا عليك . . صب أنت النبيذ في حين أنتهى أنا من رص سجائر البانجو

نظر نظرة أخيرة لصورة أمه قبل أن تختفى وراء ضباب دخان السجائر وقبل أن تدوخ ذاكرته وتترنح في طعم النبيذ المخلوط بغرابة حلمه وقف مشدود الظهر وأدى التحية بطريقة عسكرية أمام صورة أمه ثم انصرف يلهو مع صديقه في صحبة المخدر والخمر وفي عتمة ليلتهما تلك التي لا تريد أن تنتهي.

obeikandl.com

ثرثرة في مقهى المعلم شارو

وصلت الي هناك في وقت قياسي ,وكنت قد عقدت العزم أن أكون في المكان المتفق عليه قبل الجميع ,لأثبت لهم أنى قررت أن أغير عادتي في التأخير,وعندما وصلت الي الميدان الذى يقع المقهي علي مقربة منه كنت بالفعل قد سجلت رقما قياسيا يتفوق علي أرقامي السابقة فى الوصول للمكان في الموعد المحدد بالضبط ,ألمشكلة التي صادفتني ولم أعمل لها حساب هي تلك الزحمة التى جعلتني أدور حول الميدان أكثر من مرة في محاولة لدخول الشارع الذي يقع على ناصيته مقهانا العزيز ولكنني صممت علي أن اصل في الموعد حتي أكسب الرهان ,مررت من تلك الزاوية التي تفضي للشارع وقبل أن تزداد كثافة المرور قام عسكري المرور باعادة توجيهنا للدوران حول الميدان مرة أخري ,ترجلت من سيارتي فأسرع نحوي العسكري ينهرني قائلا:

-ممنوع يا بيه الوقوف هنا ممنوع حضرتك

تظاهرت بأنى غريب عن المكان وأن محرك سيارتي القديمة لن يتحمل المزيد من اللفات مرة أخرى وهذه الأخيرة لم تكن تظاهرا بقدر ما كانت حقيقة ,وعندما لمحت بوادر الغضب علي وجهه قمت باخراج محفظتي من جيب سترتي وهو الاجراء الذى حمدت الله أنه لم يتم فقد أوقعنى حظي في رجل مرور شهم وقنوع فضلا عن كونه كريم فقد تجاوز عن فسادى المؤقت وأخبرنى في لهجة صارمة :

-اظاهر انك تعبان ومستعجل بس أنا مش ممكن أقبل حاجة زي دي ولو سمحت سعادتك هاتلف تاني وتستني الاشارة وبعدين تدخل الشارع وانت وحظك يا تلحق يا ما تلحقش .

لا أعرف لماذا شعرت بالضالة وقلة الذوق أمام هذا العسكري البسيط الذى علمني درسا لن انساه,ورغما عني اضطررت لتنفيذ أوامره صاغرا وبعد محاولتين من الدوران استطعت أخيرا الدخول الي الشارع وكانت المشكلة الثانية في انتظاري حيث لا يوجد مكان خالي أركن فيه سيارتي بجوار المقهي,نعم لقد صار لي زمان لم أرتد هذا المقهي حتي بدا لي كل شئ غريبا حوله ولكنني لم أتصور أن يكون الزحام بهذا الشكل ,تقدم أحد العاملين في المقهي الذي عرفني وراح يرحب بي بحفاوة أنستني تعب وارهاق الطريق ثم أمرني بلطف جم أن أترجل وأترك سيارتي فهناك سائس تستأجره ادارة المقهي سيقوم بركن سيارتي في مراب خلف المقهي علي أن يتم احتساب اجرته واضافتها لحساب المشاريب فيما بعد ,تعجبت لهذا التطور الذي طرأ علي ادارة المقهي ولتلك المحال والدكاكين والمطاعم

الكثيرة التي انتشرت حوله وكأن عالما جديدا تشكل بجوار مقهانا العزيز وأصبح يحجب الرؤية عنه رغم أنه هو أصل المكان .

:انت فين بقالك مدة يا بيه؟

وقبل أن اجيب أخذني المعلم أشرف في حضنه وهو يقبلني بطريقته المسرحية التى لم تتغير أبدا فانتشيت سعادة محدثا نفسي (أخيرا شئ ما بقي علي حاله)شكرت المعلم علي حسن استقباله لي وهمست في أذنه :حد من الشللة وصل ؟

:لا أطمن سعادتك أول واحد بس مش عوايدك يعني

تنفست الصعداء وابتسمت وكأنني ربحت معركة ثم نظرت لمضيفي المعلم أشرف واستطردت:

-أنا كنت في مهمة استوجبت مني الاحتجاب عن الشللة

-أكيد كنت بتكتب حاجة جديدة لانك غايب من فترة

-صحيح اضافة لتجربة سفر فاشلة وغير مريحة,لكن ايه التطور دا يا معلم ؟

-احنا قلنا نساير الموجة ونتغير

-التطور شئ مفيد وضروري يا معلم أشرف و..

قاطعني الرجل معاتبا :

-ايه يا بيه انت نسيت اسمي اللي كنت دايما بتناديني بيه دا انا حتي نفسي اسمعه تاني منك

ضحكت وأنا أربت علي كتفه وأكملت:

-فكرتني بأيام زمان يا معلم شارو

ابتسم المعلم شارو فى سعادة غامرة واقترب مني هامسا:

-اذا كتبت حاجة عن الحتة ما تنساش تذكرني؟

أمنت علي كلامه قائلا:

-ودى معقولة دا انت سيد الحتة

أفرد لي المعلم ركنا في المقهي حيث اعتدت الجلوس أنا والشللة لكن معالم الركن المفضل لدينا قد تغيرت كثيرا شكل الكراسي والطاولات والأراجيل التي أصبحت أكثر طولا وضخامة وصور القاهرة القديمة التي كانت تزين الحوائط تم استبدالها بصور لمناظر طبيعية جافة عن الصحراء والجمال والنخيل اضافة لبعض الايات القرانية مع تعليق مجموعة من المباخر التي تعمل بالكهرباء وتنفث فى هواء المقهي روائح البخور التي لم نعتد عليها فحدثت المعلم وأنا أكاد أختنق طالبا منه أن يحمل تلك المباخر بعيدا وبعد أن استجاب لطلبي أخذ بيدي ليرشدني الي المخدع الخاص بالشللة.

-هنا يا بيه الجماعة بيتقابلوا ويقعدوا

-لكن فين الكراسي

-دا سعادتك مجلس عربي تخت ولا مؤاخذة علشان تاخد راحتك ع الأخر.

-لكن أنا ما أعرفش اقعد مقرفص رجلي وبعدين احنا مش واخدين علي كده ازاى الجماعة بيعرفوا يقعدوا هنا بالطريقة دى

-الجماعة مرتاحين جدا للنظام الجديد واضح انه بقالك مدة ما شفتهمش

-ريحنى يا معلم وابعت حد يجيبلي الكرسي المنقوش عليه رباعيات صلاح جاهين وصورة الهرم وابو الهول

-وأبعت أجيبلك الشيشة المعتبرة

-لا وحياتك أنا عاوز الشيشة العادية الكحيانة ماليش فى الاحجام الكبيرة

-وعندي قهوة عربي بن خليجي محوج باصناف تركي و ايراني هاتعجبك

-من فضلك يا معلم شارو أنا عاوز القهوة المصري اللى متعود دايما أشربها ع الريحة عمري ما حاولت أغيرها ولا ها غيرها مهما كانت الاغراءات اناضولية او فارسية او حتى هندية

-اللى تشوفه يا كبير

-انما قوللى

-اؤمرني

-فين صور عبد الناصر

-ياه يا بيه أنا سبت الصورة الكبيرة اللى فوق العرش قصدي الكرسي بتاعي لكن بقيت الصور شلتها وديتها المخزن

-ليه يا معلم؟دا انت ما كنتش سايب ركن الا وكنت معلق عليه صورة حبيبك وحبيب الملايين

-الزمن ما عادش الزمن لازم نتطور يا بيه وبعدين انا اصلي اخويا رجع من الخليج ومعاه قرشين وحب يشاركني وهوا ما بيطيقش عبد الناصر وانا محبيتش ازعله وانت عارف ان الحي ابقي من الميت

-أخوك وأبوك الله يرحمه والست والدتك ربنا يديها الصحة وطولة العمر بتعشقوا راجل اسمه عبد الناصر انت تقصد تقول ان اخوك رجع من السفر متغير

-مش هاتفرق يا بيه واهو كل وقت وله ادان

استأذنني المعلم شارو للمضي لمتابعة عمله بعد ان استجاب لطلبي وأحضر ما تعودت عليه ثم سرحت ذاكرتي في الماضي مع انغام تقاسيم عود للسنباطي قبل ان تصرخ مكبرات الصوت بايقاع فج للدفوف والطبول مصحوب من حين لاخر باصوات تشبه الانين بلهجات بدوية ثم فوجئت بشاشة مسطحة كبيرة تومض أمامي علي مشهد فتيات سمر باسقات الطول يرتدين عباءات فضفاضة يتمايلن على ايقاع الطبول وقد اصطففن وراحت كل واحدة تهز رأسها يمينا ويسارا بحيث يسقط شعرها ليكون فى محاذاة خصرها .لاحظ المعلم امتعاضي وهو يراقبني من بعيد فأمر أحد صبيانه بايقاف تشغيل الشاشة واسكات الصوت .هززت له راسي من بعيد شاكرا اياه وطالبا منه أن

يجلس معي اذا كان لديه وقت نتسامر حتى يحضر اصدقائي
-انا ملاحظ انك قلقان
-مش عادتهم يتاخروا
-زمانهم علي وصول الدنيا النهاردة زحمة
-ايه السبب؟
-من يوم ما نقلوا مصلحة الجوازات هنا
-كل الناس دى عاوزة تسافر علي كده البلد ما يفضلش فيها حد
-يا بيه العيشة في البلد بقت صعبة جدا اذا كنت حضرتك المرتاح ما تاخذنيش سافرت ما بالك بالناس الغلابة
-في هم السفر ما فيش مرتاح ومش مرتاح الكل بيعانى يا معلم بس ليه أغلب الناس بتسافر تقريبا لوجهة واحدة؟ انت طبعا فاهم قصدي
-شوف يا بيه انت صحيح مثقف وكاتب محترم اد الدنيا لكن امور الحياة والعيشة واللى عايشينها العبد لله رغم جهله فهمها صح
-طيب فهمنى يا معلم
-العفو يا بيه
-لا بجد عاوز افهم منك
-الموضوع اضافة لتحسين الدخل انه فيه حاجات كتيرة بتحقق للي يسافر للبلاد دي اللى طبعا بتختلف من شخص للاخر حسب تفاوت البيئة والثقافة والحاجات اللى سيادتك طبعا تفهمها اكتر مني
-كمل يا معلم كلى اذان صاغية
-يعنى مثلا المتدين هايلاقي ضالته فى مظهر محافظ والمتزمت هايفرح بشوية اللحي الطويلة والعباءات الواسعة وفى بيته يقدر يمارس كل انواع الرذائل من غير ما حد يشوفه والعروبى ها يكتشف منطق جديد يضحك بيه على نفسه ويوهمها انه بكده قدم مشروع عروبي بعيد عن سيطرة المشروع الناصري والنفعي هايعمل صداقات وينافق علشان يتسلق ويوصل وهكذا يعنى باختصار البلاد دى عندها قدرة فريدة على امتصاص كل المتناقضات وتخريجها بشكل فردى يناسب طبيعة كل واحد سواء مقيم او وافد
-طيب والليبرالي اللي زى حالاتي؟
-هاتفيده العزلة والفراغ في انه يراجع حساباته مع نفسه ويمكن ينتج حاجة جديدة
-تعرف انى كنت عبيط جدا لما افتكرت ان الثقافة مصدرها القراءة وبس
-العفو يا بيه دا احنا اللى بنتعلم منك
-لكن قوللى ايه المحلات دى كلها
-دا تمويه علشان الضرايب

-مش فاهم
-كلام في سرك المحلات الوهمية دى كلها او اغلبها على الأقل عبارة عن شركات خاصة لتسفير العمالة المصرية للخارج
-مش معقول
-لا معقول يا بيه في زمانا ده دا شئ معقول جدا
-تعرف انا باسمي الشركات دى ايه
-ايه يا بيه؟
-شركات نخاسة
-المشكلة الاكترفي الناس اللى بتزيد كل يوم وعاوزه تسيب البلد
-الجماعة اتاخروا اوى مش كده
-سيادتك زهقت من كلامي
-ابدا انا مستمتع جدا بس اصلهم وحشوني جدا ولاد اللذينا
-انت ما شفتهمش من امتي؟
-يعني حوالي سنة وشوية
-دى تقريبا المدة اللى انقطعت فيها عن القهوة مش كده
-تقريبا
-لكن ما تاخذنيش سعادتك ازاى تيجى من بلاد برة وتفضل عربيتك قديمة زى ما هيا ما حاولتش تغيرها ؟
-ما أنا قلتلك إنها كانت تجربة فاشلة
-ليه؟
-تقدرتقول عدم قدرة على التكيف
-يعنى أنت فى السنة وشوية دول ما عملتش قرشين؟أنا مش قصدى الحسد ربنا يزيد ويبارك.
-عملت لكنهم راحوا فى تسديد ديون متراكمة
-أنت تعرف ياسر بيه شغال فين دلوقتى؟
-ايوه قاللى مرة في جواب إنه معد برامج سياسية في قناة فضائية جديدة
-أنت شفت القناة دى؟
-لا لكن بتسال ليه؟
-لأنها مش برامج سياسية ولا حاجة والقناة كلها قناة منوعات خفيفة برأس مال مصري عربي مشترك, واللقطة اللى ازعجت سيادتك اللى شفتها من شوية على الشاشة الكبيرة كانت من إعداد ياسر بيه.
-مش ممكن ياسر المفكر الماركسي يتحول الي هذه التفاهة حتى ولو كانت وفيرة الربح
-أومال لو تعرف جلال بيه بيعمل ايه هاتقول ايه؟

obeikandl.com

-جلال صحفي محترم وصاحب قضية وطنية وما انساش أبدا الندوة اللى عملها في عقر دار صحيفته واتحدى بيها كل القوانين عن ضرورة تحديد مدة الرئاسة وطبعا كان مصيره الرفد والسجن.

-وطبعا سعادتك سافرت بعد الندوة علطول مش كده؟

-ايوا

-طيب جلال بيه ما اتسجنش وهو دلوقتى صاحب واحد من المحلات إياها اللى قدام القهوة

-دا جلال كان اكترواحد ضد فكرة سفري

-وأمين بيه؟

-أوعي تقوللى انه ماشى ورا رقاصة

-يا ربت

-يادى المصيبة

-أمين بيه أصبح واحد من أكبر تجار العملة وله محل صرافة باسمه, ده المعلن لكنه فى الدرا بيتاجر فى الآثار

-أمين الناقد البنيوي اللي ما كانش بيعجبه العجب!! أنت بتتكلم جد ؟

-جد الجد وحياتك , أنت عارف غلاوتك عندي

-فاضل أسامة آخر معلوماتى إنه كا بيستعد لنشر ديوانه الرابع

-ده صحيح لكن مش هاينشره باسمه

-إيه اللغز ده

-أسامة بيه بيبيع قصائده لمن يدفع اكتر ليضع اسمه بدلا منه عليها

-يا ريتنى ما كنت جيت النهاردة

-شفت بقا يا بيه إن السفر برا أرحم بكتير من القُعاد هنا

-ياسر وجلال وأمين وأسامة أصدقاء العمر كنزي اللى أنا حصلت عليه في رحلتي في الحياة , يوصل بيهم الحال لكده!! أنا مش مصدق روحي .العسكري البسيط يرفض رشوتي والمثقفين ينحرفوا بالشكل ده .

-فاكر لما اتخاصمت مع الأستاذ جلال لما كتب قصة وما عجبتش سعادتك؟

-دا ما كانش خصام بالمعنى المعروف , دا كان مجرد خلاف فكري .

-ما أنا فاهم معاليك.

-أنا اختلفت مع جلال بسبب شئ اسمه التوظيف الإيدولوجى للسرد .

-ايوا أنا فاكر لما سعادتك قلتله مش لازم يعنى علشان ما انت ماركسي تكون قصتك كمان ماركسية يا سي جلال.

-ياه دا أنت ذاكرتك حديد .

-بعدها جلال بيه فضل مقاطع القهوة اسبوعين

obeikandl.com

-وخسرت أنت حساب المشاريب هههه
-أنا بردو يا بيه
-أنا بهزر يا راجل اوعى تزعل
-لكن كان معناه ايه الكلام اللى سعادتك قلته للأستاذ جلال؟
-معناه إن الأدب لازم يكون حر طليق لا تقيده ظروف وأفكار مسبقة , يظل يدور في فلكها فيبقى مرتبطا بعوامل انتاجه من الخارج فيفقد دهشته بالتقادم .
-يوميها كان أمين بيه مبسوط جدًا .
-لأن ده جزء من المنهج البنيوي اللى أمين مؤمن بيه
-لكن ياسر بيه كان واقف في جنب جلال بيه
-ما أنت عارف إن السيد ياسر ناصري , والناصرية والماركسية يتفقون على فكرة توجيه الأدب خصوصا للطبقة العاملة مش لفئة برجوازية مدعية فكر .هما طبعا بيختلفوا في حاجات تانية كتير. أقصد الماركسية والناصرية ؛لكن خلينا نقول إن اللى روّج للنظرية كان أكثر تعسفا من صاحب الأطروحة نفسه
-الكلام ده كان زمان ياسر بيه دلوقتى لا ناصري ولا حاجة
-اه صحيح نسيت انه دلوقتى بقا متعهد أفراح
-قصدك معد برامج ترفيه
-أهو كله تسلية
-في كل الأحوال هوا بيقدم المتعة والتسلية لافراد الشعب الكادح وليس لفئة الذوات يعنى الراجل ما خانش مبادئه خصوصا انه بيقدم التسلية برأس مال عربي من الخليج للخليج بردو... ها ها ها
-ما فيش فايدة فيك ابن نكتة زى ما أنت
-يوميها القهوة كانت عاملة زى ما تكون مسرح والناس سابت القهاوي التانية وجت عندي علشان تسمعكم
-أنت براجماتى على كده
-لا أبدا والله أنت نسيت إن يوميها أنا أمرت صبيانى إن المشاريب كلها تكون على حسابي وعلى شرف قصة جلال بيه الجديدة ,ما انتوا اللى حبتوني فى سكة الأدب والفكر وأديني شوية شوية بافهم على أدي.
-كلك مفهومية يا معلم يا أصيل أنت
-وأسامة بيه اخد جنب وانشغل بوحي الإلهام
-فعلا أسامة يومها كتب واحدة من أروع قصائده
-تعرف إنى كنت معلقها هنا على الحيطة فى القهوة بعد ما بروزتها
-أومال هيا فين؟
-منه لله بقا خلانى أشيلها بعد ما باعها لواحد من الهلافيت

-للدرجة دي الامور المادية متازمة مع أسامة؟
-مراته هيا السبب
-هوا أسامة اتجوز؟ دا كان رافض موضوع الجواز جدا
-اتجوز حرباية بعيد عنك كل همها الفلوس
-أنا مش قادر اتصور إنه في إنسانة ممكن تكون فى رهافة حس وشعور أسامة
-نصيب يا بيه واللى مكتوب فوق الجبين لازم تشوفه العين
-عمر العين ما تقدر تشوف الجبين إلا في المرايا ووقتها هاتكون صورة معكوسة
-سيادتك لسة مغرم بالفلسفة
-أنا اللى النهاردة اكتشفت إنك فيلسوف بجد
-فيلسوف شعبي وحياتك
-وإيه المانع دا أروع شئ ممكن تقدمه الحياة من خبرة لواحد ابن بلد وأصيل زيك يا معلم.
-فاكر لما الأستاذ أمين كتب مسرحية جديدة وكنت بتقول حاجة كده مش فاكر ايه؟
-تجريب ,,مسرح تجريبي
-ايوا تمام ألا هو ايه سعادتك المرسح التجريبى ده ولا مؤاخذة؟
-باختصار عدم التقيد سواء فى الكتابة أو الأداء بشكل المسرح التقليدى المتعارف عليه , والاعتماد المبالغ فيه على حركة الجسد كنوع من أنواع الاستعاضة البديلة عن الحوار.حاجة كده زى الشعر الحر اللي بيكتبه قصدى اللى كان بيكتبه أسامة
-أنت يومها عجبتك المسرحية ؛لكنك فضلت تقوله فين متعة الفرجة يا أستاذ فين حق الجمهور .
-وهو اتعلل بإنه أشرك الجمهور فى الفعل التمثيلى
-وسعادتك قلتله مش كفاية ,لازم يكون فيه متعة ما نروح نكتب مقالة أو بحث علمي ونفضها سيرة بلا أدب بلا وجع دماغ.
ألا قوللى يا بيه
-أؤمرنى يا معلم
-هو المفروض الأدب يكون موجه لمين؟ للغلابة اللى مش راح يفهموه ,واللا للميسورين اللى مش محتاجين وجع راس.
-مش موجه لحد بعينه وفي نفس الوقت موجه للكل
-إزاى؟
-للغلابة علشان يتغيروا للأفضل وللميسورين علشان يضيفوا لحياتهم أبعاد إنسانية أكثر أهمية من المال وللمثقفين ؛من أجل أن يزدادوا وعيًا ,وللمحكومين علشان يعرفوا حقوقهم ,وللحكام علشان يعرفوا إنهم مجرد موظفين عند شعوبهم ,وللأدباء مش علشان يقروا بعض ؛إنما علشان يفهموا بعض ويطوروا بعض ويكملوا نقائصهم ببعض

المهم فى كل ده يا معلم شارو إن الأديب يقدر يحقق المعادلة الفنية ويتمكن من صنعته من غير كلفة ومن غير ما يبتذل لإرضاء العامة , ومن غير ما ينافق لإرضاء الخاصة والأهم إنه يرضي ضميره الأدبي.

-طيب أنا مرة سمعتك بتقول إن الأدب مش محايد زى العلم معناته ايه الكلام ده؟

-أولا قبل ما أجاوبك خليني أعبر عن إعجابي الشديد لدرجة الانبهار بيك. أنت النهاردة اكتر من رائع أنت نسيتنى مصيبتى وبلوتى فى أصدقاء عمري.

ثانيا أجاوبك على سؤالك العبقري بص يا سيدى اكتشاف كروية الأرض والنظرية النسبية والكم وانشطار الذرة وعلوم الجينات وزراعة الخلايا الجذعية وغيرها وغيرها كل ده بيفيد البشرية كلها ,لا بيعترف بحدود سياسية أو طبقات عرقية أو طوائف دينية وكمان الأدب الجاد مش بيعترف بالحاجات دى ؛لكن مستوى التأويل اللى بيختلف فى حين دلالات العلوم البحتة ثابتة فى المكان وممكن تطور فى الزمان ؛إلا أن الأدب تأويله مفتوح على مصراعيه .يعنى مثلا رواية ساحر الصحراء أو الخيميائى لباولو اكويللو الرسالة الجميلة اللى فيها إنه عاوز يقول إن الكنز الحقيقي لأى إنسان بيكون فى الناس اللى عرفها وحبها وحبته وكرهها وكرهته على طول مسيرته الحياتية , وإن الكنز المعنوي ده أهم بكتير من الفلوس والجواهر اللى كان ممكن يلاقيها بطل الرواية تحت سفح الهرم اللذة الحقيقة فى معاناة البحث حتى لو لم نصل إلى نتيجة لهذا البحث .

الفكرة دى كل واحد فينا ها يفهمها بطريقة مختلفة عن الآخر. فيه ناس ها تستوعب الرسالة المخفية دي وفيه ناس مش ها تهتم غير بشوية المطاردات والمغامرات رغم إنه أنا شخصيا باعتبر الرواية دى وأغلب كتابات مؤلفها عبارة عن تصدير الوهم للناس من خلال التلفيق بين الروحاني والمادي , والمطلق والنسبي ودي حدوتة يطول شرحها

لكن الخلاصة أن الأدب ليس محايدًا في أدواته وأسبابه, أما نتائجه فهيا اللى المفروض تكون محايدة أو على الأقل تحاول تكون كده لا تجاوب على اسئلة ؛لكن تطرحها بطريقة جديدة لا تربي أو تعظ ؛لكن تدلل من بعيد على بعض المسالك النبيلة من خلال الصياغة . صحيح أن اتجاه المؤلف بيكون طاغي على كتاباته ؛لكن لازم يوجه ده للاختلاف اكتر من التطابق مع رؤاه لأنه في الحالة دى بيعيد اكتشاف متلقى متشارك معاه مش مجرد متلقى مستقبل لانتاجه ..أنا مثلا باكتب باللغة العربية لكن مش لازم أبدا أشير فى كتاباتى أن اللغة العربية هي أهم وأفضل وأقدس لغات الأرض.

-لكن أنت مرة كتبت إن مصر أفضل بلد فى العالم.

-ده صحيح ودي ما كانتش مرة واحدة ,أنا طول عمري بأقول كده وهافضل أقول كده , لكن الكلام ده كان موجه للمصريين مش لأى شعب آخر.ثم إن الجملة مشروطة بأننا كمصريين نعيد لبلدنا عصور الأبهة اللى انحرمت منها اليومين دول بسببنا أيضًا قبل أن تكون بأسباب خارجية .

-طيب ما هى الكتابة ممكن تترجم للغات أخرى

-وقتها ها تتفهم دوافع الجملة اللى ممكن تكون عنصرية إذا ما تم ذكرها فى سياق الهدف من كتابتها ,أو من الجائز أن تترجم روح الجملة ودلالتها الوجودية والمعرفية وليس تلك الترجمة الحرفية البغيضة ,يعنى مصر وجوديا هي أول دولة معروفة ومعرفيا من اهم دول العالم يعنى الدلالة العامة للجملة لغير المصرى هاتكون إن مصر من أهم دول العالم ,حتى ولو لم تكن من أفضل دول العالم لاستحالة أن توجد دولة تكون هيا الأفضل على الإطلاق.

-امممممم

-شكلك مش موافق

-عندى شوية تحفظات

-زي

-مش بيقولوا أجمل الشعر أكذبه

-اه

-يبقى الأدب المفروض إنه يكون محايد بس ده مستحيل بشكل مطلق لأنه نتاج بشرى, والبشر صعب درجة الاستحالة أنهم يكونوا محايدين؛ إنما العلم آلات ومعدات وأسلاك وأدوات ما فيهاش لا روح ولا دم يا بو دم حامي يا عسل أنت

-تعرف إنك أفضل انجاز لمجموعتنا يا معلم

-تقصد ايه يا بيه

-فاكر لما ياسر حاول يعمل ورشة تثقيف هنا فى القهوة

-طبعا فاكر وأنا فضلت أجمع الزباين, وأغريهم بأن كل واحد هايفهم حاجة من كلامكم له عندى حجر معسل مجانا

-هههههه يبدو إنه أنت اكتر واحد فهمنا

-ما تكسفنيش أومال يا بيه دا بس من زوقك

-أنا باتكلم بجد يا معلم

-لكن كان فيه ناس بتسمعكم وتحاوركم وأحيانا ب تنتقدكم

-أهو إن الناس تنتقدنا دا أفضل شئ استطعنا فعله وده دور المثقف الحقيقي الالتحام وليس العزلة.

-لكن الأستاذ أسامة كان دايما بيحب العزلة

-دا بس لما كان إلهام الشعر بيزوره علشان يطلعلنا بقصيدة جميلة ,ومش بس الأديب اللى ساعات بيحتاج لعزلة. المفكر عموما أحيانًا بيعتزل الناس زى جمال حمدان اللى حط إيدينا على مكامن عبقرية المكان وأشكال التخلف فى الممارسات ,ومش بس المفكر والأديب أي إنسان عادي بتكون العزلة بالنسبة له فرصة لإعادة توجيه موقفه وترتيب حساباته دون تأثير خارجي يؤثر فى قراراته.

-فكرتنى بأسامة يا معلم تعرف إنه وحشنى جدا

-الأستاذ أسامة الوحيد اللى ما حدش كان بيزعل منه ولا يتخاصم معاه بطريقتكم الفكرية

-لان أسامة طبيعته كده ولأن الشعر حالة استثنائية ولأنه مخلص للشعر وبس مش زى حالاتنا سبع صنايع والبخت ضايع علشان كده هو أكثرنا تركيزا فى شغله

-يعنى القراية خارج مجال جنس الإبداع ممكن تضره

-مش بالضرورة لكن أسامة بيعرف امتى يفصل بين قراءاته الغير شعرية ويمنع تأثيرها الغير مرغوب فيه عندما يكتب القصيدة كى لا يفقد متعة التواصل مع قارئه العادي والبسيط ؛أما أمين مثلا فتجد صدى قراءاته فى النقد الأدبي موجود بكثافة فى اعماله الأدبية وده أيضًا مش عيب إذا ما قدم بشكل فني محترف زي ما أمين ما بيعمل وعموما القصيدة لا تحتمل إلا أن تكون قصيدة وحسب. أما السرد فمن الجائز أن يتحمل كل شئ وأي شئ وانظر إلى الرواية الحديثة كيف أصبحت عالما موازيا لكل ما نمارسه فى حياتنا ولم تعد تقدم على أنها فقط خيال صرف .

-لو سعادتك جبت سيرتي في حاجة ليك يا ترى ها تشوفنى إزاي؟

-قالقك اوي الموضوع ده يا معلم ؟

-يعنى عاوز أشوف نفسي فى مرايتك

-طيب عموما مش هاكتبك زي ما أنت بحذافيرك؛ إنما ها تخيل شخصية تحمل بعض صفاتك وأضيفلها صفات أخرى من عندي وعلى أية حال أنا بالفعل كنت ناوي اكتب نص حطيتله عنوانه قبل ما أبدأ فيه

-ايه يا بيه؟

-رجل طيخ طاخ

-ايه؟

-كنت عاوز اصنع شخصية فيها مميزات ولاد البلد زيك يعنى جدع وابن أصول وشهم وأصبح عنده رصيد من معارف حوّلها بطريقته لشكل مرتبط بأسلوب بحياته ,, يظهر علشان يختفي , ويختفي علشان يظهر ومكان الأحداث قهوة زى اللى إحنا فيها دلوقتى ما تعرفلوش عمر ولا لهجة محددة ساعات يتكلم صعيدي وساعات يرطم انجليزي ولا أجدعها خواجة ساعات شاب وساعات عجوز بيكح كح ,أحيانا شحات و أحيانا أخرى عايش فى قصر.

-ايه الحلاوة دى يا باشا

-ناس تقول إنه مات من سنين وناس تؤكد إنهم لسة شايفينه من ساعة

-وايه كمان يا بيه؟ شوقتني

-ناس تحكي عن بطولاته فى حرب الاستنزاف ,وناس تحكى عن تجارته واستغلاله لحاجة الناس ناس تتكلم عن استشهاده فى الحرب ,وناس تؤكد أنه كان جاسوس يتدخل

فى خناقة ويفضها ويصلح ذات البين ونعرف أنه هو اللى وز و وسوس للبعض علشان يتعاركوا و...و...و...

-يعنى أنا كده يا بيه متناقض للدرجة دي

-أبدًا يا معلم أنت إنسان بكل معنى للكلمة؛ إنما أنت عارف خيال الأديب وعشقه للمبالغة والأكاذيب هههه

-وهاتطلع امتى الحدوتة الجامدة دي

-لما أعرف أكملها

-سعادتك وصلت لغاية فين فيها

-العنوان بس

-ياه ..ربنا يكرمك وتكملها يا بيه

-بالمناسبة أظن أنه بعد التطوير اللى حصل فى القهوة الاخوة اصحاب الذقون الطويلة والجلابيب القصيرة لم يعودوا يضايقونك ويشبعوك محاضرات بأن القهوة واللى بيحصل فيها أحد أشكال اللهو والصد عن ذكر الله.

-اطعم الفم تستحى العين .أخويا منهم وطالما شايف أنه ربحه كويس من القهوة وبيروح يصرفه على مشايخه فهو مسكت بقية زمايله عني.

-ازدواجية كلنا بيمارسها بطريقة أو بأخرى

-سيبها للخالق هو أدرى بشئون عباده

-مش معقولة ما فيش حد وصل م الجماعة لغاية دلوقتى عمرها ما حصلت

-أنا حتى بحاول أكلمهم على موبايلاتهم لكن ما حدش بيرد

-أنا نفسى أشوفهم واحد واحد وأعرف ايه اللى حصل وغيّرهم بالشكل ده

-ما تتعبش نفسك يا بيه ..يا بيه..يا بيه..تك ..تك ..تك

انتبهت أخيرا على طرقاته على زجاج السيارة ,كان المعلم أشرف أو شارو كما كنت أحب أن أناديه يحاول لفت انتباهى وأنا أقف بسيارتي أمام المقهى بأننى اشكل عائقا أمام حركة السير فى الطريق وأن الاماكن الخالية وفيرة بجوار المقهي يمكنني ركن سيارتي فى اي منها

-ما تتعبش نفسك يا بيه انزل والواد عبده يركنهالك ورا

ترجلت من السيارة بعد أن ساعدني المعلم شارو

-الجماعة موجودين؟

-ياه من بدري ما هما خلاص اتعودوا على كده دايما سعادتك تيجى اخر واحد

-هما كلهم موجودين

-كلهم يا بيه والناس منتظرين محاضرتك عن أشكال السرد المعاصر وكلمة الرفيق ياسر عن نظرية الأدب فى الماركسية وواقعية مكسيم جوركى الاشتراكية ومداخلة الأستاذ جلال عن الاشتراكية الناصرية أسباب الوفاق ومالات الاختلاف مع الشيوعية

ومسرحية الفصل الواحد للسيد أمين الجديدة ,وطبعا مسك الختام قصيدة الشاعر اسامة الجديدة عشان بعدها أعلقها على حيطة مدخل القهوة ,,هوا ده البرنامج اللى اتفقتوا عليه قدامى هنا فى القهوة امبارح

-هو أسامة اتجوز يا معلم؟

-أسامة آخر واحد ممكن يتجوز ما أنت عارفه كويس

-طيب صور عبد الناصر زى ما هي؟

-ادخل وشوف بنفسك هو فيه حاجه يا سعادة البيه؟ أنت فضلت قاعد جوا عربيتك وكأنك مش سامع أى حد رغم أني كنت بأزعق بأعلى حسي وأنده عليك .

تحسست خطواتى وأنا أتوجه بحذر إلى ركننا المفضل فى المقهي.نفس الديكور لم يتغير نفس الكراسي بنفس المناظر الجميلة للقاهرة والنيل وصور الأهرامات وأبي الهول ثم وجدتهم أخيرا أصدقائي كل واحد فيهم يجلس فى مكانه المفضل كل واحد فيهم كما تركته بالأمس وعندما رآني ياسر صاح في وجهي :

-ما فيش فايدة دايما متأخر الناس كلها في انتظارك

أخذتهم جميعا بالاحضان وكأنني لم ارهم منذ أمد بعيد,ثم تقدمت ببطئ ناحية كرسي المفضل ومددت كل الممكن من اطراف جسمي وارخيت رابطة عنقي ثم همست في أذن ياسر بعد أن أفرغت كوب ليمونه البارد دفعة واحدة فى جوفي :

-أنا ها غير الموضوع مش هاتكلم في أشكال السرد المعاصر

فنظر لي ياسر بغضب وصاح في وجهي

-يعنى تيجى متأخر وكمان مش هاتتكلم في الموضوع المحدد أومال سعادتك ناوي تقول ايه؟

نظرت إليه ثم إلى البقية ثم إلى المعلم شارو ثم إلى بقية زبائن ورواد المقهى وتنهدت تنهيدة طويلة ثم قلت في هدوء بطئ:

أنا لن اتحدث اليوم أنا فقط سوف آخذ مكاني بين السامعين لأستمتع بكلامكم.

obeikandl.com

مراجع أو(كيف تفسد نصك)

سأكون صادقًا هنا معكم بعض الشيء ربما لأول مرة لن أكتب قصة أو أحكي حدوتة أو أدون بلغة نثرية أو أسرد بشاعرية لن أستخدم أسلوب الدهشة المؤقتة التي تذهب بمجرد الانتهاء من القراءة حدث أو أحداث وشخوص وهمية واستنطاق حوارات لا داعي لها ولحظة إفاقة ومفارقات تصنع حبكة ما وتؤدي إلى لهفة مشوبة بالحذر ولن أستخدم تيار الوعي لأتدخل بشحمي ولحمي ليس كراوي إنما كبطل آخرق كالعادة لأحد النصوص التي كتبتها فجيعة الذات . لن ألجأ إلى رمز حيوي أو حفري لألوى من خلاله حياد الحقيقة. لن أفتت أصوات اليوت الشعرية الثلاث فهو صوت واحد فقط هو صوتي كمتكلم حاضر يظن نفسه عاقلًا دون استعارة صوت ضمير الهو ودون اللجوء إلى أصوات أخرى مسرحية تقول ما استحى عن قوله سأكون مباشرًا وسوف أعتلي منصة الكلام بعيدًا عن دائرة اللغة الغواية لكن لن استطيع أن اعدكم بمقاومتي لشهوة السرد وغثيانه وحقيقة فإن شغفي الأكبر هو في البحث عن جمهور للفرجة فهل أجد ضالتي لديكم ؟ ؟

كنت أود لو أنني صنعت حوارًا مع نفسي أن أقابل صدفة شاب يصغرني بعشرين عاما يجلس قبالتي على الرصيف في مكان ما أقول له حذاري فسوف تقع في نفس أخطائي عندما تكبر لأنه ببساطة أنا هو أنت لكنني تذكرت أن خورخي بورخيس الكاتب الأرجنتيني صنع قصة شبيهة بتلك اسمها الآخر فعدلت عن ذلك حتى لا أكون منتحلًا و أه من بورخيس هذا الذي كتب قصة اسمها كتاب الرمل, وهي قصة ليست بالقصة ولا تتحدث عن قصة تكتب داخل القصة انها تتكلم عن كتاب من عدد لا نهائي من الصفحات مرقمة بطريقة عجيبة بحيث إنك إذا طالعت عنوان داخل الصفحة المرقمة برقم معين ثم أردت أن ترجع لنفس الصفحة سوف تكتشف أنها أصبحت تحمل عنوانًا آخر وهكذا دواليك لا كلمات ثابتة ولا أرقام مؤجلة ولا تباشير محتملة الصفحة الأولى يصح أن تصبح الأخيرة ويصح جدًا أن تكون البداية في الوسط والنهاية في المقدمة؛ لكن حتى لا أثقل عليك عزيزي القارئ فدعنا ندخل إلى صلب حكايتي بعيدًا عن الكتاب السحري ذلك لبورخيس وحكايتي هنا كمثل حكاياتي السابقة لا تحمل اسمًا للبطل فأنا عمومًا لا أهتم بالأسماء ربما هي قصة واحدة لي في هذه المجموعة التي سوف تكون قد انتهيت منها للتو عزيزي القارئ ورد اسمي فيها ليس كاسم محدد لي بل كاسم قبيلة من الناس تشترك في اسم واحد اعم واشمل اسمي إذا وبكل وضوح ليس مهما ؛بل أنني كنت

أتضايق كثيرًا من الأدب الروسي والأدب اللاتيني الذي يحتفي بالأسماء بطريقة عجيبة هل تذكر على سبيل المثال قصة المعطف لنيكولاي جوجل ,هل تذكر كم مرة تكرر اسم بطل القصة الروسي اكاكيفيتش ,وفي المقابل لم يتم ذكر اسم الشخصية المهمة التي أتت قبل نهاية القصة بقليل ربما مرة واحدة أو ربما ولا مرة .لا أذكر فقط كانت وظيفتها هي الأهم من اسمها هكذا كان هو الرجل أو الشخصية المهمة لتكتشف أنه لا يفعل شيئا سوى الجلوس أمام المرآة لمخاطبة نفسه بعبارات تنم عن حسمه وجديته حتى لا ينسى أنه شخصية مهمة حتى حضر إليه أكاكيفيتش يطلب منه المساعدة ليسترد معطفه الجديد الذي دفع فيه كل ثروته والذي سرقه منه اللصوص في أول مناسبة يرتديه فيها طلب تافه لا يرقى لمسئوليات الشخصية المهمة فمات صاحب المعطف لأن الشخصية المهمة خذلته فأصبح يظهر له كشبح يؤنبه على خذلانه له بل أنه تجاسر وسرق معطفه أعلم أنك الآن تسأل نفسك عزيزي القارئ ولما أسرد عليك ذلك لا شيء لا شيء البتة سوى تكذيبًا لمجاملة تشيكوف لمواطنه جوجل بأننا جميعًا خرجنا من معطفه فلو صح ذلك لاكتفت الدنيا بجوجل فقط وحسبه أن يكون القاص الأعظم فيها مجاملات ولطائف الكتاب لبعضهم البعض أصبحت مكشوفة ومفضوحة لكن وقتها ربما لم تكن كذلك ربما كانت نوعًا من أنواع الكياسة التي لم تعد مقبولة اليوم فمعطف جوجل ضاق علينا نحن معشر الكتاب وأصبح ثوبًا مهترئا للقارئ البسيط وغير البسيط أيضًا من المحتمل أن تكون الترجمة قد شكلت عائقًا بين ذائقتي ونص المعطف لأنه على سبيل المثال فقد لاحظت ان المترجم أستخدم كلمة السعوط بدلًا من النشوق الأخيرة منتشرة في مصر وهى دولة عربية وربما تكون الأولى أكثر انتشارًا في بلدان عربية أخرى عمومًا فانك عندما تقرأ نصًا ما مترجمًا فأنت تقرأ لأثنين في وقت واحد أحدهما روح المؤلف والآخر نفس المترجم عفوا عزيزي القارئ وأسف جدًا انني عطلتك في مداخلات تافهة عن طريقة استيعابي لبعض النصوص فالتفاهة الحقيقية قادمة بعد لحظات من فضلك لا تتعجل وسوف أدخل الآن إلى حكايتي فأمنحني عفوك الآن لأنك سوف تهديني غضبك لاحقًا ماذا ماذا تقول ؟قل تصب عليا غضبك ولا تقل تهديني غضبك عندك حق عزيزي القارئ لكنني بالفعل قصدت أن غضبك القادم سيكون بالنسبة لي هدية وليس مصيبة وربما حملت الأسطر القادمة بعضًا من حل هذه الاشكالية والآن فلنعود لحكايتي ولنترك مؤقتًا الأدب الروسي العظيم الذي يذكرني دومًا بمثل شعبي يقال في بلادنا العزيزة (إن فاتك الميري أتمرغ في ترابه) وأزيد أنا عليه وإذا لم تجد ترابًا لدينا فلديك سلم الوظائف وترتيبة ألقاب الدولة اللانهائية في الأدب الروسي! !

لقد كتبت نصوصًا حاولت فيها جاهدًا أن أقف على صراط الحياد لكنني بالطبع فشلت مرات ومرات حتى خلت أنني لن أقوى على أن أنسي نفسي وسط ما أكتبه ما قيمة أن يكتب المرء عن الآخرين وينسى نفسه أنا لست ملاكًا ولست شياطنًا ولابد أنني وسط قراءاتي العديدة كنت أبحث عن بصمة خاصة بي تميزني وتصنع لي خصوصية تمنعني

من الذوبان في الآخر مهما كان مهما وضروريًا ذلك الآخر لا أريد أن أكون مجرد أصداء لكتاب آخرين أريد فقط أن أكون أنا كم هو بسيط هذا الحلم وكم هو بعيد المنال لكنه على العموم ليس مستحيلًا .

كنت كثير التأفف من كتابة القصة التقليدية وكنت أتوق للتجريب حتى أخبرني صديق أثق فيه انني لابد من أن أحترف التقليدية أولًا قبل أن أحاول العبث مع التجريب وكم كانت نصيحته غالية ومكلفة لقد قلت له مثلما تحرر الشعر من قافيته ووزنه لابد للقصة أن تكسر قيود القصة أريد أن أكون قاصًا مضادًا للقصة حيث لا لغة واضحة تؤدي إلى شيء ما ولا مقدمة ممهدة ولا وسط متشابك الأحداث والشخوص بالتالي لا نهاية أبدًا ابتسم صديقي واخبرني في هدوء الواثق المهم أن تكتب نصًا جيدًا يتكأ على قيمة ما .

اللغة هي العتبة الأولى هي الأنطولوجيا التي تسبق أبستمولوجيا الموضوع لكل منهما جاذبيته الخاصة ووقعه الذي يحتال بذكاء على كل من المؤلف والقارئ لكن مهما كانت اللغة مهمة فهي مجرد وعاء ووسيلة تكون تافهة إذا ما جاءت قضيتها مسطحة ويجب أن توزن اللغة بميزان الذهب بين كفة اللغة الغاية وكفة اللغة الوسيلة وبين القاعدة والطريقة ألف طريق وطريق من الوعورة بمكان أن تظل طول رحلتك ضالا للطريق فاللغة في النهاية وسيلة اتصال وطريقة للتفكير وهما وظيفتان متلازمتان لا يمكن فصلهما أبدًا .

ربما كانت مشكلتي أنني قرأت النقد الأدبي قبل أن أكتب من الأساس تعرفت على وضعيات كارل بوبر قبل أن أفسر نواميس الأله تعرفت على إرادة شوبنهاور من خلال نيتشة وليس من خلال شوبنهاور نفسه وقبل أن أقرأ نصوصًا أدبية أغوتني تلك الحيل والرؤى من حتمية الماركسية إلى انفعال الوجودية إلى موت المؤلف في جنازته المهيبة التي أعدها بإتقان رولان بارث . هناك نص كتبه مؤلفه نتيجة عوامل ودوافع خارجية اجتماعية ودينية وتاريخية كان لها بكل تأكيد تأثيرها صعب المقاومة على لحظة الكتابة فحضرت الكتابة جزءا من هذه الدوافع تعيد ترتيبها وإنتاجها لصالح جدلية التطور والصراع الحتمي وبزوغ طبقة جديدة أو للدقة إعادة ترتيب للطبقات الموجودة انها الكتابة لبروليتاريا البلشفية الكتابة من أجل مجتمع الأغلبية وليس من أجل الاخلاص لقيمة الأدب كنوع نخبوي قاهر مشكوك دومًا في قدرته على التواصل مع الدهماء وتواصل الماركسية مكيدتها فتحول الكتابة إلى أجير عند الايدلوجيا النقية الواحدة لكن الحقيقة إنه لا توجد ايدلوجيا مهما كانت ذو قيمة نقية وخالصة وصالحة على طول الخط . وربما كان هذا هو أحد أسباب اختلاف موقف الالتزام بين سارتر والواقعية الاشتراكية التي سارت على نهج مؤسسها مكسيم جوركي ولم تخنه إلا في القليل . ثم أنا والآخر الموجود في ذاته والموجود لذاته والموجود هنا والموجود هناك من دازاين هايدجر إلى الحرية والالتزام عند سارتر والتغريب والتمرد عند كامو ليبدو وكأنه تحقيقًا لمعامل اليوت الموضوعي

في خضم تحليله لأسباب فشل هاملت فنيًا تلك المعادلة التي ترغمك على عدم نقلك احساسك المبالغ فيه لمشهد ما قبل وضعه قليلًا في ثلاجة المنطق لتهدأ العاطفة الجياشة ويتم نقل المشهد إلى المتلقي بشيء من برودة الوعي وتؤدة الذهن ومقولات سارتر عن العادات والمبادئ إن المبادئ قد تذهب بينما العادات تبقى لاشك أن الأدب الوجودي لابد من ارتباطه العضوي بالفلسفة الوجودية نفسها والأخيرة يجب تتبع مسيرتها البعيدة عن غوغائية الخطاب الماركسي منذ نشأة ما سمي بالقصدية والشعور المجرد لدى عالم النفس فرانس برنتنانو أو فالنقل إن الشعور بموضوع ما يكون لا إراديًا اما لتكوين حقل معرفي حوله فلاشك إنه اختياري وانتقائي بيد ان الموضوع نفسه موجود قبل العقل بزمان سحيق كل ما في الأمر أن العقل أضاف إليه إحداثيات مكانية وزمانية محددة أو بعبارة أخرى فأنت حين تتكلم عن موضوع ما لابد وأن يكون معدًا سلفًا كفكرة عامة داخل عقلك ولابد أن يكون ترتيب الجمل المعبرة عن الموضوع سابقًا ومنتهيًا في دماغك عن تحريك لسانك بالكلام حول نفس الموضوع وهذا يضعنا مباشرة أمام الظواهرية وتبديها في الحاضر والمستقبل لدى هوسرل فالقصدية لديه هي حرية انتقاء الموضوع وذلك لا يتم إلا من خلال خروج العقل من الذات وأن تكون الذات خارج الوعي لتصبح هي الأخرى مجرد مادة أو موضوع لنصل إلى بدايات التكوين الوجودي لدى القس الدانماركي سورين كيركارد الذي ارتبط بحدود التضحية والفداء بين الأب النبي إبراهيم والابن النبي لاحقًا إسحق وهى وجودية الاحساس العميق بالذنب من خلال غريزة الأب مقابل التزام النبي وصولًا إلى لعنة التأويل وكينونة المعنى لدى هايدجر حتى جاء إلى المشهد سارتر لكن رواية الغريب لكامو لخصت بشكل جميل منطق أن تكون كاتبًا وجوديًا مهمومًا بالآخر والذات في وقت واحد وملتزمًا حد جدية الموقف وعبثية الوجود ولا مبالاة الاستجابة دون أن تتهم بانحيازك لفصيل الأغلبية القاهر فهؤلاء نكتب عنهم لكننا لا نكتب لهم . نكتب عن الفقراء لكن بعد أن نشبع و لأغرو أن أفضل من يعبر عن الفقر هو من تجاوز عتبة الحرمان هو إذا لا يكتب عن الفقر إنما يحث الفقراء ليتخطوا مساحات عوزهم ترى كم فقير سيقرأ لتجربة الغنى وإذًا ما حدث ألن يكون الغنى هو من يمتلك مفتاح التغيير إنها حلقة مفرغة من الكتابة عن الآخر وعن الأنا . وهكذا فأنت تكتب ثم تختار الأدب وسيلة للتواصل مع الآخر ثم تنتقى جنسًا أدبيًا بعينه لتعبر من خلاله حتى لا تنسى نفسك وأنت تتكلم عن الآخر وللآخر. كان لكتاب مورفولوجيا الحكاية لفلاديمير بروب وقعا ذو سحر غريب على كل من يقرؤه إنه مانيفيستو مدرسة الشكل أو الفورم وتلك كانت مقدمات البنيوية تحديد عدة وظائف للسرد أهمها قدرته على التحول الذاتي من شكل إلى آخر وهذا التحول يأتي عبر عملية التأويل الذهني للقارئ الضمني الأول الذي هو في الواقع ذات المؤلف العليا أو السوبر ايجو الغير واقعة تحت تأثير مخدر الكتابة وهو تأثير مصاحب ومتزامن لأجراء الكتابة نفسها هكذا إذا تعلمت أن المؤلف هو الناقد الأول لأعماله قبل أن يقرأها أي شخص آخر. لكن لابد أن بروب كان متأثرًا بكتاب الأعمدة

السبعة للدراما للمعلم الأول ارسطو صاحب المنطق الاستقرائي والمنطق الاستنباطي ومفهوم العدالة الشعرية المرتبط بكل سذاجة وفجاجة بانتصار الخير على الشر في نهاية مطاف الحدوتة العبيطة فالبطولة أزمة والمأساة ورطة ولا يجب أن تترك العقدة دون حل حتى ولو أصبحت منشورًا في الوعظ والإرشاد وهى بدايات التحليل الأولى التي لاتزال عالقة بوجدان الكتابة حتى اللحظة مهما أبدت من تطور وكنت أسأل نفسي ألا يمكن أن ينبع الصراع من خلال عراك الأخيار مع بعضهم البعض أم لابد من وجود شرير ما يضيف توابله الخاصة . يقول جون ميلتون في فردوسة المفقود إن أشر الناس خيار الناس إذا فسدوا وهكذا لا يمكن للخير أن يفسد من تلقاء نفسه مطلقًا هههه يا لها من سعادة قدرية ترتجف لها أوصال الحواس وترتعش لها المعرفة في شبق يقيني ويقول نيتشة ان اخطر الناس هم اهل الصلاح والعدل لانهم يحاكمون بكل اخلاص ويقتلون بكل صلاح ويكذبون بكل عدل .

ما تراه مغايرًا حداثيًا اليوم سيكون بعد أمد مجرد حكايات شعبية بسيطة ملهمة للفكاهة ويأتي بروب آخر ليفند أساليب وأشكال هذه الحكايات الشعبية الفلكلورية عن البطل الفاعل والالهة المعطلة والبطل العامل بالإنابة . . النص أخيرًا هو ظاهرة لغوية – كلامية مستقلة وجوديًا عن ظروف مؤلفها الهمام ولا تتبعه معرفيًا إلا من خلال الدلالة وسيميائية السرد والبنى التحتية التي أسهب فيها الماركسيون على أساس كونها البيئات الخارجية عن النص لدى المؤلف وهي ذاتها فحوى التناص لدى اطلاعه على كتابات أخرى تسبق عرف الكتابة هكذا نحتت جوليا كريستيفا منطقها الخاص بناء على إعادة تقييم لباختين .

يموت المؤلف أخيرًا ليبعث قارئ من نوع خاص قارئ يتميز بذكاء شديد يمكنه من أنتاج ميتانص موازشارح للنص الأصلي وإلى إعادة تدوير لظرفي الزمان والمكان نفسيهما لكن حذارى فهناك فارق بين الثلاثة بين الشرح والتأويل والنقد وبين هؤلاء ونقد النقد

لكن هل هذه هي النهاية لا لايزال جاك دريدا يفكر في المجيء ليسقط مذهبه التفكيكي ليس فقط على أنماط التأليف السردي وإنما على الكتابة بوجهها العام فالكتابة تحفظ الذاكرة وتدمرها في أن الكتابة تجعلك دومًا ضعيف البداهة وفي حاجة ماسة للورقة وليس لتلقائية الكلام . الشيء وضده وتزامنهما داخل النص الواحد السم هو نفسه الترياق وحتى يكتشف المداوي العلاج لابد أولًا من ألم ما بعد لدغة الحقيقة ثم انزياح مركزية النص التي تؤدي إلى نص لاسيميتري ولا مركزي ولا حتى هامشي إنه منطق الاختلاف ثم التأجيل وبالتالي لا يقين لدى دريدا مثلما كان عند هيدجر فاليقين عنده هو مقدمة لا يقينية تؤدي إلى دورات لا يقينية لا نهائية حيث لا معنى واضح ولا تفسير يقف على أرض صلبة أبدًا . النص في الماركسية خطاب بينما في البنيوية مجرد وعاء النقد في الماركسية يأتي من فوق النص بينما في البنيوية يكون من نفس مفردات النص من داخله ومن نفس لحمته ولحاءه اهتم الماركسيون بالتعاقب بينما أهتم البنيويون

بالتزامن النص لدى الماركسيون هرمًا يقف المؤلف على قمته ويشكل القراء سفحه بينما النص عند البنيويون كرة ربما يتماس مع أحدي اسطحها المؤلف لكن القارئ يشكل دومًا قطرها الماركسيون أهتموا بالمؤلف لأنه خلاصة خبرة مجتمعه ولأنه القادر الوحيد على أن ينطق بهذه الخبرة منشئًا كلاما يختلف عن كلام العامة رغم انه موجه بالأساس للعامة(فيا ترى كم من العامة استطاع فهم شخصيات المؤلف المهمشة التي تتحدث لهم وبلسانهم) بينما البنيويون أهتموا بالنص مستقلًا معزولًا عن ملابسات انشاءه الأولية ليحاول فك الشيفرة الأولى للنص من خلال العلامة دالها ومدلولها فاللغة لديهم كما أسس دي سوسير هي كم معرفي موجود قبل الكلام نفسه فقط كانت تحتاج للسان ولآذن لتتحول إلى موجود يحلق سواء كان قابلًا للقراءة فقط أم قابلًا للاستكتاب فضلًا عن القراءة كما تحدث رولان بارث المعجز فلو لم يكن هناك نص لما كان هناك مؤلف ولو لم يكن هناك قارئ لما كان هناك مؤلف ولو لم يكن هناك الة ما جاء ماركس لكن وجود ماركس لم يمنع الإله من التغول كما لم يمنع البرجوازية عدوة ماركس اللدودة من الاستمتاع بشبق النفاق كل ما في الأمر أن مثالية هيجل المتعالية المنتصرة دومًا للعقل كانت في حاجة ماسة لإعادة هيكلتها لصالح المادة وكان الجميع في حاجة لضرورة إعادة تقييم العلاقة بين الشكل والتكوين لذلك جاءت البنية التي اتفقت في النهاية في ابتذال واضح مع الماركسية بأن يكون الكل أهم من الجزء وان يكون الجزء معبرًا عن الكل دون أن يتسيد المشهد وحده فالجزء مجرد حلقة هشة تذوب في ديمومة الكل انها مجرد ألعايب ومراوغات لغوية من خزنة العلامات المحكم عند سوسير إلى الصورة الشعرية عند تودوروف إلى النحو التوليدي التحويلى والقدرة والكفاءة لدى تشوميسكي من كينونة المعنى عند هايدجر إلى موطن المعنى عند بول ريكور صاحب القدر الأوفر حظا من توفيق الظاهراتية الهوسرلية بالتأويلية الهيدجرية وصاحب الزمان والسرد حيث إن أي زمان تنبؤي لم يحدث بعد اعتبره قد حدث بالفعل وأصبح شيئًا من الماضي بمجرد وصفه في جملة سردية أو كزمان يقيس زمان مثلما تصف اللغة لغة أخرى أو حتى نفسها, ترى أيهما أكثر دقة أداة القياس أم الهدف المراد قياس حالته أو ربما تكون مصطلحات يحسد بعضها الآخر يتكيف منها من يقدر ويقصى من لا يستطيع حسب مفهوم المصاهرة والتكيف والوظيفة التي منها ما هو إرادي ومنها ما هو لا إرادي حسب عالم الاجتماع ماكس فيبر الذي جعل من علم الاجتماع اداة للتفسير ولم يقنع بدوره الصامت منذ أن تحدث فيه دوركهايم ويخيل لي أن كلمة مفهوم أصبحت أكثر مطاطية وامتلأت بأحاجي وأكروبات لا نهائية منذ أن حاول اصطيادها ديفيد هيوم وبعد كل ذلك أكاد أشك إنه في البدء كانت الكلمة بل بكل صراحة وفجاجة أيضًا لابد وأنه في البدء كانت العلامة (الصورة)وليست الكلمة . كلاهما دال لكن مدلول الصورة العلامة تقيدها الكلمة بنحوها وصرفها وقواعد جمالياتها ووظائفها فضلًا عن رؤية مؤلفها والعلامة الصورة فضاء رحب يكسر كل قيود التأويل الواحد ويفتح المجال على مصراعيه فهل تستوى

الشجرة عندما تراها بعينك مع كلمة الشجرة المكتوبة في نص ما إن جل ما تفعله اللغة أي لغة هو إعادة تدوير الأشياء في فراغ عقلي إعادة تمثيلها كموجودات تشبه حالة قائلها أو كاتبها لكن تبقى الأشياء أكثر حظوة من تسمياتها وتبقى علائقها فيما بينها ظروفا كونية مرهونة بلحظة التفكير فيها والتفكير سوف يرحل مع آخر إنسان يقضى نحبه وتظل الأشياء كما هي وتعود لها سيرتها الأولى قبيل أن ينعتها الإنسان باسم ما يتحور من لسان إلى لسان ما أنقى الأشياء إذا وهى تحلق حرة بعيدة عن اللغة وعن تاريخ الإنسان بل ما أحلي الإنسان نفسه وهو يتخلص من آخر آفة جعلته إنسان (الكلام)هذا هو سجن اللغة الكبير على حد تعبير صاحب المرايا المحدبة عبد العزيز حمودة تلك المرايا التي يرى من خلالها الرائي لنفسه بأنه أكبر حجمًا مما هو عليه في الواقع أنه سجن حبس الإنسان المفكر نفسه فيه ثم حاول حبس العالم أيضًا داخله فالدال والمدلول معًا أقل أهمية من العلاقة بينهما والدال أهم من الثلاثة فهو محور شيفرة التواصل كلمة كانت أو صوتا أو علامة وما بين سيميائية تواصل جاكوبسون وسيميائية دلالة بارث نقف عاجزين عن رؤية انفسنا بأحجامها الحقيقية دون تصغير ودون تكبير هل استطاع نيتشة أن يكسر حلقة الجمود الفكري العقلاني عند كانط الذي اسماه نيتشة المسيحي الماكر حتى وإن كان شوبنهاور هو قائلها فلا شك أن الجملة اعجبت نيتشة أيما عجب هل انفصلت عرى وأمشاج العقل والكون فالكون كون لأن العقل وضع به إرادة أن يكون كونًا خارجًا للعقل ومحتويه في أن بينما العقل هو الآخر مثل الكون مجرد مادة وأداة التفكير عند العقل لم تمنع الكون من الاستمرار المتصل منذ إرادة الانفجار الأول أو الأعظم وحتى لحظة نهاية لا يعرف أحد توقيتها العقل إذا لم يشكل أبدًا وفي أي لحظة معرقلًا ما لمسيرة الكون المذهلة ولن نعرف على وجه اليقين إذا ما كان الانفجار الأول الأعظم هو البداية أم إنه النهاية أم ربما يكون الاثنان معا . . سئلت صديقي ألا تلاحظ أننا كلما اقتربنا من النقد الحديث كلما ابتعدنا عن الأدب القديم ألا تلاحظ اننا دخلنا عصر ما بعد الحداثة دون فهم عميق منتهى الأجل للحداثة نفسها إننا ندور في حلقة مفرغة يا صديقي لا تختلف كثيرًا عن مربع علامات التضاد لدى جريماس ضحك صديقي وقال هل جننت هل توهمت أن دويستوفيسكى العظيم مثلًا يمكن أن يقع صريعًا في أشكال النقد الحديث الرياضية تلك لم يتجاسر المهيب بارث على نقد رواية كلاسيكية اللهم إلا رواية منسية ضئيلة القيمة اسمها ساراسين لبلزاك لكنني نبهته إلى كون ميخائيل بختين الذي سبق بارث كان قد أخذ على عاتقه فك طلاسم الجملة الحوارية المفترضة في أعمال العظيم دويستوفيسكى إنه مبدأ الحوارى أو الحوار المحتمل والشكل الاجتماع للرواية ووظيفة الملحمة وتلك كانت من ارهاصات مدرسة الشكل الروسية أمن صديقي على كلامي وتركني وحدي بعد أن قال بكرًا تفهم فلو كان الكلام مكتملًا ما كان هناك حوار مثلما قال كونفيشيوس في طاويته الناسكة والطاوية بالمناسبة تعنى الطريق لكل إذا طريقته التي يمهدها لنفسه أولًا قبل طرحها للغير .

هكذا إذا كانت قراءاتي الأولى وكان لابد من العودة إلى الذات إلى التراث وإلى الموروث إلى فض الاشتباك بين ما هو شخصي وما هو عام إلى وضع نفسي مكان القارئ وأنا أكتب ولكن آفة حارتنا النسيان كما قال نجيب محفوظ في أولاد حارتنا .

وبعيدا عن أوروبا جذبتني أميركا اللاتينية فوقعت أسيرًا لدى الواقعية السحرية عندما قرأت مائة عام من العزلة للماركيز ماركيز فقال لي صديقي الذي أثق فيه كثيرا كولومبيا هي فتفوته إسبانية لم تتخلص بعد من تأثير المستعمر حتى بعد رحيله بأمد لقد ورثهم قسرا لغته في حين فشل أن يقنعهم بما هو أبعد من اللغة عاوز واقعية سحرية خد عندك رواية فساد الامكنة لصبري موسى إنها واقعية سحرية محلية الصنع وسوف تكتشف لاحقًا أن مصطلح الواقعية السحرية ما هو إلا إعلان فشل نخبة تقرأ لنخبة فلم تقدر أن توصف اعمالهم بدقة فمزجت كلمتان متضادتان مع بعضهما البعض فهل تصدق وجود واقعية سحرية كل ما في الأمر أن واقعية شعوب تقبع وراء الشمس هي أساطير غير مروية لشعوب تخال نفسها تتبول في الفضاء الخارجي ويصعب عليها تصديق أن دولا استعمرتها ردحا من الزمان وتتحدث لغاتهم يمكن أن تنتج واقعية أكثر من واقعيتهم هم بالتالي يدارون غيظهم بنوع من المجاملة اللطيفة ويقولون عنها واقعية سحرية وإذا كان الواقع بحذافيره هو مجال الأدب فما الداعي للأدب إذا لابد من الخيال ولا مفر من التصرف والمبالغة حتى لا ينتقل الواقع كما هو إلى داخل ارصفة الكتب الأدبية كان بيكاسو يقول أن الفنان الذكي هو الناسخ بينما العبقري هو السارق وليس هناك أحلي ولا أمكر من سرقة فكرة ما قدمها الواقع وتحويلها إلى سردية معبرة مع شيء من فضفضة التحليق وهكذا كان صديقي ينتصر عليا دومًا ثم جذبتني فكرة أن يحاسب المرء لأنه شخص طيب شريف ابتعد عن المشاغبة السياسية سخرية كافكا السوداوية التي تعمق فيها مواطنه ميلان كونديرا لكنه كان يكرر نفسه كثيرا وكان يكفيه اماطته لخفة الوجود التي لا تحتمل لكائن في منتهى الخفة والوادعة . كان يكفيه علم الصورة الذي تحدث عنه في رواية الخلود ذلك العلم الذي كنا نمارسه دون أن نعي إنه علم لكن أفضل ما جاء من تنظير فيه هو دراسته لمدى ارتباط المأثور الشعبي المتراكم والمتوارث والمتواتر لنفس وظيفته ومعناه عبر الأجيال أو بمعنى آخر مدى تطابق الشفاهي مع نفس وظيفته التي حكى من أجلها حين اخترعه الاجدًاد وظنوا أن أسلافهم سيصونون الأمانة بيد أن أعمق ما قاله اكونديرا جاء حين تحدث عن الثورة التي يشعلها متحمسون لن يلبثوا إلا أن يتحولوا إلى مجموعة من الطغاة لأنهم ظنوا أن طريقتهم فقط هي المثلى بالتالي فلا وجود لجنة أبدًا ينتهى إليها سعى الإنسان كادح كان أو مرفه . قال لي صديقي مشكلتك إنك متعدد المهام أثناء الكتابة فأنت طبيب ومثقف وفيلسوف وثائر وناقد وعاشق كن شيئًا واحدًا فقط يخلو لك وجه قارؤك نقيا مخلصا . . لا تخلط بين النص الوسيلة وبين الخطاب القاعدة والحكم وكن واثقا بانك لن تستطيع أن تكتب نصا تقول فيه كل شيء يجب أن تجذب أنتبًاه قارؤك بشيء ما تخفيه عنه يجب أن تحثه على

الوصول إلى النتيجة ولا تعطيه النتيجة جاهزة لا تقدم حلولا أو أنصاف حلول هناك من يفضل أن يكون جيدًا فقط أثناء كتابته وهناك من يفضل أن يكون جيدًا أثناء كلامه لكن من يفضل أن يكون جيدًا أثناء ممارسته للفعلين فاعلم بأنه مخطئ اختر طريقًا واحدًا فحسب فاختيار كل الطرق كعدم المشي في طريق البتة . نسمع عن بيتهوفن نطرب لموسيقاه تحفل ابحاثنا بدراسة عبقرية الفذة لكننا لا نفكر في اساتذته هؤلاء من منحوه تدريبا جيدًا ولم يستطيعوا أن يقدموا ما هو أفضل من التدريب لذلك تجاوزهم تلميذهم بيتهوفن وأصبح ما أصبح عليه فاختر إما أن تكون مدربًا أو أن تكون موهوبًا لا ثالث لهذين الاختيارين . لا تكن مثل نيتشة الذي نبذ كل اصدقاؤه لأنه أرادهم مثله اختلف مع شوبنهاور أستاذه لأن الأستاذ كان يرى الأخلاق موضوعية وليست ذاتية مثلما كان يراها التلميذ نيتشة واختلف مع فاجنر لأن موسيقاه كانت تبشر بالمخلص الإله في آخر ما جاد به العصر الرومانتيكي في الموسيقى الكلاسيكية . قال لي صديقي الكثير لكنني لم أقدر أن أنفذ كل نصائحه الغالية وددت لو أنني استطعت فك شيفرة الرواية الأولى وأنا أحارب بفانتازيا طوباوية (سطحية الرامز والمرموز) طواحين الهواء مع الإسباني سيرفانتيس التي فرضها على بطله دون كيخوت لا لشيء إلا لأنه فشل في فهم متغيرات الواقع حوله دون كيشوت ذلك النبيل الذي مات في الجزء الثاني من الحدوتة برمية سهم أو رمح مجهول المصدر انها موتة تافهة لبطل أسطوري وبطل وجيه يقاوم الطاغوت لكنه يمارس نوعًا طفيفًا من الطغيان على خادمه سانشو بانشو الفلاح القصير السمين الذي كان أغلب الرحلة إما مترجلًا وإما راكبًا على حمار إما سيده الكيشوت فهو الفارس المعتمر قبعة النبالة المتهئ بدرعة الراكب على حصانه نعم كان الخادم أكثر حصافة من سيده ولو كان أخذ بنصائحه ما كان مات تلك الموتة العجيبة . . وددت لو إنني مكثت على مقهى الروح أعيد بناء ما تبقى من أشلائي بعد هزيمتي في معركة الكلام الشفاهي والمكتوب على السواء لكن أقصى ما استطعت فعله هو الذهاب لقضاء حاجتي . أحتاج لوصفة دواء سحري المفعول كتلك المصالحة التي عقدها يحيى حقي في قنديل أم هاشم إنه تأثير البلاسيبو مصطلح تعلمناه في علم الدواء كيف تحقق المعادلة من خلال الدوجما (العاطفة) والبارا دايم (النموذج الفكري) معًا وتستطيع أن تمزجهما رغم ما يبدو ظاهريًا من استحالة دمج العاطفة والعقل في إناء الإقناع لكن هكذا نجح يحيى حقي في عقد المصالحة ولو مؤقتا بين الخرافة والعقل عندما فشل بطل قصته العائد من ألمانيا في علاج عيون حبيبته الريفية الجاهلة مستخدمًا في ذلك أسس وقواعد الطب الحديث لكنه عندما أحضر زجاجة الزيت المبروك المليء بالموروث وفضلات يرقات الكهنوت وافرغ ما بها من زيت وصب دوائه العلمي مكانه في الزجاجة واعطاها لحبيبته على كونها زيت القنديل المقدس شفيت وأبصرت النور ببركة العارفة بالله ونور العلم الحديث يا لها من صفقة شديدة الذكاء لكن صديقي عاد يحذرني من جديد قائلًا أن بطل القصة استمرئ اكتشافه ولبس جلبابا وربى كرشه وافتتح مشفا للشعوذة حول

ضريح التبريكات الشهير الخرافة انتصرت على العقل فكن حذرا يا صاحب العقل حتى لا تستيقظ من نومك فتكتشف أن ذنبًا صغيرا مثل اذناب الخنازير ينمو فوق مؤخرتك فتصبح مثل أبطال عزلة ماركيز الخالدة وتحتاج مائة عام أخرى لاكتشاف كروية الأرض من جديد حذارى فتأثير البلاسيبو يجب أن يبقى سرًا بين المخترع واختراعه وإذا عرفه المريض فشل التأثير وعدنا لنقطة الصفر من جديد فضلا عن كون البارادايم متغير على الدوام أو هكذا يجب أن يكون حتى لا يصبح متشابه على الدوام لذلك فضل توماس كون التفكير باستمرار خارج صندوق النموذج التقليدي هذا لإنتاج نماذج أخرى وأخرى يزيح بعضها الآخر ويتلاحق بعضها مع الآخر فالعالم لا يمكن أن يقف مرهونا بنموذج فكري واحد وبناء عليه يبقى نجاح تأثير البلاسيبو النفسي المخادع مرهون ليس فقط باختراع أدوية جديدة وإنما باكتشاف أمراض جديدة أو على الأقل معرفة أمراض قديمة لم نكن نعرفها لأننا لم نكن بعد نملك لا الأدوات العقلية ولا المادية في كشف هويتها .

هل كان أدم أبو البشر حقًا هل كان هو المخلوق العاقل الأول – أعوذ بالله أنت هاتكفر ولا إيه ؟لا أقصد ولكن أدم أيضًا كان أول الأنبياء وما الضير في ذلك ؟ترى من كان يعظ وليس على الأرض سواه ونحن جميعًا لسنا أولاد القاتل ولسنا أولاد المقتول ترى أبناء من نحن ؟إلى ماذا تريد أن تصل أيها العفريت ؟أبدًا كنت أفكر في أن الخلق ربما لم يكن الأول ربما كان إعادة خلق من جديد . لو تقاسمنا العلم الحديث خاصة علوم الاحاثة مع النص الديني ترى أيمكن أن يكون أدم أحد أنواع الإنسان العاقل الهوموسابينيس ؟لا يعم داروين الإنسان هو الإنسان وبلاش عك ووفر على نفسك مشقة البحث دون جدوى فالقاتل الفلاح الخبيث البخيل والمقتول الراعي الطيب الكريم حرمًا من التناسل بينما جاءت البشرية لاحقًا من أخيهم شيت الذي لم يعرف له مهنه محددة على وجه اليقين غير كونه كان متكلما فصيحًا لذلك فنحن أبناء الكلام وليس الفعل . يبدو أن حواراتي مع صديقي هي مجرد صدى لصوتي أمام مرآة الروح تماما مثلما عبرت له ذات مرة عن إعجابي بالإعجاز العلمي في الأسطورة الاغريقية وخاصة فيما يتعلق بقصة الخلق حيث بروميثيوس سارق نار المعرفة ومهديها للبشر الذين خلقهم بأمر زيوس لم يعاقب بروميثيوس من أجل ذلك بل عوقب لأنه فضح غباء زيوس وعدم معرفته بالغيب وكان عقابه السرمدي بأن يمكث على قمة جبل جليدي متجمد ليأتي نسر مع طلعة كل شمس ينهش بطنه ويأكل كبده حتى لا يبقى منه سوى جزء صغير للغاية ثم تغرب الشمس وحينما تشرق شمس اليوم اللاحق يتكرر نفس العقاب فكيف عرف الأقدمون أن الكبد انسجته يمكن أن تنمو مجددًا من جزء صغير منه . . نصحني صديقي أخيرًا بأن أتفحص كل نصوصي من جديد برؤية الناقد في احتفال موسمي يحتفي بالثقافة شريطة أن أكون لا منتميا كمواطن عالمي مثل كولن ولسون حتى أستخلص العبر والدروس دون مضايقة أو رقابة من أحد فتحدد بدقة موقفك اللامنتمي إذا كان وجوديًا أم رومانسيًا أم خليط من هذا ومن ذاك أو فلعلك تعتزل الناس بحثًا عن الحقيقة وتزهد

في الدنيا وملذاتها وتصبح مثل ديوجين ومصباحه الشهير الذي أصبح أكثر شهرة من صاحبه لكن بالطبع دون ان تمارس عادة الاستمناء علنا امام الناس مثلما كان يفعل ديوجين .ثم صرخ صديقي غاضبًا ما ذنب القارئ في تعويذة ثقافتك إنها لك أنت وحدك لا تتفلسف عليه لتخبره أن سوفوكليس اكتشف الممثل الثالث ولكن امنحه حوارًا هادئًا يجعله هو يصل إلى ذلك لا تكن مباشرًا وأيضًا وفي ذات الوقت لا تهتم بالجملة على حساب المعنى مثلما يهتم الشاعر بغنائية ألفاظه دون اهتمامه برسالة قصيدته وحالتها الايحائية ولا تعتقد إنك بريخت ذلك الطيب الذي كسر حاجز الأيهام واشرك جمهوره في الفعل المسرحي فأصبح الجميع يمثل ولم نعد قادرين على تبيان من الممثل ومن الذي لا يمثل تصور أن بريخت كان مسرحه الملحمي موجها بالأساس للفقراء والمهمشين والعامة لتكتشف في النهاية أن النخب فقط هي التي استوعبت منطقه الخاص المكون لقطر دائرة طباشيره القوقازية نعم يا صديقي فنحن نظن أننا نتبسط لنكتب ونعبر عن الآخرين الذين نطلق عليهم تعبيرًا شديد العنصرية وهو العامة فإذا بنا نعيد صياغة نخبة جديدة أو أن شئت نكبة جديدة ليبقى المهمشين والعامة مجرد حبر سميك على لافتات احزابنا اليسارية السعيدة لافتات كان عدمها سيوفر على الأقل من قماشها ما يستر عورة الفقر والعوزة لهؤلاء الذين فقدوا نعمة القراءة لأعمالنا العظيمة رغم كونهم المادة والموضوع الثري لأعمالنا شديدة الحساسية لقيمة الإنسان قل لي مثلًا لماذا تقول انطولوجيا ولا تقول وجود لماذا تقول أبستمولوجيا ولا تقول معرفة هذه ليست مشكلة اللغة هذه مشكلتك أنت والواقع إنه في كلتا الحالتين لن يفهمك سوى قارئ بعينه سواء بدأ قراءتك من اليمين أم من الشمال إن أكثر ما يؤلم مؤلف ما إن يصفعه قارئ ما بسؤاله وما الذي تقصده هكذا يخسر المؤلف قارؤه ببساطه وهو المسؤول بالطبع لأنه لم يقدر أن يتنازل عن كبريائه من أجل قارئه و يا لها من حيرة . هناك بديهة علمية تقول أن ما تدرسه تغيره وكذلك النصوص تدرسها لتغيرها عن كينونتها الأولى هكذا أفنى كلا من بول ريكور وجورج لوكاس حياتيهما في فهم مستويات التلقي كم كان هؤلاء مخلصون جدًا لفعل ورد فعل في منتهى البساطة وجعلا منهما أكبر همهما وأكبر عقدة في تاريخ الإنسانية وهكذا أيضًا لا يصبح الدين والجنس والتاريخ (السياسة)مثلث التابوو الشهير محرمات بدون الإنسان نفسه يقول كلود ليفي ستروس شيخ البنيويون أن التاريخ بدأ بدون إنسان وحتمًا سوف ينتهى بدون إنسان هي إذا صيرورة الجنس البشري في الابتداء والانتهاء كحلقة مفرغة من التاريخ تدور حول نفسها لكنها لا تبرح مكانها فإذا كان التاريخ حدثًا مهما فإن العرق الإنساني هو الذي أضفى على التاريخ عنصرية شديدة فالإنسان هو أكثر المخلوقات شوفونية في هذا الكون والإنسان وحده هو الظاهرة المحيرة الكبرى التي تقف موقفًا مائعًا بين حقيقة الفينومينا الظاهرة وروح النومينا(الميتافيزيقا) الغير محسوسة رغم وجودها ومهما اختلفنا وتباينت أفعالنا وطرائق تفكيرنا يأتي الموت ليحصد كل الاختلافات ويوحد الجميع في النهاية لكن دون أن يعوا وقتها فالميت لا يخبر

الحي بما يرى إنها اللحظة الفاصلة الضرورية التي لا مناص منها ولا قرار فيها لذلك يجب أن ينتهى التاريخ متسامحًا كما بدأ ينتهي كومضة وجودية دون عقل معرفي كما بدأ وبما أن التاريخ لم ينتهى بعد فأننا لا نزال نحاول ونحاول أن نفهم وأن نبصر ولو قدرًا ضئيلا من عظمة هذا المجهول

لو كان الأدب هو مجال قياس الواقع فقط لما استطاع ذلك بدقة تصل إلى الكمال لأنه حسب مفهوم هايزينبيرج ومبدأ الريبة فإن آلة القياس تتدخل في النتيجة فتصل مشوشة إضافةً لكون الموضوع المراد قياسه وهو هنا الواقع متغير باستمرار. لذلك يجب أن يكون الأدب خليطًا بين عدة أمور منها الواقعي ومنها الخيالي منها الصادق ومنها الكاذب منها المحدد ومنها المبالغ وكذلك الحال في النقد وفي نقد النقد فالمشهد ليس في حاجة إلى الخطاب بل هو في أمس الحاجة إلى إعادة تدوير هذا الخطاب وارساله إلى مرسله بجملة لطيفة لم يستدل على العنوان!!

قف هنا وحاول أن تستوعب ما قاله لوركا في محاضرته في أمريكا اللاتينية عندما تحدث عن الدوينديي وهو ربما يعني في لغته الإسبانية الامتلاك إنه سحر عجيب يفوق سلطة الوحي إنه سر حلاوة أصوات السود وتميز سيقان راقصات الفلأمينكو ورشة ألوان ماتيس الاصطناعية القاسية في لوحاته ورهافة راقصات الباليه في لوحات ديجا وبذخ الشعور بمأساة الأسود والأبيض في شعوذيات جويا كان لوركا يقول أريد أن تفهمني نفس الشخصيات في الواقع التي أستمد منها صوري الشعرية أريد أن يفهمني صانع السروج حينما اتقمص لسانه مثلما يفهمني معشر الشعراء فنحن دون هؤلاء مجرد ماكينات سردية ثرثارة . لا بأس أن تصنع فيلمًا عن الحرب لكن العبقرية ألا يسمع فيه صوت طلقات رصاص أو دوى مدافع.

من الساذج الذي يصدق أن أوديب لم يكن يعرف أن زوجته هي أمه أرملة أبيه الذي قتله بيديه كل ما في الأمر أن البطولة يجب أن تذهب إلى منتهاها المأساوي كما رسمه سوفوكليس فالأب هو الذي ابتدأ لأنه أراد تغيير القدر وحاول قتل ابنه لأنه عرف مقدمًا أنه سيقتله أراد سوفوكليس أن يقول لنا ما أحلي الجهل وعدم المعرفة بالمستقبل حتى ولو كان على هيئة نبوءة عراف ماجن لكن أوديب لا يقتنع ويعاقب نفسه بفقا عينيه إنه ينوب نفسه عن الإلهة في عقابه هذه هي البطولة فعلًا لقد أسرتني بطولة ابليس لدى الحلاج في الطواسين بأكثر من بطولة أوديب فهل فعلًا رفض السجود لغير الله لتقواه أم لأنانية وإن كانت الإجابة هي الأنانية فهل نحن أقل أنانية من ابليس . ايريش فروم حاول استخلاص مذاهب الأسطورة المختلفة لكن الحلاج أجتهد في وضع رؤية مغايرة لبعض الثوابت التي جبلنا عليها وأسأل نفسك كيف وصلتنا الأسطورة أليس من خلال الأناشيد والأغاني والملاحم الأدبية الفعل الأدبي إذا سبق الخرف الأسطوري . العقل يا صديقي مجرد مادة مفكرة والطاقة هي الأخرى شكل أثيري غير مرئي لكنه محسوس أتري أنها المادة صاحبة الحظوة الكبرى ,هل لديك شك فى أن أوديب كان لديه نزعة انثوية قاهرة

أو بتعبير كارل يونج كان يمتلك بعنف ما أسماه الانيما وهى عكس الانيموس أو الذكورة عند الاناث هل تذكر رسالة الغفران ؟ذلك المشهد الأزلي للجنة والنارولا اعرف لم لا تكون جنان ونيران؟أه تذكرت فهو ثواب وعقاب ولا ينبغى أن يكون أحدهما مفرد والأخر جماعى ,كان أبى العلاء يرد ساخرا علي رسالة ابن القارح التائبة التى القاها في مرماه دون أن يراه ,,يا للسخرية من توبة شاعر تلقى في طريق من أتهم لاحقا بالزندقة والآن لنعد ترتيب الأحداث بشيء من الخيال المهذب نيتشه أعلن موت الأله وأنتقى الإنسان الخارق الذي لا يموت إنمّا يتحول من شكل إلى آخر في ديمومة وأبدية وإعادة خلق من جديد مثلما هي الحياة في بكارتها عند زرادشت ورولان بارث أعلن موت المؤلف الجسور ليخرج من عظامه قارئو أكثر جسارة وما بين نيتشه ورولان بارث وإعادة مفاهيم السلطة والمؤسسة والمقاومة والخطاب وتداخل أدوارها عند ميشيل فوكو ونظرية الدولة ووظيفة المعرفة والأخلاق عند سبينوزا وتبرير العنف وقصره على الدولة عند تروتيسكي واخضاعه لمصاهرة الأعراف بالقوانين الوضعية عند ماكس فيبر صاحب جدلية كاريزما الزعيم الملهم وبيروقراطية الأداء المؤمن وأخيرًا وضع المثقف عضوي كان أم مستقل لدى سي رايت ميلز وتلميذه النجيب إدوارد سعيد بين كل هؤلاء ومع غيرهم لانزال نبحث عن ذواتنا البكر وكأننا نعيد اكتشاف لغة قبيلة قريش العامية التي أصبحت لدينا فصحى

وبعد . . . تلك كانت قصتي الأخيرة الغير مروية التي لم استطع أن أنهي المجموعة إلا بها شيء ما كان يحز في ضميري وكنت أحتاج لعتقه من ذنب عدم البوح . كنت أحتاج لنص أقول فيه كل شيء ولا أخبئ عنه شيء أردت أن أقول أن الكتابة المحايدة اكذوبة كبرى وأن العلم هو الوحيد المحايد لكن دون مطلق فلو كان لديه مطلق لما تطور أبعد من نظرية الطفو عند أرشميدس أردت أن أفضح نفسي وأردت تعريتها وأردت أن أقول لكم لا تقنعوا أبدًا بأعمال ظن البعض أو الكل انها أعمال عظيمة مهما كانت قيمة وقامة هؤلاء وأرضوا فقط بما تراه ذائقتكم عملًا جميلًا حتى ولو اجتمعت البشرية على تدني مستواه وأردت أن أقول الكثير مما أسعفتني به ذاكرة الوحي الذبيحة فهل استطعت الآن أن أفسر لكم لماذا أنا مشوّه إلى هذا الحد .

كانت تلك هي حدودتي التي أقف فيها كل المواقف , كاتبًا وقارئًا روايًا ومرويًا عليه ومرويًا عنه في آن .

كانت تلك هي امنيتي الأخيرة قبل أن أشرع في التطهر من خطيئة الذات العليا التي تصورت انها قادرة على إدارك كل الأمور .

اعتبروني عبرة أو اعتبروني قدوة

الأهم ألا تقعوا في نفس أخطائي .

obeikandl.com

وختامًا

عن قطعة لحم نيئة
تستعصى على المضغ
إما أن تضطر لبلعها
بدهونها وعظامها وجلدها
فتصاب بعسر هضم تتألم منه بعض الوقت
لكنك ستتخلص منه سريعا
في أقرب دورة مياه تصادف طريقك
ليبقى لك بعدها ذاكرة اشتهاء اللحم المر
وإما أن تقذف بها من فمك على قارعة الطريق
فتلاحقك رائحة الندم على قطعة لحم كان من الممكن أن تسد جوعك ولو مؤقتًا
وإما أن تمضي في طريقك غير عابئ
فتفقد خبرة التجربة
وإما أن تكون نباتيًا فيكون لك مسلك آخر
وأنت في كل الأحوال حر.
تمت بعون الله وفضله.

دكتور محمد يوسف

obeikandl.com

obeikandl.com

بيوغرافيا

الدكتور محمد يوسف جاب الله

من مواليد مدينة كفر الشيخ في ١٧ ابريل نيسان ١٩٧٠

تخرج في كلية طب الأسنان بجامعة طنطا عام ١٩٩٢

حصل على دبلوم جراحة اللثة من قصر العيني عام ١٩٩٧

عضو نادى الأدب بكفر الشيخ ومؤسس نادي القصة به

له مساهمات عديدة ودراسات عن الحركة النقدية الحديثة

مؤسس حركة نشر الثقافية وصفحة نادى السرد على الفيس بوك

له تحت الطبع رواية بعنوان مؤتمر الزعفران

Email tabebasnan@yahoo. com

obeikandl.com

المحتويات

إهداء..... ص٣
تصدير..... ص٥
مقدمة..... ص٧
وحدة..... ص١١
آخر الاموات..... ص١٥
ولكن السوريالين نادرًا ما يرسمون البورتريه..... ص١٧
سراب يقظة..... ص١٩
شبه فعل..... ص٢١
إغماءه..... ص٢٣
الليلة الكبيرة..... ص٢٧
عيد ميلاد..... ص٣١
قربان الخريف..... ص٣٣
هليلويا..... ص٣٩
الناشط على..... ص٤١
صلاة العيد..... ص٤٧
كأنه أنا..... ص ٥١
سيدة الأرض(نوستالجيا)..... ص٥٥
الشاطر حسن..... ص ٥٩
التشريفة..... ص٦٣
يقظة ضمير..... ص٦٧
تشوهات في منفى..... ص٧٣
الذي لم يأت..... ص٨١
هيستيريا..... ص٨٥
ألابد أن يكون هنا..... ص٨٧
أحدب الميدان..... ص٩١
ألف باء..... ص٩٧
صندوق النذور..... ص١٠٧
أرض المنكر..... ص١١١
اللعبة..... ص١١٥

obeikandl.com

طبقة وسطى..... ص١١٧
سينما المؤلف..... ص١٢٥
ذلك الصباح العادي..... ص١٢٧
على هامش الفكاهة..... ص١٣٣
ليلة لا تريد أن تنتهي..... ص١٣٥
ثرثرة في مقهى المعلم شارو..... ص١٤٣
مراجع..... ص١٥٧
وختامًا..... ص١٧١
بايوغرافيا..... ص١٧٣

obeikandl.com

obeikandl.com